أنوار السيرة

تأملات وثمرات وإجابات عن شبهات

حمدي شفيق

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

أنوار السيرة

تأمّلات وثمرات وإجابات عن شبهات

بقلم

حمدي شفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُّنِيرًا} [الحزاب: ٤٦]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، ورحمة الله للمخلوقين أجمعين..أمّا بعد..فقد تبارى العلماء والشعراء والمفكّرون والمؤلّفون-جيلًا بعد جيل-في تناول السيرة العطرة بالبحث والدرس والعرض، كُل حسب ما أُوتي من فهم وعلم.. ولم ولن يقدر شخص واحد على الإحاطة بجميع جوانبها وكنوزها وأسرارها، فهي كالبحر الزاخر، لا يظفر منه باحث أوكاتب أوشاعر، إلا بمقدار ما يعلق بمنقار أصغر طائر.. وسيبقى الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم، أكبر وأعظم، ممّا ينطق فم، أويسطر قلم.

وقد حاولت -في هذا الكتاب-تقديم عرض مُوجز للسيرة، بأسلوب سهل، ولُغة يسيرة مُعاصرة، تكون في مُتناول شبابنا، مع تأمّلات، وثمرات، وردود على كثير من الشبهات، حول حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم..فإن كنت قد وُفّقت، فهذا من فضل ربّي.. وإن أخطأت، فما هذا أردت.. والكمال لله وحده، والعصمة لأنبيائه وملائكته، وهوسبحانه وتعالى الغفور الرحيم.

المؤلّف

القسم الأول

العهد المكّي

١ – إن الله لا يُضَيّع أهله

من المعلوم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يُنجب فى شبابه. وبعد أن نجّاه الله ولدًا. وهوتصرف نبيل من زوجة أبى الأنبياء. وقد كافأها الله تعالى عليه لاحقًا. وبالفعل قَدّر الله تعالى أن تعالى من النار، سار بأهله من العراق إلى الشام..ثم إلى مصر، حيث حاول ملكها الفاجر أن ينال من زوجته "سارة"وطرًا، فأذلّه الله، وشُلّت يده المرّة تلوالأُخرى. واستبدّ به الرُعب، فأمر بإخلاء سبيلها، ووهب لها أميرة مصرية من أرفع البيوت، هى"هاجر"لتخدمها. وكانت"سارة"عجوزًا عاقرًا، فوهبتها لزوجها، لعله يُنجب منها يُرزق إبراهيم عليه السلام بولده البكر إسماعيل من"هاجر"المصرية.. ولحكمة يعلمها المولى، أوحى إلي الأب أن ينقل الرضيع وأمّه "هاجر"إلى صحراء الجزيرة العربية..

وأطاع الخليل أمر ربّه.. وذكرت الروايات أن إبراهيم عليه السلام سار بهما حتى بلغوا مكة، فتركهما فى موضع بئر"زمزم"وكانت–فى ذلك الوقت–صحراء ليس بها أحد ولا ماء. وترك لهما جرابًا فيه تمر وماء، ومضى عائدًا إلى الشام.

راحت هاجر تناديه، ولا يلتفت إليها. وكرّرت السؤال:يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟! فلم يرد..فسألته أخيرًا: أالله أمرك بهذا ؟ قال: نعم.قالت رضى الله عنها بعزم ويقين وإيمان:إذًا لا يُضَيّعنا.. وانطلق أبوالأنبياء، حتى إذا بلغ موضع"الثنية"دعا قائلًا: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) سورة ابراهيم : ٣٧.

وظلت أم إسماعيل تأكل من التمر وتشرب مما معها من ماء وترضع وليدها.حتى إذا فنى ما فى الجراب عطشت وعطش ابنها..نظرت إليه وهويتلوّى من شدّة العطش، فكرهت أن تراه هكذا، وانطلقت هائمة على وجهها ..صعدت "الصفا" فلم تر أحدًا..فنزلت حتى بلغت " المروة"فلم تجد أحدًا أيضًا..فعلت ذلك سبعة أشواط.ثم قالت لنفسها: لوذهبت فنظرت ما فعل الصبي، فذهبت فإذا هوعلى حاله، يكاد يحتضر..

وبعد الصبر على الابتلاء جاء الفرج .. وأرسل الله الرحمن الرحيم بعباده"جبريل"عليه السلام، فضرب الأرض بجناحه –فى موضع زمزم– فانبعث الماء بقدرة الله. وجعلت هاجر تحوّضه (تجعل حوله حوضًا من الرمال) وتغرف في سقائها والماء المبارك يفور . ويروى ابن عباس رضي الله عنهما –والحديث في صحيحى البخاري ومسلم– قول النبي صلى الله عليه وسلّم : ((رحم الله أم إسماعيل لوتركت زمزم –

أوقال لولم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينًا معينًا..قال: فشربت وأرضعت وليدها..فقال لها المَلَك:لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيتًا لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه.. وإن الله لا يُضَيّع أهله))

وهذه هى الحكمة الكبرى فى نقل إسماعيل وأُمّه إلى موضع بيت الله الحرام، ليبنيه الرضيع، عندما يكبر، مع أبيه عليهما السلام.

وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى جاءت قبيلة "جرهم"لتسكن إلى جوار زمزم بإذن من أم اسماعيل، ثم تلتها قبائل أخرى. وهكذا تكوّنت "مكّة"أم القرى، وموضع الكعبة المشرّفة. وعندما بلغ إسماعيل الصبا، كان الابتلاء الثانى، وهوأمر الله لخليله إبراهيم بذبح ولده الوحيد- قبل أن يرزقه الله من سارة بإسحاق لاحقًا- فأطاع الأب والابن والأُمّ.

وما كاد يضجعه على الرمال، ويهم بوضع السكين على رقبته، حتى ناداه ربه، مُثنيًا على طاعة أهل البيت وإحسانهم وصبرهم على البلاء العظيم، وافتدى إسماعيل من الذبح، بكبش عظيم جاء به جبريل عليه السلام.فهوالذبيح وليس إسحاق، كما يزعم اليهود حسدًا وحقدًا على العرب والمسلمين.. ومن نصوص التوراة التى لم تتعرّض للتحريف، يُوجد نص على أن الذبيح هو(ابنه البكر) والثابت أن البكر، أى أوّل ولد إبراهيم وأكبرهم، هوإسماعيل جدّ العرب عليه الصلاة والسلام.

وبعد أن شبّ إسماعيل تزوّج من نساء"جرهم"وأنجب العديد من الأبناء والبنات.

وكثرت ذُرّيته.. وفى إحدى الزيارات أخبر الخليل إبراهيم ولده بأن الله أمره أن يبني بيتًا له فى مكة، فسمع إسماعيل وأطاع.. وجعل الخليل يرفع القواعد من البيت، وإسماعيل يأتيه بالحجارة. ويحكى القرآن الكريم قصة بناء بيت الله الحرام فى آيات كريمات: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)..سورة البقرة. واستجاب الله للنبيين الكريمين، فأرسل من ذريتهما خاتم الأنبياء والمرسلين، الصادق الأمين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٢ – ابن الذبيحين

ظل أبناء وأحفاد إسماعيل عليه السلام قرونًا—بعد وفاته–على عقيدة التوحيد، دين أبيهم إبراهيم وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. وبمرور الزمان ضعفت العقيدة فى نفوس الأجيال اللاحقة، وتسرّبت إليهم عقائد وثنية من جيرانهم، فى الشام وفارس وغيرها من المناطق. وقد تولىّ كِبَر تضليل الناس عمرو بن لحى الخزاعى، فهو أول من جلب الأصنام من الشام إلى مكة، ووضعها فى الكعبة، وتبعه آخرون، وراحوا يتقرّبون إليها بمختلف ألوان العبادة، زاعمين أنها واسطة تُقرّبهم إلى الله! وما لبثت قريش أن وقعت فى براثن الشرك، إلا قلة نادرة بقيت على المِلّة الحنيفية—التوحيد– ورغم هذه الوثنية الطاغية، كان أحفاد إسماعيل هم سادات العرب، وخاصة قُصَىّ بن كلاب، وأولاده، وعلى رأسهم عبد مناف، ومن بعده ولده هاشم، ثم ولده عبد المطلب، الجدّ المباشر للنبى صلى الله عليه وسلّم.. وورث عبد المطلب عن آبائه شرف خدمة الكعبة وحجّاج البيت الحرام، الذين ظلّوا يتوافدون عليه كل عام، رغم اضطراب العقائد وعبادة الأصنام.. وقد نال عبد المطلب شرفًا آخر لم يسبقه أحد إليه، وهوإعادة حفر بئر زمزم..فقد تسببت الصراعات والحروب بين القبائل فى ردم البئر المباركة.. وعجز الناس بعد مئات السنين، عن الاهتداء إلى مكانها.. وكان عبد المطلب يبذل جهدًا مُضنيًا فى نقل الماء من آبار خارج مكة، لسقاية الحجيج.. وذات ليلة رأى فى منامه هاتفًا يأمره بحفرها.. وتكرّرت الرؤيا ٤ مرات .. وفى المرّة الأخيرة أرشده الهاتف إلى مكانها بعلامات واضحات. وتتبّع عبد المطلب الإرشادات المنامية، وتمكن بالفعل من حفر"زمزم" بمساعدة ولده الحارث، ولم يكن قد أنجب غيره فى ذلك الوقت.. وعندما انبثق الماء كَبّر عبد المطلب فرحًا، فتكاثرت عليه قبائل قريش، تريد مشاركته فيها، رغم أن أحدًا منهم لم يساعده فى حفرها بشىء! وحلًّا للمشكلة، فكّر الجميع فى الاحتكام إلى كاهنة تسكن بالبادية خارج الحَرَمْ. وفى الطريق نفد الشراب منهم، فانفجرت عين ماء تحت ناقة عبد المطلب، فشربوا جميعًا، ونجوا من الهلاك عطشًا. وكانت هذه الكرامة الظاهرة لعبد المطلب سببًا فى إذعان قريش واعترافها له بالفضل، وإقرارها بحقه وحده فى إدارة شؤون بئر زمزم المباركة، فإن الذى سقاه هنا هوالذى سقاه هناك.. وتظل زمزم عبر ألوف السنين آية للعالمين .. فهى البئر الوحيدة فى العالم التى لم ينقص منها الماء، حتى اليوم! وارتوى منها مئات الملايين فى مئات السنين، فضلًا عن أن التحاليل الحديثة قد أثبتت أن خواص ماء زمزم تختلف عن أى ماء آخر عرفه البشر، وهى كما ورد بالحديث الشريف، وكما أثبتت التجارب دائمًا : ((طعام طعم وشفاء سقم)) رواه مسلم وغيره.. وبسبب النزاع عليها،

نذر عبد المطلب، إن اكتمل له عشرة من الولد، أن يذبح أحدهم عند الكعبة شكرًا لله! واستجاب الله تعالى له، فرزقه بعشرة من الذكور—سوى الإناث-وأجرى القُرعة بينهم لتحديد من سيُذبح وفاءً بالنذر. وجاءت القُرعة على أحبهم إليه، وهوعبد الله.. وفزعت قريش، فقاموا إليه، ليمنعوه من ذبح الصبي، حتى لا تكون تلك عادة وسُنّة مُتّبعة من بعده، فيفنى الناس بهذا. وكعادة الجاهلية، احتكموا إلى كاهنة، فأمرتهم بإجراء القُرعة بين عشر من الإبل وبين الصبي، فإن أصابت الإبل ذبحوها، وينجوعبد الله، وإلا زادوا عشرًا عشرًا حتى تُصيب القُرعة الإبل.. وكانت العشر هى الدية عندهم.. ونَفّذَ القوم ما قالت، وتكرّرت القُرعة حتى بلغت الإبل مائة، فأصابتها. وأبى عبد المطلب إلا أن يُكرّرها ثلاث مرّات، فخرجت جميعًا على الإبل، فذُبحت، وتُركت فى الخلاء، لا يُمنع من أكل لحمها إنسان أووحش أوطير. وبادر عبد المطلب بتزويج عبد الله من آمنة بنت وهب بن زهرة، أحد سادات العرب، فحملت منه بسيد ولد آدم، صلى الله عليه وسلم. ولهذا أطلقوا علي الحبيب صلى الله عليه وسلّم لقبًا آخر، هو"ابن الذبيحين"يقصدون بهما والده عبد الله، وجدّه الأعلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.. ولا شك أن نجاتهما من الذبح كانت مقدمة وتمهيدًا لمجيء خير مولود خلقه الله من أشرف الأصلاب فى أطهر الأرحام .

3- (أصحاب الفيل)

انقلب الجندى"أبرهة"على سيده"ارياط" الحاكم المعيّن من قبل الملك الحبشى-زمن احتلال اليمن- وقتله غدرًا، واستولى على السُلْطَة بدلًا منه. وغضب ملك الحبشة، فسعى الخائن إلى استرضائه بكل السُبُل، ومنها بناء كنيسة ضخمة بصنعاء. وكتب إليه:إنى قد بنيت لك كنيسة لم يُبن مثلها من قبل، ولن أدّخر وسعًا حتى أصرف إليها حج العرب، بدلًا من بيتهم الذى فى مكة -يقصد الكعبة-وسمع بهذا رجل عربى من بنى كنانة، فغضب حمية لبيت الله الحرام، وتسلّل إلى داخل كنيسة أبرهة الأشرم، فقضى فيها حاجته، ولطّخها بالفضلات. وجنّ جنون الأشرم حين علم باستهزاء العرب به وبكنيسته، وأقسم أن يهدم الكعبة. وجهّز لهذا الغرض جيشًا يضم ٦٠ ألفًا من الجنود، وفيلًا ضخمًا، ليستخدمه فى هدم الكعبة. وفشلت جميع القبائل-طوال الطريق-فى منع أبرهة من مواصلة السير إلى مكة المكرّمة. ووصل الجيش إلى ضواحى الحرم الشريف، فضرب خيامه هناك للراحة بعض الوقت. وأرسل اللعين إلى عبد المطلب بن هاشم سيد مكة، فجاء إليه..كان عبد المطلب رجلاً طويلًا وسيمًا مهيبًا، فلم يقوأبرهة على الجلوس على كرسيه دونه، وهبط عنه، ليجلس إلى جواره. وفوجىء أبرهة بالرجل المهيب لا يطلب منه سوى رد مائتى جمل، استولى عليها جنوده من المراعى خارج مكة!! فقال لمترجمه: قل لعبد المطلب أننى أكبرته حين دخل علىّ، ولكننى زهدت فيه الآن..فسأله عبد المطلب عن السبب..ردّ أبرهة:

أتترك بيتاً هودينك ودين آبائك، جئت لهدمه، فلا تكلمنى فيه، وتكلمنى فى مائتى بعير؟! أجاب عبد المطلب بشجاعة ويقين وإيمان:

"أنا صاحب الإبل..أما البيت فله رب يحميه ويمنعه منك"

غضب الطاغية وصاح: ما كان ربك ليمنعه منى.فعقّب عبد المطلب بهدوء وثبات :

"فأنت وذاك". وأمر أبرهة برد إبل عبد المطلب اليه، فأخذها وانصرف الى البيت الحرام..تعلّق حفيد إسماعيل بحلقتى باب الكعبة ودعا ربّه:

))لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوًا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدا لك((

وفى الصباح حاول أبرهة دخول مكة، لكن الفيل تجمّد فى مكانه وأبى التحرّك.ضربوه بالعصى وقطع الحديد فلم يتزحزح. وجّهوه إلى طريق العودة إلى اليمن فهبّ واقفًا، وهرول بعيدًا. وجّهوه نحوكافّة الإتجاهات، فكان ينطلق فيها جميعًا، بإستثناء الطريق إلى مكة!وبينما هم على هذا العناء مع الفيل الثائر، فوجئوا بأسراب هائلة من الطيور، تأتى من جهة البحر الأحمر، لتنقض على الجيش، وترميه بالأحجار، فتقتل أغلب الجنود، ولم يبق منهم حيًّا سوى أبرهة، مع قلّة من حُرّاسه، حملوه جريحًا إلى اليمن، حيث هلك بعد عودته إلى صنعاء بأيام. وهكذا حمى الله بيته الحرام من العدوان الصليبى، وانتهى أيضًا –بعدها بقليل–الإحتلال الحبشى لليمن العربية إلى الأبد. وقد حكى القرآن الكريم القصة فى سورة عظيمة، تُتلى الى يوم القيامة، تحمل اسم"الفيل" بسم الله الرحمن الرحيم:

((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ))..وبالإضافة إلى السورة الكريمة، فالحادث معلوم مُتواتر لدى العرب والمؤرخين من كل الأجناس والأديان، ورواه أبرهة نفسه قبل هلاكه، وشهدت به القلة التى عادت معه. وكأن الله تعالى أراد أن يكون هناك شهود على الواقعة من غير العرب أيضًا!ومن المؤسف حقًا أن يحاول بعض كُتّاب السيرة من المعاصرين، تحريف الكلم عن مواضعه، إرضاءً لخصوم الإسلام، بحجة منح الأمر قدرًا من القبول فى أذهان غير المسلمين! فزعموا أن هلاك جيش أبرهة كان نتيجة (وباء الحصبة أوالجُدَرى) استنادًا إلى رواية ضعيفة –عند ابن اسحاق–تقول أن الجزيرة العربية لم تعرف هذا الوباء قبل عام الفيل!! وفات هؤلاء أنه حتى لوسلّمنا جدلًا بهذا، فإن المعجزة تظل قائمة، لا سِيّمَا أن المرض لم يُصب أحدًا قبل جيش أبرهة فى تلك المنطقة..ثم كيف اقتصرت الإصابة بالوباء على أبرهة وجنوده، ولم تنتقل العدوى إلى أحد من أهل مكة ؟.أليست هذه أعجوبة بذاتها ؟!وكان الأقرب الى المنطق أن يقولوا إن الوباء جاء (نتيجة للإصابة بالأحجار) وأن يتولّد عن الجراح التى لحقت بالأحباش، وليس هوالسبب الأَوْلِى فى مصارعهم.. ويُلاحظ العلّامة محمد متولى الشعراوى–رحمه الله–أن كثيرًا من المشركين عاصروا هذه الواقعة"ولولم تكن قد حدثت، كما وصفها القرآن، لسارعوا إلى تكذيبها، لكنهم لم يفعلوا"..انتهى..كما أن الميكروبات والجراثيم تحتاج إلى وقت طويل لإحداث آثارها الضارة بجسم الإنسان، وليس هذا هوما جرى لجيش أبرهة، فالثابت أن هلاك معظمهم كان فور تعرّضهم للضرب بالأحجار من الطيور، ثم ما هذه الطيور"العاقلة"والجراثيم"الموجّهَة"التى تصيب أعداء الكعبة دون غيرهم من الموجودين ؟! الفاعل هوالله

تعالى، وطالما كنت مؤمنًا به فعليك تصديق ما جاء فى كتابه، وألّا تُدخل عقلك القاصر فى أمور الغيب التى أخبرك بها..

والصحيح الثابت أن هلاك جيش أبرهة قد جاء بقصف مباشر من ((حجارة)) رمتها جماعات من ((طير)) بالنص الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم بشهادات ألوف من العرب والأحباش الذين عاينوا الحدث التاريخى. وإذا كانوا يزعمون صعوبة تصديق هذه الخارقة للعادة، فما بال (الصواعق) وهى أخطر وأشد وأكبر ؟! وما زال العلماء فى عصرنا يجهلون كيف تتكوّن الصاعقة، ولا متى، ويستحيل توقّع مكانها أوزمانها أوحجم الدمار الناتج عنها. وذات الأمر بالنسبة (للشُهُب والنيازك) التى تُقْذّف من السماء حتى يومنا هذا! وبمنطق البشر: فلا شك أن الصواعق والشهب والنيازك أكبر وأشد وأعتى بما لا يُقاس من الطيور والأحجار.. وأمّا نحن فنؤمن بأن الله تعالى قد أرسل جنوده من الطير الأبابيل، لسحق الجيش الصليبى الغاشم، وحماية بيته الحرام من العدوان، وبشارة بمجىء الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلّم -كان مولده فى عام الفيل- وإيذانًا بفجر جديد، يسود فيه الحق والتوحيد.

٤- اليتيم الأعظم

مات عبد الله بن عبد المطلب، عندما كانت زوجته آمنة بنت وهب حاملًا بطفله . وكأن الله تعالى قد خلقه لوظيفة واحدة-فقط -هى إنجاب خير مولود وأعظم مخلوق! وبعده ماتت أُمّه أيضًا، وهوفى السنة السادسة من عُمره الشريف.ثم مات جدّه عبد المطلب وهوفى الثامنة من العمر.. وكَفَلَه من بعده عمه"أبوطالب". ويُتم النبى ليس كغيره، بل فيه حكمة إلهية كُبرى، وهى أن يكون الله تعالى وحده، هوالذى يرعاه ويصنعه على عينه.. والأنبياء كلهم يصطفيهم الله ويرعاهم، ويحفظهم بيد قدرته وحكمته..كما خلق آدم بغير أب ولا أم، وخلق عيسى بلا أب.. وكان أبوإبراهيم كافرًا، ولا نجد لا فى قصة نوح ولا موسى، ولا هارون أى دور للأب فى تربيتهم، ولا إعدادهم للرسالة. ومما يزيد هذه الجزئية إيضاحًا قول الحق تبارك وتعالى لموسى عليه السلام : ((ولتُصْنَعَ على عينى)) سورة طه : ٣٩..أى -كما قال المفسّرون- لتُربّى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى عين مني. وقوله سبحانه للمصطفى صلى الله عليه وسلم : ((ألم يجدك يتيمًا فآوى)) سورة الضحى : ٦..

ومن الجائز أيضًا أن يكون موت أبيه وأُمّه مُبكّرًا، لحكمة إضافية أُخرى،

هى منع الطعن فى رسالته، إذا لم يؤمنا به..كي لا يستخدمهما المشركون سلاحًا، بتشكيك العرب فى دعوته، وإثارة الشغب والصياح:إذا كان أقرب الناس إليه، أبوه وأمُه لم يؤمنا به، فكيف يُطالب الآخرين بهذا ؟!! وحتى لوآمَنَا به، ربما يقول الخصوم:إنما عَلّمه أبواه ما جاء به.. وفى يُتمه

أيضًا العزاء والسلوى لكل يتيم إلى قيام الساعة، فقد ابتلى الله باليُتم من قبله أحب خلقه إليه..

والراجح من الروايات أن مولده صلى الله عليه وسلم كان فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل.. وكان هلاك جيش أبرهة عام مولده، ولم يثبت غير هذا من بشائر الميلاد الشريف -بمقاييس رجال الحديث- سوى أن أُمّه رأت نورًا يخرج منها إلى قصور (بُصرى) بالشام . ومن المعلوم أن السيدة آمنة عاشت طوال عمرها القصير فى مكة، ولم تُغادرها إلا إلى المدينة، حيث ماتت. فلم تُسافر قط إلى الشام، ولم تُشاهد تلك القصور! وهى إشارة واضحة الى ما تحقّق بعد ذلك -بعشرات السنين- من انتشار الاسلام، وإنعام الله تعالى على أهل تلك المناطق وغيرها بنور الهداية والتوحيد.

والغريب أن من يُنكرون بشارات وإرهاصات مولده الشريف، لا ينطقون بحرف، ولا يُنكرون ما ترويه كُتُب النصارى عن الإرهاصات بمولد أخيه عيسى عليه الصلاة والسلام! والمنطق الذى يتعلّلون به يفرض عليهم إنكار تلك كما يُنكرون الأُخرى! أمّا نحن فنقول إن قدرة الله الواحد الأحد لا يُعجزها

شيء ولا يستعصى عليها فعل.. ومن المستحيل قياس الإرهاصات والمعجزات الالهية، بمنطق البشر، لأنها خوارق خارجة عما يألفه أويستوعبه العقل البشرى القاصر.. ثم كان من تدبير الله تعالى لحبيبه ورسوله الخاتم أن هيأ له الرضاع فى بادية بنى سعد..ليكون أفصح العرب وأوضحهم بيانًا وأكثرهم بلاغة .فقد كان من عادة أشراف قريش أن يعهدوا بالمواليد إلى مراضع من البادية للقيام بهذه المهمة ..فيكتسب أطفالهم الفصاحة من معاشرة البدو، والجَلَدْ والشجاعة والقوة البدنية من شمس الصحراء وهوائها الطلق..

وشاء الله أن تنال حليمة السعدية شرف الدارين، بحضانة سيد المرسلين اليتيم الهاشمى العظيم.. وتحكى السيدة حليمة بنفسها عجائب ما جرى..فقد زهدت كل المراضع فى اليتيم، لأن أُمّه لم تكن تملك مالًا تدفعه أجرًا للرضاع، مثل باقى أغنياء مكة .. واضطرت حليمة إلى أخذه، لأنها لم تجد غيره، ولم تشأ العودة خالية الوفاض، دون غيرها من سيدات قومها.. وكانت السنة قليلة المطر، والقوم لا يجدون عُشبًا لرعى إبلهم وأغنامهم.

ولم يكن فى صدرها لبن لإرضاع طفلها الآخر، وكانت وزوجها لا ينامان من شدة بكائه بسبب الجوع .. وما كادت تضم اليتيم إليها حتى فاض اللبن غزيرًا، فرضع ورضع معه أخوه السعدى حتى شبعا .. وقام زوجها إلى ناقتهما، فإذا بضرعها مُنتفخ لأول مرة باللبن على غير العادة! فصاح"أبوكبشة"وهولقبه بين الناس: تعلمين يا حليمة، والله لقد أصبت رضيعًا مُباركًا!! وكذلك نشطت الأتان"أنثى الحمار"التى كانت تركبها حليمة، فى رحلة العودة، حتى سبقت باقى الركب .. وقد كانت فى رحلة القدوم إلى مكة هزيلة ضعيفة تتسبّب فى تأخير الرفاق!! وكانوا يهتفون بحليمة لتتوقّف، كى يلحقوا بها، ويعربون عن دهشتهم، سائلين : أليست هذه أتانك التى قدمت عليها ؟!فتجيبهم:نعم، فيقولون فى صوت واحد:والله إن لها لشأنًا!

وما علموا أن الأتان قد سعدت، بحمل سيد الأنام، حفيد آل إبراهيم الكرام!

وتوالت البركات على حليمة وأسرتها بعد العودة إلى ديار بنى سعد..

فكانت أغنامها وحدها تجد المرعى والعشب الوفير، وتحلب اللبن الغزير، وما فى أغنام غيرها من قومها قطرة، حتى كان القوم يصيحون بالرُعاة:ويلكم..اذهبوا إلى

حيث ترعى أغنام ابنة أبى ذؤيب

وما كانوا يعلمون أنه رزق الله، يسوقه إلى حبيبه ومصطفاه فى كل مكان.

.صلى الله عليه وسلّم

٥- معجزة شق الصدر

كان صلى الله عليه وسلّم فى بادية بنى سعد عندما بلغ الرابعة، ووقعت معجزة شق صدره الشريف. وهى ثابتة متواترة بأحاديث صحيحة، رواها الإمام مسلم وغيره.

ويُروى عن بعض العلماء أن شق الصدر بواسطة الملائكة، وتطهيره، وإعداد الجسد البشرى لتلقى أنوار الوحى الإلهى، قد حدث أيضًا لكل إخوته من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.. وخلاصة القصة أن جبريل عليه السلام قد جاء إلى النبى، وهوصغير يلعب مع الغلمان، فأضجعه، وشق صدره، واستخرج منه "عَلَقَة" صغيرة، ثم غسل موضعها، وخاطه، وقال له:"هذا حظ الشيطان منك".. وجرى الغلمان فزعين إلى السيدة حليمة فأخبروها. وخافت عليه فأعادته فورًا إلى أُمّه بمكة.. ورُوى أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يرى أثر المخيط فى صدره الشريف، بعد الحادث بعشرات السنين.. ورُوى أيضًا أن شق الصدر تكرّر قبل بدء تلقى الوحى، وقبيل رحلة الإسراء والمعراج .. وقد حاول بعض المستشرقين إنكار شق الصدر. وبسبب سوء فهمهم لمعانى اللغة العربية، ظنّ بعضهم أن شق الصدر هوالمقصود بالآية الكريمة: ((ألم نشرح لك صدرك)) سورة الشرح:١.. وليس الأمر كذلك ..لأن معنى شرح الصدر الوارد بالآية هوكما قال الإمام القرطبى: (شرح الصدر: فتحه، أي ألم نفتح صدرك للإسلام). وروى أبوصالح عن ابن عباس أنه قال أن المعنى: ألم نلين لك قلبك ؟. وروى الضحّاك عن ابن عباس قال:قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال:"نعم وينفسح "قالوا:يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال:"نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود"أى بالاستعداد للموت، قبل مجيئه. والحديث رواه البيهقى والطبرى وغيرهما. وهذا المعنى في سورة الزمر فى قوله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهوعلى نور من ربه). وروي عن الحسن أنه قال: (ألم نشرح لك صدرك) أى مُلئ حكمة وعلمًا..انتهى. وقال الإمام ابن كثير":يعني أما شرحنا لك صدرك، أي: نوّرناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) [الأنعام:١٢٥] وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق" انتهى.. وإذا كان للفقير الى الله تعالى أن يُضيف شيئًا، نقول إن الآية المذكورة التى فى سورة الأنعام، ومثلها التى فى سورة الزمر، صريحتان فى أن الشرح الوارد فى القرآن الكريم، هوالشرح المعنوى، والمقصود به الإستبشار والإرتياح والتوفيق والهداية للاسلام، وليس الشق المادى للصدر. وفى العالم اليوم أكثر من مليارين من المسلمين، فهل كل واحد من هؤلاء تم شق صدره فعليًا ؟ أم أن المعنى

الواضح هوالشرح المعنوى –مثلما جاء فى الحديث– الذى أخبر فيه عليه السلام أصحابه بأن الصدر يتسع وينفسح للإسلام، أويضيق عنه إن كان كافرًا مُعاندًا ؟! والتعسّف فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم أوالتشبث بروايات ضعيفة، هو–كما سنرى فى مواضع كثيرة– محاولات فاشلة من خصوم الإسلام للتشكيك فى السيرة العطرة. وفى كُل الأحوال فشق الصدر ثابت بأحاديث صحيحة. ومن البديهى عند أصحاب العقول الراجحة، أنه لابد من إعداد الجسد البشرى المخلوق من الطين، للقاء جبريل عليه السلام، وهومخلوق من النور.ألا ترى –مثلاً– أنهم فى عصرنا –ولله المثل الأعلى – يقومون بإعداد رواد الفضاء – بدنيًا ونفسيًا – قبل إرسالهم فى الرحلات إلى خارج الغلاف الجوى أوالكواكب الأُخرى؟! والأمر أعظم وأشد فى لقاء الأجساد البشرية بأنوار الملائكة، التى لا يعلم كنهها سوى خالقها سبحانه وتعالى، وإن الذى أنزل عليه وعلى إخوته الوحى من فوق ٧ سماوات، لهوأعلم وأقدر على كل ما يخطر، وما لا يخطر بعقول البشر.

وسيبقى القرآن الكريم، إلى الأبد، المعجزة الخالدة للحبيب، بما فيه من الأسرار والأعاجيب.

٦- قصة الراهب

ماتت أُمّ الحبيب صلى الله عليه وسلّم وهوفى سن السادسة. ولحق بها جدّه عبد المطلب -والنبى فى سن الثامنة -بعد أن أوصى ولده أبا طالب بكفالة ابن أخيه اليتيم. وممّا قدّر الله لرسوله أن أبا طالب كان عطوفًا رقيق القلب، وألقى الله محبته فى قلبه، فاحتضن الصغير، وكان أقرب اليه من كل أولاده.. ورواية خروجه معه إلى الشام-دون أى أحد من أولاده- دليل قاطع على صحّة ما نقول.. وهذه الرواية تستحق التوقّف أمامها، وبالتحديد بشأن ما ورد فيها عن"الراهب"وتعرّفه على الرسول صلى الله عليه وسلم.. وخلاصة القصة أن"الراهب" تعرّف على الصغير، ورأى سحابة تُظلّله، كما رأى خاتم النبوة أعلى ظهره الشريف، عليه الصلاة والسلام. وعلم أنه يتيم، وسأله عن أحواله، فوجدها كلها تُطابق أوصاف الرسول الخاتم، التى وردت فى التوراة والإنجيل-قبل تحريفهما-وتكريمًا له صنع طعامًا لأول مرة-للقافلة المكية التجارية-وكانوا يمرّون من قبل بصومعته فلا يهتم بهم. وحذّر"الراهب"أبا طالب من اليهود، لأنهم لورأوا الصغير، وعرفوه سيقتلوه، وطالبه بالعودة بابن أخيه فورًا إلى مكة، حرصًا على حياته. والقصة صَحّحَها الألبانى، وأوردها الترمذي في سننه، وأبونعيم في"دلائل النبوة "والحاكم في"المستدرك "وابن عساكر في"تاريخ دمشق"وابن إسحاق والواقدى وغيرهم.. والعجيب أن خصوم الاسلام حاولوا استخدام قصة "الراهب"للطعن فى الرسالة الغرّاء، وزعموا أن بحيرا هوالذى علّمه! وفاتهم عدة أمور تنسف مزاعمهم كلها! فمن ناحية، كان عليه السلام صغيرًا، واللقاء لم يستمر سوى بضع ساعات، ويستحيل تعليم أى شخص كل ما جاء بالقرآن الكريم، ومئات الألوف من الأحاديث فى ٤ أو٥ ساعات على الأكثر. ومن ناحية ثانية، كان عليه السلام أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكانت لغته هى العربية، ولغة"بحيرا"أجنبية، ولم تكن هناك ترجمة عربية للتوراة والأناجيل فى ذلك الوقت، فكيف تعلّم منه ؟! ومن ناحية ثالثة، فالإسلام به مئات التشريعات غير المسبوقة عند أهل الكتاب، ومئات من الآيات استعرضت ظواهر علمية لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان يعرف عنها شيئًا، فضلًا عن أن عقيدة التوحيد تهدم تمامًا ما كان عليه النصارى واليهود من ضلال وشرك، مثل زعمهم أن عيسى هوالله أوابن الله، لأن الإسلام ينص على أنه عبد الله ورسوله، مثل باقى إخوته من الأنبياء والمرسلين، لا أكثر ولا أقل!! ومن ناحية رابعة، فإن ألفاظ وتراكيب ولغة القرآن الكريم قد أعجزت العرب والعجم عن الإتيان بمثلها.. وإذا كان عرب الجاهلية الذين هم أفصح الناس، قد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهل يستطيع هذا راهب أعجمى، لا يدرى عن لغة العرب شيئًا ؟!

ومن ناحية خامسة، لا تتّفق المصادر حتى على اسم الراهب نفسه، فالبعض يقول أن اسمه جرجس، وآخر يقول ان اسمه بحيرا، وفريق ثالث يُسمّيه سرجيس، ورابع يُسميه سرجس !ومن ناحية سادسة، لوكان الراهب هوالذى عَلّمه، فلماذا يصمت الصغير عشرات السنين، ولا يُبَلّغ ما لَقّنه إياه ؟ !

ومن ناحية سابعة:لوصَحّ ما زعموا لكان"بحيرا"هوالنبى وليس محمدًا، وما كان لرسول أن يمتنع عن إبلاغ الناس ما أُنْزِلَ عليه من وحى، ولا أن يُفَوّض شخصًا آخر فى إبلاغ الرسالة، وإلّا كان خائنًا لرَبّه، متخاذلًا فى أداء دوره المفروض، ومثل هذا لا يستحق شرف الرسالة أصلًا!وهل من المعقول أن يُؤثر المكَلّف بالرسالة شخصًا آخر، على نفسه، بشرف الدعوة، ومقام النُبُوّة الرفيع ؟!

وأخيراً: فالقصة صريحة قاطعة الدلالة على أن بحيرا الراهب قد آمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، وأنّه أخبر أبا طالب ومن معه أنه هوالرسول الخاتم،

فلماذا تجاهلوا هذه الجزئية، ولم يتّبعوا الراهب فى هذه، ولم يؤمنوا به مثله، إن كانوا صادقين، أوعلى الحق يحرصون ؟!

٧- الصادق الأمين

لم يترك عبد الله بن عبد المطلب ولا زوجته السيدة آمنة للصغير ميراثًا يُذكر. ولأنه كان لَمّاحًا، عفيف النفس، أَبَى أن يكون عالة على عمه"أبوطالب"قليل المال، كثير العيال، واحترف رعى الغنم منذ باكورة الصبا، ليُخفّف عن عمّه بعض أعباء المعيشة.. وقد أخبر صلى الله عليه وسلّم أنه ما من نبي إلا احترف—فى فترة ما من حياته-رعى الأغنام.. وهذا من إعداد الله تعالى لهم. والسِر هنا أن رعى الغنم فيه تدريب لهم على الرفق بالخلق، والرحمة بصغارهم وضعفائهم، والصبر عليهم، والجَلَد والتَحَمّل، والتعامل مع كافة الطبائع، والاعتماد على النفس، وإيجاد حلول لمشاكل المجتمعات المختلفة.. وهى فرصة للنبى أيضًا للخلوبالنفس، وصفاء الذهن، والتأمل فى بدائع الخلائق، وسط المراعى والصحراء الفسيحة، بعيدًا عن صخب الناس وملاهى المدن والقرى.

وكذلك تتسم حياة الرعاة بالبساطة والتقشّف والزهد، وهوشأن الكبار وأصحاب الرسالات العظمى على مدار التاريخ الإنسانى.. ولا يأتى الترف أوالبذخ بخير أبدًا، لا للأفراد ولا للجماعات.. وهنا يجدر التنبيه إلى خطأ شائع، وهووصف بساطة معيشة النبى وإخوته صلى الله عليهم وسلم أجمعين"بالفقر"! وسبب وقوع بعض الباحثين فى هذا الخطأ الفادح هوتقدير الأمور بالمقاييس الدنيوية القاصرة —كما سنرى فى مواضع كثيرة-بعكس المعيار الإلهى للرسالات وحياة الأنبياء عليهم السلام ..فالغنى بمقياس الحق-والعقلاء من الناس-ليس هوكثرة الأموال، كما يتوهّم الجاهلون والمفتونون بزخارف الدنيا، إنما الغنى الحقيقى هوغنى النفس.. وهل خلق الله أعظم أوأنبل أوأشرف أوأكرم أوأغنى من أنفس أنبيائه وصفوته من خلقه ؟! ولنتذكُر هنا ما نص عليه الحديث الشريف: (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ولَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) رواه الإمام البخارى .. وقال الإمام ابن بطال فى شرحه : (ليست حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيرًا ممن وسّع الله عليهم في المال لا يقنعون بما أُوتوا، ويجتهدون في طلب المزيد، ولا يبالون من أين يأتي، فكأنهم فقراء لشدة حرصهم، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس. والغنى هومن استغنى بما أُوتي، وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب).انتهى.. وقال الإمام القرطبى:" المرء إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع، فعزّت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه، فإنه يُوَرّطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال، لدناءة همته وبُخله، ويكثر من يذمّه من الناس، ويصغر قدره عندهم، فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل" انتهى. ونُلاحظ أن القرآن الكريم لم يصف الحبيب بأنه (فقير) وإنما خاطبه

الحقّ تبارك وتعالى-فى مقام الامتنان-قائلًا: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) سورة الضحى: ٨. وقال الإمام القرطبى فيها: (ووجدك لا مال لك فأغناك).انتهى.. أفلا نتعلّم من القرآن أدب الخطاب مع الأنبياء !؟

ومن الثابت أن الله تعالى خلق الأنبياء والرُسُل فى الذروة العليا من الأنساب والأحساب، حتى لا يطعن فيهم الخصوم، بدعوى أنهم جاءوا بالرسالات ليرفعوا بها شأنهم بين الناس، تعويضًا لتواضع النسب.. وهى مقولة هرقل لأبى سفيان:

(وكذلك الرُسُل تُبعث فى أنساب قومها) أى يختارهم الله دائمًا من أفضل القبائل وأكرم العشائر. وهم أيضًا أغنى الناس بنُبل المقاصد والرسالات، ومكارم الأخلاق.

وكان الحبيب صلى الله عليه وسلّم فى أعلى وأشرف الأنساب، فهوحفيد الخليل إبراهيم من ولده إسماعيل. وقد عُرف منذ الصغر بالعفّة والشهامة والمروءة والكرم والرحمة والصدق والأمانة، وكُل ما تعارف عليه البشر من مكارم الأخلاق.. ويكفى أنه الوحيد فى مكة الذى غلب عليه بينهم هذا اللقب قبل الإسلام: (الصادق الأمين) وقد طابقت الصفة الموصوف، فعلًا وحقيقة. ولا أدلّ على هذا من أن أصحاب الأموال كانوا لا يجدون من يُؤتمن على ودائعهم، سوى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب- رغم قلة ماله -فكانوا يضعون عنده أثمن ما يمتلكون، دون ذرّة من خوف أوشك فى احتمال الضياع أوالتبديد. .صلى الله عليه وسلّم دائمًا أبدًا، كما يُحب ويرضى.

٨- الزوجة الأُولى

لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد شهد فى شبابه حرب الفجار التى اندلعت قبل الاسلام، بين قريش وكنانة من جانب، وقيس عيلان من جانب آخر. والذى صحّ أنه قد شهد حلف الفضول فى دار عبد الله بن جدعان أحد سادة مكة.. وقد سُمّى الحلف بهذا الإسم، لأن عددًا من السادات فى الجاهلية تعاهدوا على فضائل، منها نصرة المظلوم، سواء كان من قريش أومن خارجها، وإكرام الضيف، ومواساة الضعيف، وغيرها من المكارم. وقد أثنى عليه الصلاة والسلام-بعد الإسلام-على هذا الحلف، وأكّد أنه لا يحب أن يكون له به حُمُر النعم-أى: لا يبيعه بأغلى الأموال-وفى رواية قال عليه الصلاة والسلام: (ولودُعيت به فى الإسلام لأجبت) أى: لوسأله مظلوم النصرة استنادًا إلى بنود هذا الحلف لأجابه ونصره. وهذا هوالأمر الذى يتفق مع مبادىء الإسلام تمامًا، لأنه كما قال عن نفسه الشريفة : (إنما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق) صحّحه الإمام الألبانى. وما كان من خير فى الجاهلية يُبقى عليه الاسلام ويزيده، وما كان غير ذلك يمحوه ويقضى عليه.

وقد كانت مكارم أخلاق الشاب الهاشمى ونبله وفضله وجمال روحه وشكله، كافية لتجعل منه زوجًا تحلم به أية امرأة شريفة عفيفة فى قريش وغيرها، ومنهن السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى رضى الله عنها وأرضاها.

وكانت، رضى الله عنها، أرملة عاقلة شريفة جميلة ثرية تاجرة، تبعث بتجارتها مع الأمناء من قومها لاستثمار أموالها، فى تبادل البضائع بالمنطقة، أى الشراء والبيع فى الحرم الشريف والشام واليمن. وسمعت بأمانة وصدق الشاب الهاشمى، فكلّفته بتولّى أمور تجارتها، مقابل ضعف ما كانت تعطيه أجرًا لغيره. وقد ربحت تجارتها مع الصادق الأمين أضعاف ما كانت تربح من قبل، وحكى لها غلامها "ميسرة" الكثير عن مزايا الشاب النادر، فأدركت أنها لن تجد زوجًا أفضل ولا أكرم منه. ويُروى أنها أرسلت إليه صديقتها "نفيسة بنت مُنية"لتعرض عليه الزواج من خديجة، فوافق عليه الصلاة والسلام. وانطلق مع أعمامه إلى أبيها -أوعمّها- فخطبها منه، وتمت الزيجة المباركة. ونُلاحظ هنا أن السيدة خديجة قد علّمت النساء وأوليائهن أنه لا عيب فى إرسال وسيط مأمون إلى الشاب الصالح، لعرض الزواج عليه.كما أن هذه الزيجة الشريفة الموفّقة، تُثبت أن فارق السن بين الزوجين ليس عائقًا فى سبيل السعادة الزوجية..فقد كانت-رضى الله عنها-فى الأربعين من عمرها، بينما كان صلى الله عليه وسلم فى الخامسة والعشرين من عمره الشريف. ومنها أنجب ولديه القاسم وعبد الله -ماتا صغيرين-وبناته

الأربع زينب وأم كُلّثوم ورقية وفاطمة.فكان منها كُلّ ذُريّته-بإستثناء إبراهيم-الذى أنجبه من السيدة مارية القبطية، صلى الله وسلّم علي الجميع. وقد كان زواجها من سيد الخلائق شرفًا رفيعًا، لا مزيد عليه لامرأة، وأكرم الله به أُمّنا السيدة العظيمة خديجة، بما سبق فى علمه الأزلى سبحانه، من أنها ستكون أول من يؤمن برسالته، وأنها سوف تسانده بنفسها ومالها وقومها، حتى الرمق الأخير. ولم يتزوّج صلى الله عليه وسلّم سواها، إلى أن لقيت ربّها، رضى الله عنها وأرضاها.

٩- إعادة بناء الكعبة

كان عمر النبي صلى الله عليه وسلم ٣٥ سنة عندما شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة المشرّفة، بعد أن هدم حريق ثم سيل جارف أجزاءً منها. وكانوا قد تعاهدوا على ألا يدخلوا فى نفقات بنائها إلا الحلال الطيّب من أموالهم. وهذا دليل على تعظيمهم لبيت الله الحرام حتى فى الجاهلية. ويسّر الله لهم، إذ جاءتهم أمواج البحر الأحمر بحطام سفينة تجارية ضخمة، وقدّر الله وجود نَجّار مصرى مُحترف بمكة فى ذلك الوقت.فشجّعهم هذا على البدء فى هدم البناء القديم المتواضع، وتشييد بناء أحدث وأعلى، وتشييد سقف خشبى للكعبة لأول مرّة. وتقاسمت القبائل العمل، فكان لكل قبيلة، ومن يحالفونها، ركن تتولّى هدمه ثم تبنيه. وثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلّم قد شارك مع أعمامه فى إعادة بناء الكعبة. ومن حفظ الله له- حتى قبل الإسلام- أنه اضطر إلى رفع ثوبه—وهوبعيد عن الناس فى الجبل-لجلب الأحجار-ليحمل فيه ما يأتى به. وما كاد يفعل حتى سقط مغشيًّا عليه (رواه الشيخان البخارى ومسلم) ونُودى من السماء أن:اشّددّ عليك إزارك يا محمد.فأعاد ثوبه على جسده الشريف فى الحال. ومن المقطوع به أنه لم ير أحد عورته مُطلقًا، طوال عمره الأسعد. وعن هذه الواقعة قال الإمام ابن حجر رضى الله عنه -فى فتح البارى- : "إنه صلى الله عليه وسلّم كان مصونًا عن القبائح قبل البعثة وبعدها"انتهى.. وهناك واقعة أخرى بالغة الأهمية .فقد اختلفت القبائل عندما حانت لحظة وضع الحجر الأسود فى موضعه من الكعبة. وهوشرف كانت كُل قبيلة تريد الانفراد به. وتشاحن الناس، واستعدوا للقتال فى سبيل هذا الأمر! ثم ألهم الله تعالى أكبر قريش سنًّا فى ذلك الوقت"أبوأُمية بن عبد الله بن مخزوم" أن يقترح عليهم تحكيم أول من يدخل عليهم من باب المسجد، فوافقوا جميعًا. وكانت المفاجأة السعيدة أن القادم هومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فصاح القوم كُلّهم :هذا الأمين.هذا محمد..رضينا به.. وحكوا له المشكلة، فألهمه الله تعالى الحل الذى يحقن الدماء، ويرضى به الجميع، وهوأن يبسط ثوبه وأن يضع عليه الحجر الأسود، ثم يحمل مُمَثّلون لكل قبيلة أحد أطراف الثوب، فينال الجميع شرف المشاركة فى نقل الحجر المبارك إلى مكانه.. ورضى القوم جميعًا بأن يتناوله الصادق الأمين منهم ليضعه فى موضعه. وهذه القصة تُثبت على وجه القطع واليقين ما كان للحبيب فى شبابه من منزلة رفيعة، لأمانته وصدقه ونبله وخلقه الرفيع، ثم حكمته وتوفيق الله تعالى له، حتى قبل نزول الوحى عليه.. ولوكان المشركون يعقلون، لكفاهم هذا الموقف، الذى فيه حقن الله بمحمد دماءهم، وحَلّ خلافاتهم، وجمع بحكمته شَمْلَهم، ليوقنوا أن الرسول لن يأتيهم إلا بكل ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم.. ولكن لله تبارك وتعالى فى خلقه شؤون..

((وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) سورة النور:٤٦

١٠- بشارات النبوة

من الثابت أن جميع الأنبياء قد بشّروا أقوامهم بمجيء النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم.. وقد فشل أكابر المجرمين الذين حَرّفوا نصوص التوراة والإناجيل المختلفة فى إخفاء اسم الحبيب وبشارات الأنبياء به..ففى إنجيل "برنابا" -الذى حظرت الكنائس تداوله منذ القرن الخامس الميلادى-نص صريح على نُبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم. وقد تم العثور على أقدم نسخة منه مُؤخرًا..ففى الإصحاح الحادى والأربعين منه نقرأ النص – رقم ٣٠ – وفيه : (فلمّا التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب -باب الجنّة- لا إله إلا الله محمد رسول الله). وفى العبارة ٧:١٦٣ منه : (أجاب التلاميذ :يا معلّم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذى تتكلّم عنه الذى سيأتى إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله)

وفى إنجيل لوقا (٢-١٤) وَرَدَ : (الحمد لله فى الأعالى، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد) لكن من ترجموا النص من اللغة السريانية قاموا بتحريف الترجمة.

وفى إنجيل يوحنا –الإصحاح السادس عشر- نص على: (إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط) ومعنى كلمة الفارقليط هوأحمد أوالحَمّاد أوالحامد.. وفى التوراة نصوص صريحة بمجيء النبى الخاتم، وكان يهود يثرب يتوعّدون الأوس والخزرج (الأنصار) فى الجاهلية بقرب قدومه، ويُهدّدونهم بأنهم سيتّبعونه وسيقتلون الأوس والخزرج معه قتل عاد وإرم! فلما جاء صلى الله عليه وسلم جحده اليهود حسدًا له، لأنه من العرب، وكفروا به، بينما آمن به الأوس والخزرج وصاروا أنصاره، لما أراد الله بهم من الهدى والخير فى الدارين.

وهناك حديث "هرقل" مع " أبوسفيان" قبل إسلامه-فى صحيح البخارى-وفيه اعترف هرقل بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه كان يعلم بقرب مبعث نبى خاتم، لكنه لم يكن يحسب أنّه سيأتى من بين العرب. ورُوى مثل هذا عن المقوقس حاكم مصر، وعن النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المهاجرين من المسلمين، وحماهم من بطش الكُفّار، وأسلم لله الواحد القهّار، وأمر الرسول أصحابه بأداء صلاة الغائب عليه، عندما أبلغه جبريل عليه السلام بوفاته . وفى النسخة المطبوعة من التوراة (طبعة ريجارد واتس- لندن) نص يقول :

(جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من فاران، ومعه ألوف الأطهار) و"فاران" هوجبل حراء بمكة المكرّمة. والمقصود بألوف الأطهار هم الصحابة، الذين يتطهّرون قبل الصلاة، بالاغتسال أوالوضوء.

ومن أدلّة النبوة عند أهل الكتاب ما شهد به عبد الله بن سلام، كبير أحبار اليهود فى يثرب، الذى أسلم بعد تأكّده من مطابقة مواصفات النبى–صلى الله عليه وسلم–لما ورد فى التوراة عن آخر الأنبياء والرُسُل. وقرأ ما نَزَل من القرآن، فآمن به على الفور . وأراد رضى الله عنه أن يفضح ضلال وتضليل اليهود، فطلب من النبى ﷺ استدعاء اليهود وسؤالهم عنه، وهومختبىء لا يظهر لهم..فأثنوا عليه، وقالوا : (ابن سلام سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا) فلما خرج عليهم وأخبرهم بأنه قد أسلم، صاحوا : (بل هوشرّنا وابن شرّنا) وراحوا يسبّونه بأبشع الألفاظ !!

وهناك قصة سلمان الفارسى، رضى الله عنه، الذى رحل من فارس، وتنقّل بين أديرة العراق والشام، وأخبره الرهبان، واحدًا تلوالآخر، بقرب ظهور النبى الخاتم ﷺ فى بلاد العرب، وأنه سيهاجر إلى بلد بها نخيل كثير بين حرّتين من الأرض، وهى يثرب، ومن علاماته أنه يقبل الهدية، ولا يأكل من الصدقة، وأعلى ظهره الشريف خاتم النبوة.. وصبر سلمان عندما اختطفه قوم وباعوه لليهود، وانتهى به المطاف الى يثرب، عبدًا لأحد اليهود بها، وتعرّف على أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم عندما قابله بعد الهجرة إلى يثرب وآمن به.

وهناك قصة ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة، الذى كان من علماء الكتاب،

وكان يكره ما عليه قومه من عبادة الأوثان، وكان يُبشّر بقرب ظهور رسول خاتم، يعيد نشر عقيدة التوحيد، ويقضى على الشرك.. وسيأتى مزيد من الكلام عنه بعد بدء نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلّم.

١١- الاعتكاف فى غار حراء

حَبّب الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم العُزْلة والاعتكاف فى غار حراء، لا سيّمَا فى شهر رمضان من كل عام.. وهومكان هادىء أعلى الجبل، يوفّر السكون اللازم لصفاء الذهن، والتأمل فى بدائع خلق الله، مع البساطة، والتجرّد من مُغريات الحياة ومتاعها الزائل. ومن الثابت أنه ﷺ لم يسجد قطّ لصنم، وكان حتى فى طفولته وصباه لا يأكل مما يُذبح تَقَرّبًا إلى الأصنام . والراجح أنه فى فترة ما قبل الوحى كان يتعبّد على دين أبويه الخليل ابراهيم ﷺ والذبيح اسماعيل ﷺ، وهوالتوحيد الخالص لله الأحد الصمد، الذى لا شريك له ولا ولد. ولعبت السيدة خديجة رضى الله عنها دورًا عظيمًا فى احتضان الرسول والرسالة.فكانت تُفرّغ زوجها ﷺ للتعبّد والتأمل فى الغار، وتوفّر له الطعام والماء، طوال فترة اعتكافه.. وكان الفقراء والمساكين يعلمون مكانه ﷺ، فيذهبون اليه لينالوا من عطفه وإحسانه، ولم يردّهم النبيل الكريم ﷺ خائبين قَطّ. وسبق نزول الوحى المباشر، تمهيد له بالرؤى فى المنام، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا تحقّقت مثل فلق الصبح، كما روت السيدة عائشة رضى الله عنها – الحديث فى صحيح البخارى–واستمر هذا ستة أشهر كاملة. ولأن فترة نزول الوحى عليه بعد ذلك كانت ٢٣ سنة، تكون الرؤيا الصادقة هى جزء واحد من ٤٦ جزءًا من النبوة. والثابت أن رؤيا الأنبياء وحى، وأن الشيطان لا سبيل له عليهم فى يقظة ولا فى منام. وهناك سوابق كثيرة من الرؤى فى حياة إخوته من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، منها رؤيا أبيه إبراهيم بشأن ذبح ولده البكر إسماعيل، والرؤي التى تحقّقت فى حياة يعقوب وولده يوسف، وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. ولا سبيل الى التشكيك فى الرؤى المنامية، فهى موجودة أيضًا فى التوراة والأناجيل رغم التحريف، كما أنها واقع ملموس فى حياة الناس إلى يومنا هذا. وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلّم أنه لم يبق بعده من النبوة إلا المبشّرات، وفسّرها بأنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل أوتُرى له. وهناك أكثر من ثلاثين حديثًا حول هذا المعنى، منها قوله صلى الله عليه وسلّم: «لم يبق من النُبُوّة إلا المبَشِّرَات» قالوا: وما المبَشِّرَات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» رواه البخاري. وقد رواه مالك في الموطأ مختصرًا ولفظه: «ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة» ورواه أحمد وأبوداود وابن حبان في "صحيحه" والحاكم في "مستدركه". وهناك حديث آخر نصه:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»، قال: فشق ذلك على الناس فقال:«ولكن المبَشِّرَات»قالوا: يا رسول الله وما المبَشِّرَات؟قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة» رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم. وصدق صلى الله عليه وسلم.

12- (اقرأ)

فى ليلة مباركة مشهودة من شهر رمضان، كان أمين الأرض مُعتكفًا فى الغار، عندما نزل عليه أمين السماء-جبريل عليه السلام-ليأمره قائلًا: (اقرأ).كان الجسد الشريف يرتعش، من هول المفاجأة، لأن التقاء النور الملائكى بالطين البشرى ليس شيئًا عاديًا ولا مألوفًا.رد عليه الصلاة والسلام :(ما أنا بقارىء) يُريد جبريل أن يعى النبى ما سيتلوه عليه ويحفظه ثم يقرأه، فأخبره النبى بأنه أُمّى لا يقرأ ولا يكتب، فكيف يقرأ ؟! والقراءة تكون للمكتوب، وتكون أيضًا للمحفوظ فى الصدر..ضمّه جبريل بقوة، ثم تركه وأعاد عليه الأمر: (اقرأ) وكرّر النبى الرّدّ (ما أنا بقارىء).احتضن ملك الوحى خاتم المرسلين بقُوّة للمرّة الثانية، ثم تركه وقال: (اقرأ) وتَكَرّر الرد: (ما أنا بقارىء..(

وفى المرّة الثالثة ضَمّه جبريل ثم تركه، وقال: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥}..سورة العلق.. وكانت هذه الآيات هى أول ما نزل من القرآن الكريم، كما فى الصحيحين. وهى حكمة إلهية كبرى أن يكون أول ما نزل من الكتاب الأعظم، خاتم الكتب السماوية، هوالأمر الحكيم (اقرأ)..فالإسلام هودين التوحيد والعلوم، وأعظم وأشرف المعارف هوالعلم بالله الواحد الأحد وملائكته وكُتُبه ورُسُله وشريعته. وقد كانت القراءة، وما زالت، وستظل هى الوسيلة الأساسية لتحصيل العلوم والمعارف الى أن يرث الله الأرض وما عليها.. وهى قراءة المكتوب والمحفوظ. وربما يتسع المعنى ليشمل قراءة وتَدَبّر ودراسة آيات الله، فى الكتاب المسطور، وفى الكون المنظور.. والقراءة تكون باسم الله تعالى الخالق الأكرم، سبحانه وحده لا شريك له، وذكر أنه عزّ من قائل (عَلَّمَ بالقلم) تصريحًا بأهمية أداة الكتابة وتقييد وحفظ العلوم والمعارف، ويَمُنّ المولى على جنس الانسان، بأنه علّمه ما لم يكن يعلم، من لدن أبينا آدم إلى قيام الساعة..قال الإمام ابن كثير رضى الله عنه فى تفسيره : (أول شيء "نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهُن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهوالقدر الذي امتاز به أبوالبرية آدم على الملائكة. والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: (اقرأ وربك الأكرم الذي عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم) وفي الأثر: (قيّدوا العلم بالكتابة) وفيه أيضا:"من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم".انتهى. وقال الإمام الزمخشرى رضى الله عنه فى تفسيره للآيات البيّنات: فدلّ على كمال كرمه بأنه عَلَّمَ عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يُحيط

بها إلا هو. وما دُوّنت العلوم، ولا قُيّدت الحِكَمُ، ولا ضُبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم، ولا كُتب الله المنزّلة إلا بالكتابة. ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولولم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به"..انتهى..

وكانت أُمّية النبي صلى الله عليه وسلم معجزة وشرفًا له، حتى يُوقن الجميع أن الله تعالى هوالذى علّمه وأنزل عليه القرآن من عنده، ولا يبقى مجال للتشكيك فيه، وهذا ما يشهد له قوله تعالى فى سورة العنكبوت: (ومَا كُنتَ تَتْلُومِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ولَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

١٣- شبهات حول الوحى

من الشبهات التى حاول خصوم الإسلام إثارتها حول الوحى، ما زعموه حول حال النبى صلى الله عليه وسلّم وقت نزول جبريل عليه السلام عليه به.

فمنهم من زعموا أنها حالة"صرع"! وفاتهم أن المريض بالصرع لا يتذكّر –بعد الإفاقة–شيئًا مما حدث له . وهل يأتى المصروع بمثل هذا البيان العُلوى، الذى يتضمن كل أوجه الإعجاز اللغوى والعلمى والعقلى على مرّ الزمان كُلّه ؟! وقد ردّ المشركون أنفسهم –أمثال عتبة بن ربيعة–على هذا .. وقال عتبة بعد أن سماع بعض القرآن ومناقشة النبي: (والله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، ووالله ما هوبالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هوفيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم..فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فمُلْكه مُلْككم، وعِزّه عِزّكم، وكنتم أسعد الناس به)

وعندما هاجمه قومه واتهموه باتباع النبى، اضطر عتبة إلى إدعاء أنّه جاء بسحر من نوع خاص، يُفرّق بين المرء وزوجه وأُمّه وأبيه! ومن أفضل ما قيل تفنيدًا لهذه الشُبهة الباطلة ما كتبه العلّامة محمد رشيد رضا رحمه الله وخلاصته أن: (الذي يصاب بالصرع حقيقة يفقد وعيه، فإذا أفاق لا يذكر من تلك الفترة شيئًا، ولكن الوحي الذي كان يأتى نبينا محمدًا لا يذهب حتى يكون قد وعى وحفظ ما أوحي إليه به.. والمصاب بالصرع لا يمكن أن يأتي بدين ورسالة إلى العالم.ثم إن الوحي لم يكن دائمًا بالصورة التي تشبه الغيبوبة، بل كان يأتي في الواقع كثيرًا والرسول في يقظة تامة). انتهى. ويُلخّص"ساسي الحاج"هذه القضية قائلًا: (إن الصرع يُعَطّل الإدراك الإنساني، وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية، يفقد أثناءها الشعور والحس. أما الوحي فهوسموروحي اختص الله به أنبياءه، ليُلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس. وقد يصل العلم إلى إدراك

بعض هذه الحقائق ومعرفة سُنَنِها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم، ومع ذلك تبقى حقائق يقينية يهتدي بها المؤمنون الصادقون).انتهى.

ومن الخصوم من زعم أن الوحى حالة من التأمل والاستغراق. ولكن يُرد عليهم بأنه حالة من التلقّى من خارج نفس النبى، بواسطة كائن نورانى علوى. والدليل القاطع هوأن أسلوب القرآن الكريم وألفاظه وتركيبه يختلف تمامًا عن أسلوب النبى صلى الله عليه وسلّم ولا يُشبهه من أى وجه، ولا يُشبه كلام أى أحد من البشر. ونظرة سريعة الى أسلوب الحديث النبوى –مع بلاغته النادرة–تُثبت أنه لا تطابق ولا تقارب بينه وبين أسلوب القرآن الكريم. وقد حاول الخبثاء التغلّب على هذه الحقيقة بادعاء أن القرآن يصدر عن منطقة اللا شعور فى نفس النبى، أوالعقل الباطن، بينما الأحاديث تصدر عن العقل الظاهر.لكن ملاحظة الإنتاج الذهنى للأدباء والشُعراء وسائر المبدعين، تُثبت كذب هؤلاء.فهناك دائمًا ما يُسمّونه (الوحدة الأُسلوبية) لكل مُبدع، وأسلوب الكاتب أوالشاعر أوالخطيب واحد ثابت لا يتغير، مهما مَرّ به من مراحل وتغييرات فكرية وتجارب ذهنية، وهويُشبه بصمة الإصبع أوالصوت، التى تختلف من شخص الى آخر، ولا يتطابق فيها اثنان من البشر. وعن طريق التمييز (بوحدة الأسلوب) يتم اكتشاف السرقات الأدبية فى عصرنا. ومما لا جدال فيه أن الفوارق واضحة تمامًا بين تركيب وألفاظ الآيات القرآنية وبين الأحاديث النبوية. وقد ردّ بعض المنصفين من المستشرقين على دعاوى زملائهم حول الوحى. ومن هؤلاء الذين أنصفوا الوحى (سال) و(تايلور) وقد أكّدا خطأ الزعم بأن الوحى الإلهى ناتج عن حالة من الصرع أوالتأمل النفسى أوالعقل الباطن، وأقرّا بأن الإسلام له مصدر علوى.

ثم ردّ كلاهما على فرية أُخرى هى أن النبى قد تعلّم من أحد من مُعاصريه، فأكّدا عدم وجود أى نموذج آخر مُشابه أومُقارب للقرآن الكريم لدى أحد من الديانات أوالأفراد السابقين أوالمعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلّم.. ويقول"سال"نافيًا الزعم بأن أحدًا علّم محمدًا القرآن:"إذا قرأنا التاريخ الكنسى بعناية سنرى أن العالم النصرانى قد تَعَرّض منذ القرن الثالث الميلادى لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين، والمشاجرات التى لا تنتهى، والخلافات بين زعماء الكنائس لأتفه الأسباب. وأن المسيحيين فى سعيهم لإرضاء شهواتهم، يستخدمون كل أنواع الخبث والحقد والقسوة، فانتهى بهم الأمر إلى طرد المسيحية الحقيقية ذاتها من الوجود، بسبب خلافاتهم المستمرّة حول فهمها. وفى هذه العصور المظلمة ظهرت، بل ثبتت كل أنواع الخرافات والفساد". ويقول تايلور:"ما قابله محمد وأتباعه فى كل مكان لم يكن سوى خُرافات مُنفّرة، ووثنية مُنحطّة ومُخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة باطلة، وطقوسًا دينية مُنحلّة وصبيانية". وإذا كان هذا هوالحال فكيف ينقل عنها أومنها؟ ويتساءل العلّامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله:" لقد فَنَّدَ القرآن الكريم كثيرًا من العقائد والتقاليد اليهودية والنصرانية الباطلة، فكيف ينقض النموذج الذى قَلّده واحتذاه على حد زعمهم "؟!

١٤- مرحلة الدعوة السِرّيّة

توقّف نزول الوحى بضعة أشهر.. ولا شك أنها كانت فترة عصيبة، اشتدّ فيها الابتلاء والتمحيص للنبى صلى الله عليه وسلّم .. وربما كانت الحكمة المقصودة أن تهدأ نفس المصطفى، وإعداده لتلقّى المزيد من الوحى فيما بعد.كما أن الأصل هوالتَدَرّج فى التنزيل والتشريع، رِفْقًا بالناس، وتهيئة لنفوسهم لقبول المنهج، على مراحل، لا مَرّة واحدة، حتى لا ينفروا منه.. وليس صحيحًا ما ذكرته بعض المصادر، من أنه عليه السلام حاول الانتحار بسبب توقّف نزول الوحى..فهذا من ناحية يُخالف عصمة الأنبياء وحفظ الله تعالى لهم. ومن ناحية أخرى فإن راوى حكاية الهَمّ بالتردى من قمم الجبال قال عنها أنها (فيما بلغنا)ولم يذكر اسم الذى أبلغه إياها، وهذه الجهالة بالراوى ناقل الكلام تعنى ما يُسَمّيه علماء الحديث"انقطاع السند"وهذا ينسفها ويذهب بحُجّيتها، كما أوضح العالم الجليل الدكتور أكرم ضياء العمرى فى كتابه الرائع عن السيرة الصحيحة.ثم جاء جبريل عليه السلام فهدّأ من روع الحبيب، وتتابع نزول الوحى عليه بعد ذلك. ويُروى أن الوحى قد تَوَقّف مَرّة أُخرى لاحقًا، فتصايح المشركون فرحين زاعمين أن:رب محمد قد قلاه – يقصدون هجره وتخلّى عنه- فأنزل الحق تبارك وتعالى عليه : (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) سورة الضحى:١-٥

ونُلاحظ هنا أنهم اعترفوا-بغير قصد-بأن لمحمد إله، وإن زعموا أنه تركه!

وطوال ٣ سنوات اكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله فى مكة سرًّا. ومن المفهوم أن تُتّخذ أعلى درجات الحيطة والحذر والكتمان فى البداية، حفاظًا على أرواح من يعتنقون الدين الحنيف، وتجنّبًا للصدام المحتوم، إلى أن يشتد ساعد أتباع الاسلام، ويكثر عددهم بعض الشىء.فقد كان من المؤكّد أن دعوة التوحيد ونبذ عبادة الأصنام سوف تصطدم بصخور من الوثنية الموروثة عن الآباء، ومصالح اقتصادية وتُجارية لكبار أثرياء قريش، الذين يخافون أن ينفض العرب عن بلدهم، إذا أُزيلت الأصنام من البيت الحرام، فضلًا عن تقليص نفوذ كبار المشركين. وهذه الأخيرة اعترف بها صراحة الطاغية "أبوجهل"حين سمع القرآن خلسة مع بعض أصحابه، وعندما سأله الأخنس بن شريق عن رأيه فردّ عليه : (تنازعنا نحن وبنوعبد مناف الشرف..أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب-تجالسنا وتقاربنا فى المنزلة-وكُنّا كفرسى رهان-كناية عن

التساوى- قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى نُدرك هذه ؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نُصدّقه). رواه الإمام البيهقى فى دلائل النبوة.. ولهذا كان كثير ممن أقبلوا على الإسلام من الموالى (العبيد والجوارى) المضطهدين المسحوقين فى الجاهلية، والفقراء والمساكين، الذين وجدوا فى عقيدة التوحيد الحق والحرية والعدالة والمساواة والكرامة الإنسانية. وأسلم أيضًا—بمرور الوقت-عدد كبير من فلذات أكباد قبائل وعشائر قريش، على رأسهم أبوبكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفّان والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وعثمان بن مظعون والمقداد وأبوعبيدة بن الجرّاح وأبوسلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبى الأرقم ثم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عن الجميع ..كما أسلم كثيرون ينتمون إلى قبائل أخرى خارج مكة، منهم زيد بن حارثة —أصله من قبيلة كلب-وعبد الله بن مسعود الهذلى وعتبة بن غزوان المازنى والطفيل بن عمروالدوسى وأبوذرّ الغفاري وعبد الله بن قيس الأشعرى وعمّار بن ياسر- وأصله عنسى-وعامر بن ربيعة العنزى وعمروبن عبسة من سليم وصهيب بن سنان من بنى النمر بن قاسط وغيرهم، رضوان الله على الجميع. وخروجًا من الخلاف بين العلماء حول تحديد أول من دخل الاسلام من الصحابة، يرى الإمام أبوحنيفة رضى الله عنه أن أول من أسلم من جميع الناس—ومن النساء-هى السيدة خديجة بنت خويلد، وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان على بن أبى طالب، وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبوبكر الصدّيق رضى الله عنهم أجمعين.

١٥- فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

كان الرسول صلى الله عليه وسلّم يأمر أصحابه بأن يكتموا إسلامهم، إلا عمن يثقون فيه، أو يأملون فى هداية الله له. وكان يلتقى بهم سِرًّا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، يتلوعليهم ما ينزل من الآيات تباعًا، ويُفقّههم فى الدين، ويُصلى بهم .

وبعد ثلاث سنوات من الدعوة إلى الله تعالى سرًّا نزل قوله سبحانه: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) سورة الشعراء:٢١٤

وبنزول هذه الآية الكريمة انتهت مرحلة الدعوة السرية-كما يرى الإمام الطبرى رضى الله عنه-وبدأت مرحلة الجهر بالإسلام، ودعوة الكافة إليه. ومن الطبيعى أن يبدأ النبى بقبيلته وأقاربه أولًا. ولهذا صعد صلى الله عليه وسلّم أعلى جبل الصفا، وهتف على عادة العرب: يا صباحاه، فاجتمع الناس من كُل مكان. وسألهم صلى الله عليه وسلّم: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج-عليكم-بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدّقِى"هل تصدقونى"؟!فأجابوا جميعًا: نعم.ما جرّبنا عليك كذبًا قط.فقال عليه الصلاة والسلام:"فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد". وكان عمّه الضال"أبولهب"قد سمع بالدين الذى يدعوإليه ابن أخيه وأبغضه، لأنه كان شديد التعصّب لأوثان قومه.فصاح اللعين فى وجه ابن أخيه الأمين: تبًّا لك..ألهذا جمعتنا ؟!

وعلى الفور نزل الرَدّ الصاعق من السماء، عليه وعلى امرأته الحاقدة على الإسلام "أُم جميل بنت حرب"أخت سفيان بن حرب: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) سورة المسد. وهذه السورة وحدها دليل قاطع على النبوة، لأنها أكّدت أن أبا لهب سيموت كافرًا وسيدخل النار. وقد أسلم أكثر مشركي قريش، فيما بعد، بإستثناء أبى لهب وزوجته وعدد ممن كتب الله عليهم الشقاء والهلاك.. وهذا إخبار من الله بقدره المحتوم، فلم يستطع اللعين النطق بالشهادتين، ولولتكذيب ما جاء به ابن أخيه حول مصيره، ومات وزوجته على الشرك، ليثبت صدق ما نزل به القرآن بشأنه.. والله وحده هوالهادى إلى سواء السبيل.. وقد تَفَرّق القوم بعد هذا الإعلان النبوى الأول، لتبدأ الحرب الشرسة على الإسلام والمسلمين فى مكة.

١٦- تضحيات المسلمين الأوائل

أدرك أكابر المشركين خطورة الدعوة الوليدة على مصالحهم وامتيازاتهم، خاصة بعد دخول أعداد كبيرة من الرقيق فى الإسلام.فانقضوا كالكلاب المسعورة على العبيد والضعفاء يبطشون بهم بلا رحمة. وتعرّض بلال بن رباح وعمّار بن ياسر وأبوه وأُمّه وغيرهم لتعذيب مُروّع فى لهيب الصحراء الحارق، لإجبارهم على ترك دينهم بلا جدوى. وسطر هؤلاء الأصحاب العِظَام صفحات خالدات فى الثبات على العقيدة، وبذل الأرواح والأموال رخيصة فى سبيلها..صمد بلال عاريًا تحت الصخور الملتهبة، وسياط المجرمين تُلهب جسده، فما يزيد على الهتاف:"أحد أحد"ورفضت سُمَيّة بنت خياط– أُمّ عمّار–الكُفر، فطعنها الخبيث أبوجهل بحربة فى بطنها، لتصعد روحها الطاهرة الى أعلى الجنان، وتكون أول شهيدة فى تاريخ الإسلام. وتعرّض زوجها"ياسر"وابنها"عمّار"وصُهيب الرومى وخبّاب بن الأرت– مع آخرين–لأبشع ألوان البطش والنكال، فما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا. وامتدّ الأذى إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم نفسه. وتراوحت درجاته ما بين السَبّ والشتم، والتهديد، ورمى القاذورات عليه وأمام بيته، إلى محاولة قتله عليه الصلاة والسلام. ويُروى أن أحدهم–عُقبة بن أبى مُعيط–ألقى فضلات جمل ذبيح علي النبى صلى الله عليه وسلّم، وهوساجد إلى جوار الكعبة، وراح الحاضرون من المشركين يضحكون. ولم يخرج الحبيب من صلاته رغم ذلك. وجاءت ابنته السيدة فاطمة–وكانت طفلة صغيرة– فأزاحت عن ملابس أبيها الفضلات وهى تبكى وتَسُبّ المجرمين.فلمّا فرغ صلى الله عليه وسلم من الصلاة دعا ربه:"اللهم عليك بقريش"ثلاثًا، ثم دعا على الحاضرين بالأسماء:اللهم عليك بعقبة بن أبى مُعيط، اللهم عليك بعمروبن هشام–أبوجهل– اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأُميّة بن خلف، اللهم عليك بعمارة بن الوليد".. ويقول راوى الحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:فوالله لقد رأيتهم –كل من دعا عليهم النبى– صرعى يوم"بدر"مدفونين فى القليب.. وعندما اشتد أذى المجرمين للنبى وأصحابه، دعا عليه الصلاة والسلام ربّه أن يُصيبهم بسنوات قحط وشِدّة لعلهم يثوبون إلى الرُشد، ويتركون ما هم عليه من الكُفر. وبالفعل اشتدت عليهم سنة المجاعة، فجاء إليه أبوسفيان أحد زعماء قريش، قائلًا: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم.. وعاهدوه على ترك عبادة الأصنام، لوكشف الله عنهم المحنة. واستجاب الله لدعاء رسوله صلى الله عليه وسلم، وفرّج عنهم الكرب والبلاء، ولكنهم نكثوا عهودهم، وأصرّوا على كُفرهم !

١٧- قصة إسلام أبى ذر الغفارى

كان أبوذر الغفارى رضى الله عنه، قبل إسلامه، يُنْكر عبادة الأصنام، ويصلى لله الواحد على دين الخليل إبراهيم، بدون اتجاه إلى قبلة بعينها. وسمع ببعثة نبى فى مكة، فجاء إلى الحرم، وكتم أمره، ومكث بجوار الكعبة ليلًا.فرآه على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفهم أنه غريب فاستضافه. ولم يسأله عن شىء. وفى الصباح عاد أبوذر إلى بيت الله الحرام، وأمضى نهاره كله فيه. وفى الليل رآه على، فاستضافه مرة أخرى. وبعد الليلة الثالثة سأله عن غرضه من القدوم إلى مكة، فأخبره أبوذر أنه يريد مقابلة النبى والتأكّد من أمره.فقال له على:إنه على الحق، وهورسول الله. واتفقا على أن يمشى على وأبوذر خلفه من بعيد، فإذا رأى على أحدًا يخافه عليه يتظاهر بأنه يقضى حاجته فى جانب من الطريق، ليبتعد أبوذر، حتى يزول الخطر، فيعاود السير وراء على. ووصلا أخيرًا إلى بيت الحبيب صلى الله عليه وسلم، الذى رحّب بأبى ذر، وشرح له قواعد الإسلام، فانشرح صدره، ونطق بالشهادة على الفور. وأمره الرسول صلى الله عليه وسلّم بكتمان أمره والعودة الى قومه، إلى أن يسمع بظهور الإسلام فيأتى اليه.لكن الصحابى الجليل رضى الله عنه أَبَى إلا أن يجهر بإسلامه، فى قلب البيت الحرام، مهما كانت العواقب. وجاء رضى الله عنه إلى الكعبة وصاح أمام طواغيت المشركين جميعًا:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.. وجُنّ جنون الكافرين فتكاثروا عليه، وراحوا يضربونه بكل غِل ووحشية، حتى أوشك على الموت.لكن الله تعالى سَخّرَ له العباس بن عبد المطلب—عم النبى-الذى كان يُخفى إسلامه، فصاح بهم مُحَذّرًا من عواقب قتله، لأن طريق تجارة قريش يمر على ديار قبيلته"غفار"ولن تسكت القبيلة على مقتل ابنها. وخاف المشركون على تجارتهم وأموالهم فكَفّوا أيديهم عن أبى ذرّ. وما كاد أبوذر يعود الى قومه حتى بدأ فى دعوتهم إلى الإسلام. وأسلم بسببه —تِباعًا- أكثر من نصف القبيلة، ثم أسلم الباقون بعد الهجرة النبوية الشريفة. وظل أبوذر رضى الله عنه طوال حياته يصدع بكلمة الحق، لا يخشى فى الله لومة لائم. وصدق فيه الحديث الشريف: (ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذر)) رواه الامام أحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم وصَحّحه الألبانى.

١٨- مفاوضات مع أبي طالب

فشلت كل أساليب القمع فى القضاء على الدعوة الوليدة فى المهد.فلجأ المشركون إلى أسلوب الضغط على النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق عمه"أبوطالب"الذى كان على شركه، لكنه كان يدعم ابن أخيه ويحميه بكل قواه. وتكرّر إلحاحهم على العم عدة مرات.فقد كلّمه بعض سادة مكّة أولًا بلطف وتودّد، وأشاروا إلى ماله من مكانة وفضل فى قريش، وأنه على مثل ما هم عليه من عبادة الأوثان التى يعيبها ابن أخيه ويُسفّه عقيدة من يُقدّسونها. وطلبوا منه أن يكُفّ ابن أخيه.

فقال لهم أبوطالب قولًا رفيقًا، وتلطّف معهم فى الجواب حتى انصرفوا.لكن الرسول صلى الله عليه وسلّم لم يتوقّف عن دعوة الحق، وزاد عدد أتباعه بمرور الوقت، فعاد الكافرون إلى أبى طالب وخاطبوه فى المرّة الثانية بلهجة أكثرتشدّدًا:

يا أبا طالب إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنّا والله لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تَكُفّه عنا، أونُنازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

واشتدّ كلامهم على أبى طالب، فاستدعى النبى صلى الله عليه وسلّم، وقال له:يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى، فقالوا كذا وكذا، فأبق علىّ وعلى نفسك، ولا تُحمّلنى من الأمر ما لا أُطيق.فظنّ صلى الله عليه وسلّم أن عمّه قد ضعف عن نُصرته، فقال له: (يا عم. والله لووضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر-الإسلام-ما تركته حتى يُظهره الله، أوأهلك دونه) وغلبته دموعه عليه الصلاة والسلام فقام باكيًا. وتأثّر أبوطالب بشدّة. وكان الله تعالى قد ألقى فى قلبه شفقة ومحبة للنبى، تفوق محبته لأولاده، فهتف به:اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشىء أبدًا. وسمع الكُفّار بذلك ففكّروا فى إغراء أبى طالب بدلًا من تهديده. وجاءوا إليه فى المرّة الثالثة بعرض ظنّوه مُغريًا! فقد أحضروا إليه عمارة بن الوليد بن المغيرة، وقالوا:يا أبا طالب، هذا أجمل فتى فى قريش، فخذه ولك عقله ونصره، واتخذه ولدًا لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسَفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هورجل برجل! وكان العرض بالغ السُخف والإجحاف، فصاح بهم أبوطالب: والله لبئس ما تُسومونى! أتعطونى ابنكم أُطعمه لكم، وأُعطيكم ابنى لتقتلوه ؟! هذا والله ما لا يكون أبدًا .

وكان ابن عمه المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف حاضرًا، فقال له:والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك! وجهدوا على التخلّص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا! ولم يكن ما ذكره المطعم (المشرك) صحيحًا على الإطلاق، إذ كيف يكون إنصافًا أن يرعى ويُربّى لهم ابنهم وهم يقتلون ولده ؟!

وردّ عليه أبوطالب بمرارة واستنكار: والله ما أنصفونى، ولكنك أجمعت (قَرَّرْتَ) خذلانى، ومُظاهرة (مُناصرة) القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك !

ويبدوأن كلمات أبى طالب قد تركت أثرًا فى نفس المطعم بن عدى، ودفعته إلى تغيير سلوكه، فكانت له فيما بعد مواقف رائعة، سَجّلَها التاريخ، وبسببها ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم لاحقًا بالخير، رغم أنه مات على الشرك.

١٩- شهادة زعيم المشركين للقرآن الكريم

من الوسائل التى لجأت اليها قريش لاجهاض الدعوة الناشئة، تلك المحاولات المتكرّرة لمساومة وإغراء الرسول صلى الله عليه وسلم للتخلى عن الإسلام.. وفى إحدى هذه المرّات جاء إليه عُتبة بن ربيعة أحد سادات مكّة، بعد مشاورات مع كبار الطواغيت، فقال له:يا ابن أخى، إنك مِنّا حيث قد علمت من شرف العشيرة، ورفعة النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم، فَرّقْتَ به جماعتهم، وسَفّهْتَ به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم، وكَفّرْتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع منى، أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.فرَدّ الرسول صلى الله عليه وسلّم: (قل يا أبا الوليد أسمع) قال عُتبة:يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئت به مالًا جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا. وإن كنت تريد به شرفًا سَوّدناك (أعطيناك السيادة) علينا، فلا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد به مُلكًا مَلّكْنَاك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك شيئًا تراه لا تستطيع رَدّه (مرض أوجنّ) طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تُشفى منه، فربما غلب التابع (الجِنّى) على الرجل إلى أن يُداوى منه. وبعد أن انتهى عُتبة من عرض ما عنده قال له النبى صلى الله عليه وسلّم : (أوقد فرغت يا أبا الوليد) ؟! أجاب عُتبة:نعم، فقال عليه الصلاة والسلام :اسمع منى، بسم الله الرحمن الرحيم ((حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فِيهَا وقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْكَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ (١٣) سورة فُصّلت.

فهب عُتبة مذعورًا من وقع الإنذار الالهى بالصاعقة، ووضع يده على فم النبى صلى الله عليه وسلّم، وهويناشده بالله وبالرحم (القرابة) مخافة أن يتحقّق الإنذار. وانصرف مُسرعًا، إلى حيث كان الباقون من سادات مكّة ينتظرون بفارغ الصبر، وقال لهم مقولته الشهيرة:

(سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قَطْ. والله ما هوبالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخَلّوا بين هذا الرجل وبين ما هوفيه (اتركوه) فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم .فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم، وعِزّه عِزّكم، وكنتم أسعد الناس به) فصاحوا به أجمعين:

سحرك يا أبا الوليد بلسانه.فردّ عليهم بقُوّة:هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم. وهنا نُلاحظ أن الله تعالى قد أنطق لسان عُتبة بشهادة حقّ للإسلام والقرآن، وإن ظل على شِرْكِه، ونَكَصَ على عقبيه، وقُتل مُشركًا يوم بدر. وهناك ملاحظة أُخرى، هى أن كُلّ حُطام الدنيا الفانى الذى عرضوا جميع أصنافه على الرسول، لم يخلب لُبّه، ولم يفتنه عَمّا أنزل الله اليه، فهوالذى خيّره ربّه، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، يجوع يومًا فيصبر، ويشبع يومًا فيشكر. ولوشاء لجعله الله ملكًا رسولًا، مثل أخويه داود وسليمان، عليه وعليهما الصلاة والسلام.. وما عند الله خير وأبقى.

وفى مرّة أخرى عرضوا عليه أن يأتيهم بكتاب غير القرآن الكريم! وفى مرّة ثالثة عرضوا أن يعبد الجميع رَبّه مع آلهتهم (الأصنام) وهم يتوهّمون أن هذا حل للمشكلة! لكن عقيدة التوحيد لا تقبل المِدَاهنة، ولا المساومة، ولا أنصاف الحلول.. وقد نزلت سورة (الكافرون) لتحسم هذا الأمر : بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

٢٠- إسلام الأسدين حمزة وعمر

فى غمرة المحنة التى مرّ بها المسلمون المستضعفون بدأت بشائر التمكين فى الظهور..فقد كان الأذى الشديد سببًا مُباشرًا فى إسلام الأسد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم.إذ خرج النبى ذات يوم الى الكعبة، فتعرّض له اللعين"أبوجهل"فشتمه وسَبّه سبابًا قبيحًا، ولم يردّ عليه صلى الله عليه وسلم. وكان حمزة عائدًا من الصيد، فأخبرته جارية لعبد الله بن جدعان بما أصاب ابن اخيه على يد أبى جهل. وأراد الله تعالى بحمزة الخير كل الخير، فاندفع غاضبًا إلى مجلس أبى جهل، وسط زعماء قريش، وصاح به:أتشتم ابن أخى ؟! فأنا على دينه، فرُدّ علىّ هذا إن استطعت،

وضربه بالقوس ضربة أسالت الدماء من رأسه. وثار بنومخزوم، يريدون الإنتقام لكبيرهم، لكن الله تعالى أخزى أبا جهل، فمنعهم قائلًا دعوا أبا عمارة (حمزة) فإنى سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. وهكذا بدأ حمزة رضى الله عنه إسلامه حمية وانتصارًا لإبن أخيه أولًا، ثم شرح الله صدره للتوحيد بعدها. وما كادت تمر ثلاثة أيام على إسلام حمزة، حتى فُجعت قريش بضربة أُخرى أشد، هى إسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وخُلاصة الروايات المتَعَدّدة فى سبب إسلام عمر أنه كان من المجرمين الساخطين على الإسلام، وممن يُلحقون أشد الأذى والبطش بضعفاء المسلمين. ووصل به الأمر إلى حد أنه حمل سيفه، وخرج يبحث عن النبى صلى الله عليه وسلم ليقتله.قابله رجل وسأله:أين تريد يا عمر؟ فأجاب:أُريد أن أقتل محمدًا. وكان الرجل مُسلمًا، فأراد أن يصرفه عما ينتوى، وقال له:وهل تظن أن قومه من بنى عبد مناف وبنى زهرة (أخوال النبى) يتركونك تمشى على الأرض إن قتلته ؟! غضب عمر وقال له:ما أراك إلا قد صبأت (أسلمت) وتركت دينك الذى كُنت عليه. وسارع الصحابى الذكى إلى توجيه عمر وجهة أخرى لعله يهتدى، أويكفّ عن الشرّ، وهتف به:ألا أدلّك على العجب يا عمر؟! فإن أختك وزوجها (ابن عمه) تركا دينك واتّبعا محمدًا..ثارت ثائرة عمر عندما سمع بإسلام أخته وزوجها فانطلق إلى بيتها.. وكان عندهما الصحابى الجليل خبّاب بن الأرت، يتلوعليهما القرآن، فسارع إلى الاختباء عندما سمع صوت عمر، وهويطرق الباب.سأل عمر أُخته وزوجها عن هذا الصوت الذى سمعه عندهما قبل دخوله، فأنكرا، فصاح بهما :لعلكما تابعتما محمدًا؟أجابه زوج أخته بثبات:أرأيت إن كان الحق فى غير دينك ؟ وكان هذا الجواب كافيًا للتأكّد من صدق ما أبلغه به الرجل، فانقض كالمجنون على زوج أُخته وطرحه أرضًا، وجلس على صدره. وجاءت أخته تحاول إنقاذ زوجها من بطشه، فلطمها عمر لطمة أسالت الدماء غزيرة من أنفها..صاحت

باكية:نعم قد أسلمنا لله رب العالمين، فافعل ما بدا لك. وعندما رأى دماء ودموع أُخته ندم وثاب إلى رشده، وترك زوجها وقال مُتلطّفًا:أعطونى هذا الكتاب الذى سمعتكم تقرأون، فأجابته:إنّك مُشرك نجس، وهذا القرآن (لا يمسّه الا المطهّرون) فاغتسل عمر، وجاء ليقرأ فى الصحيفة التى عندهما: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوأَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) سورة طه.

انشرح صدر عمر رضى الله عنه، وهتف بانبهار:ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه.دلّونى على محمد. وهنا خرج خَبّاب بن الأرت من المخبأ، وصاح به:ابشر يا عمر، فوالله إنى لأرجوأن يكون الله قد خَصّك بدعوة نبيه بالأمس .

فقد دعا صلى الله عليه وسلم ربه قائلًا: ((اللهم أعزّ الاسلام بأحب الرجلين إليك، عمر بن الخطاب أوعمروبن هشام "أبوجهل")). وذهب عمر إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم، حيث نطق بالشهادتين بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكبّر المسلمون تكبيرات سمعها كل سكان المنطقة. ويُروى أنه أصرّ رضى الله عنه على أن يخرج المسلمون (لأول مرّة) جهارًا نهارًا إلى الكعبة، ليطوفوا بها، وليُصَلّوا علانية حولها. وأكلت الحسرة والرُعب قلوب المشركين، عندما رأوا النبى والمسلمين فى صفّين، فى مقدمة أحدهما حمزة وفى الآخر عمر بن الخطاب، رضى الله عنهم ورضوا عنه. وصدق الصحابى الجليل القائل: (ما زلنا أَعِزّة منذ أسلم عمر)..رضى الله عن الجميع.

٢١- معجزة انشقاق القمر

من القضايا التى ثار بشأنها جدل واسع النطاق معجزة انشقاق القمر للنبى صلى الله عليه وسلم.فقد طلب منه المشركون دليلًا على نبوته، فشق الله تعالى القمر بقدرته، وعاين كل المشركين هذا بأنفسهم. وصاحوا:لقد سحر محمد أعيننا.لكن بعض عقلائهم قال: سنسأل القادمين من الرحلات خارج مكة وأهل البادية، لأنه لن يستطيع أن يسحر أعين كل الناس فى ذات الوقت. وبالفعل أخبرهم قادمون من مسافات بعيدة أنهم رأوا هذا الأمر المذهل، وعاينوا انشقاق القمر إلى قطعتين منفصلتين تمامًا. والحادث ثابت بنص القرآن الكريم فى الآية الأولى من سورة القمر (اقتربت الساعة وانشق القمر) كما نصت عليه أحاديث صحيحة، رواها الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما. وشاء الله تعالى أن يُثبت العلم الحديث بعد ١٤ قرنًا من الزمان هذه المعجزة، على أيدى رواد فضاء من غير المسلمين، وصور التقطتها سفن الفضاء الأمريكية التى هبطت على سطح القمر، وهى موجودة على الشبكة العنكبوتية لمن يرغب فى الإطلاع عليها.بل كان هذا سببًا فى إسلام رجل بريطانى تَشَكّك فى القرآن أولًا بسبب هذه الآية..يقول العالم الجليل الدكتور زغلول النجار:"في محاضرة بكلية الطب بجامعة كارديف، غربي بريطانيا، وجّه إليّ أحد الحضور سؤالًا عن مطلع سورة القمر: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وهل تمثل هذه الآية ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟ فأجبتُ:هذه الواقعة تمثل إحدى المعجزات الحسّية التي وقعت تأييدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة مشركي قريش وإنكارهم لنبوته، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأن المعجزات خوارق للسُنَن، والسُنن الدنيوية لا يمكنها أن تفسر المعجزات الحسية التي جاء بها الأنبياء، ولولا ورودها في كتاب الله، وفي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ما كان علينا أن نؤمن بها. ونص الآيات: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) سورة القمر:١-٤

وبعد إنتهاء حديثي وقف رجل بريطاني من الحضور واستأذن أن يضيف شيئًا، فأذنت له، وبدأ بتعريف نفسه.. واسمه داوود موسى بدكوك، وهومسلم، ويرأس الحزب الإسلامي البريطاني، وقال:إن هذه الآيات في مطلع سورة القمر كانت هي السبب في إسلامه، في أواخر السبعينات من القرن العشرين، لأنه كان يبحث بحثًا مستفيضًا عميقًا في الأديان، وأهداه أحد المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، وفتح هذه الترجمة بدون تحديد لسورة مُعيّنة، فإذا بعينه تقع على تفسير قوله تعالى:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) ووقتها اعتبر الرجل غير المسلم أنها خرافة، وأغلق التفسير المترجم باللغة الإنجليزية، ووضعه في مكان قصي، وانتهى الأمر..ثم شاء الله تعالى أن يشاهد هذا الرجل على شاشة التلفاز البريطاني (بي بي سي) برنامجًا عن رحلات الفضاء، استضاف فيه المذيع البريطاني المعرف جيمس بلاك ثلاثة من علماء الفضاء، سنة ١٩٧٨. وأثناء الحوار كان المذيع ينتقد الإسراف على رحلات الفضاء وانفاق مليارات الدولارات-تكلّفت رحلة "أبولو"وحدها ٢٥ مليارًا- وأهل الأرض يتضوّرون جوعًا، وملايين البشر في أمس الحاجة إلى هذه الأموال الطائلة، لعلاج الأمراض والجهل والتخلّف. وكان جواب العلماء الذين يحاورهم هذا المذيع:إنه بفضل هذه الرحلات، تم تطوير عدد من التقنيات المهمة التي تُطبّق في مجالات التشخيص والعلاج الطبي والصناعة والزراعة وغيرها.

وأثناء الحوار جاء ذكر أول رحلة نزل فيها رجل على سطح القمر-تكلّفت عشرات المليارات-وواصل المذيع إنكار هذا الإسراف، فقال العلماء:إن هذه الرحلة قد أثبتت لنا حقيقة لوأنفقنا أضعاف هذا المبلغ، لإقناع الناس بها ما صدّقنا أحد، وهى أن هذا القمر قد سبق له أن (انشق) ثم التحم! لاحظوا أن الموضوع ليس له علاقة إطلاقًا بالأديان، ولا بالإسلام، ولا بالقرآن.إنها ندوة لعلماء الفضاء الثلاثة ومذيع في إذاعة بريطانيا"بي بي سي"!وأكّدوا أن آثارًا محسوسة تُؤيّد هذا الحدث، قد وجدت على سطح القمر، وقد صُوّرت هذه الآثار وأُرسلت إلى الأرض، وعُرضت على علماء كبار، وبدون استثناء أكدوا جميعاً أن القمر كان قد انشق ثم التحم!وأضاف السيد بلكوك -الإنجليزى الذى كان قد اعتبر الآية خرافة-:

حينما سمعت ذلك قفزت من الكرسي الذي كنت أجلس:عليه أمام التلفاز، وقلت: مُعجزة تحدث لمحمد قبل ١٤٠٠ سنة، ويرويها القرآن بهذا التفصيل العجيب، يُسخّر الله من يُثبتها للمسلمين في عصر العلوم والتقنية الذي نعيشه، ويُرصد هذا المبلغ الكبير بواسطة غير المسلمين لإثباتها ؟! لا بد أن يكون هذا الدين حقًا.. وهكذا عاد الرجل إلى ترجمة معاني القرآن الكريم ليقرأها بشغف شديد، وكانت آيات افتتاح سورة القمر هي السبب المباشر فى قبوله للإسلام.. وصدق الله العلىّ العظيم: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ..سورة فصلت الآية:٥٣

٢٢- الهجرة إلى الحبشة

كان لابد من التفكير فى حل جذرى لإنقاذ المسلمين المستضعفين من بطش المشركين، فى وقت لم يأذن الله تعالى فيه بالقتال دفاعًا عن النفس بعد.. ولوأنصف خصوم الإسلام، لرأوا الدليل القاطع على سماحته فى العهد المكى، الذى استمر فيه العذاب ١٣ سنة كاملة، لم يرفع خلالها مُسلم سيفه فى وجه كافر، رغم استشهاد سُمَيّة أُم عمّار، والتعذيب المرَوّع للأرقّاء والضعفاء.

وكان الحل الأمثل هوالهجرة إلى الحبشة، التى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم سبب اختيارها، وهوأن ملكًا عادلًا"النجاشى"كان يحكمها، ولا يُظلم عنده أحد. و"النجاشى"لقب كانوا يطلقونه على مَنْ يتولى حكم الحبشة، مثل"كسرى"لقب ملوك الفرس، ولم يكن هذا "النجاشى"المعاصر للهجرة، قد أسلم بعد -اسمه الشخصى أصحمة- ولكن عدالته ونُبل أخلاقه كانا كافيان ليقيم المسلمون إلى جواره وليتمتعوا بحمايته. وبالفعل هاجر فى المرّة الأولى ١٢ صحابيًا، معهم ٤ من زوجاتهم. وكان على رأسهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى صلى الله عليه وسلم. وهما أول بيت فى الإسلام، هاجر فى سبيل الله، على غرار أبينا إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام. وقد عادوا إلى مكة إثر شائعة سرت أن أهلها أسلموا جميعًا، فلمّا كانوا على مقربة منها تبيّنوا كذب الشائعة، فعاد بعضهم إلى الحبشة، ودخل آخرون مكة فى حماية بعض أقاربهم من المشركين. واشتد الأذى على المسلمين بعد ذلك أكثر من ذى قبل، فخرج ٨٣ صحابيًا ومعهم ١٩ من زوجاتهم، إلى الحبشة. وفشلت قريش فى ملاحقتهم قبل ركوبهم البحر، فأرسلت خلفهم اثنين من دهاتها إلى النجاشى، لإقناعه بتسليمهم الى الكافرين وكان الرجلان عمروبن العاص، ومعه عبد الله بن أبى ربيعة -أوعمارة بن الوليد فى رواية أخرى-قد حملا الهدايا النفيسة إلى النجاشى وحاشيته وقساوسته.. وعرضا عليه الأمر..لكن"أصحمة" كان ملكًا عاقلًا عادلًا، فرفض الإستجابة إليهما قبل سماع وجهة نظر اللاجئين إلى بلاده. وجاء وفد المسلمين بقيادة جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، إلى مجلس النجاشى، فسألهم عن هذا الدين الذى فارقوا بسببه قومهم، ولم يدخلوا أيضًا فى دينه (النصرانية) ولا أى دين آخر معروف فى ذلك الوقت.فأجابه جعفر رضى الله عنه:"أيها الملك:كُنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونرتكب الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف.حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نَسَبَه وصدقه وأمانته وعفافه.فدعانا إلى عبادة الله وحده، وخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن

المحارم والامتناع عن سفك الدماء".. وراح جعفر –رضى الله عنه– يذكر للنجاشى كل أوامر ونواهى الإسلام وما جاء به من مكارم الأخلاق..فلمّا فرغ سأله النجاشى:هل معك مما جاء به محمد عن الله من شىء؟ أجاب جعفر:نعم. وهنا يظهر توفيق الله لجعفر وفطنته، فقد اختار للنجاشى وقومه (وهم نصارى) سورة تمسّ أخص ما يؤمنون به، وفيها أجمل وأنزه وأعفّ سرد، فى كل الكُتُب السماوية، لقصة عيسى وأُمه مريم، وهى سورة"مريم"وما كاد جعفر يمضى فى تلاوتها بصوته العذب الشجىّ، حتى انهمرت دموع النجاشى والقساوسة، تأثرًا بإعجاز وجمال القرآن الكريم و(مِمّا عرفوا من الحق) وهتف النجاشى باكيًا: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وصاح فى مندوبى قريش:انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ..لكن دهاء عمروبن العاص جعله يحاول إثارة الملك ضد المسلمين، فجاء إليه فى اليوم التالى ليُوقع بينه وبينهم، قائلًا :إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولًا عظيمًا، لا يُرضى الملك..فاستدعى النجاشى جعفر وصحبه مرّة أخرى .. وهنا ضرب جعفر ومن معه من الصحابة أروع الأمثال فى الثبات على الحق، مهما كانت العواقب. وقال رضى الله عنه:نقول فى عيسى ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم: هوعبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول..فتناول النجاشى عودًا صغيرًا من الأرض، وقال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.فتناخر القساوسة مستنكرين، فأفحمهم النجاشى قائلًا: هذا هوالحق–وإن نخرتم–والله. وهتف الملك بجعفر وأصحابه:اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى.من سَبّكم غَرِم (كَرّرها ثلاث مرات) وما أُحب أن لى جبلًا من ذهب وأنّى آذيت رجلًا منكم. وأمر برد هدايا مشركى قريش إليهم، وقال: ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىّ مُلكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىّ فأُطيعهم فيه. وأقام المسلمون عنده سنوات فى خير دار مع خير جار. وقد أكرم الله"أصحمة"بالإسلام قبل موته. وجاء الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بخبر وفاته، فصلى بأصحابه صلاة الغائب عليه ..رضى الله عنه وأرضاه.

٢٣- الحصار

إزاء انتشار الإسلام وعجز قريش عن السيطرة على الموقف، اجتمع زعماء المشركين، وقرّروا فرض مُقاطعة شاملة على بنى هاشم وبنى المطلب.فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يُصاهرونهم، إلى أن يُسلّموا النبى صلى الله عليه وسلم إليهم، ليقتلوه. وكتبوا بذلك صحيفة عَلّقوها فى داخل الكعبة.

وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا على كاتب الصحيفة فشُلّت يده.. وتلك مُعجزة شهدها كل أهل مكة، لكن الله لم يأذن لقلوب الكافرين فى التأثر بها، فمضوا فى مقاطعتهم الظالمة الفاجرة. ورأى أبوطالب أن الحل الأمثل لحماية النبى من بطش المشركين هوأن يجمع بنى هاشم وإخوتهم بنى المطّلب فى شعب أبى طالب (منطقة محصورة بين جبلين) مسلمهم وكافرهم، ليكونوا حول النبى صلى الله عليه وسلم، وليقاتلوا دفاعًا عنه إذا اقتضى الأمر. واستجاب له الجميع، بإستثناء أخيه"أبى لهب"الذى أعماه الحقد المسعور عن واجبه فى الانضمام الى أهله وحماية ابن أخيه.. واستمر الحصار الخانق ثلاث سنوات عجاف، اضطروا خلالها الى أكل الجلود وأوراق الشجر، وكانت أصوات بكاء أطفالهم ونسائهم الجياع تُسمع من وراء الشعب. ومنع المجرمون الكافرون كُل التجّار القادمين إلى مكة من الوصول ببضائعهم الى المحاصرين داخل شعب أبى طالب. ولكن سخّر الله لهم بحكمته وتدبيره ورحمته من أقاربهم وأصهارهم من كان يُساهم فى تخفيف آثار الحصار، بتهريب بعض الطعام والشراب إليهم، سرًّا، فى غفلة من المشركين. وكان أبوطالب يحرص على حماية ابن أخيه بنفسه، فينام عليه السلام فى مكان سرّى، ويأمر أبوطالب أحد أبنائه أوأولاد عمه بالنوم فى فراش الرسول، للتمويه على الكافرين المتربّصين به .

وأذن الله تعالى بالفَرَج بعد الشدّة، فغضب بعض المشركين المنصفين الذين لم يوافقوا على المقاطعة، وما استشارهم أحد فى أمر الصحيفة، وثاروا رفضًا لقطع الأرحام وتجويع الأطفال والنساء بغير حق. ويذكر التاريخ لهشام بن عمروبن عامر بن لؤى أنّه أوّل من نال شرف السعى لنقض الصحيفة الظالمة.فقد ذهب الى زُهير بن أُميّة المخزومى –وهوابن إحدى عمّات النبى– وقال له مُعاتبًا: أرضيت يا زُهير أن تأكل وتشرب وأخوالك حيث تعلم ؟! فأجاب زُهير: وماذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ؟! والله لوكان معى رجل آخر لقُمْتُ فى نقض الصحيفة..فأخبره هشام بأنه سينضم إليه فى ذلك، فقال زُهير : ابغنا رجلًا ثالثًا. وذهب هشام الى المطعم بن عدى، وهوابن عم الهاشميين والمطّلبيين، فعاتبه بمثل ما عاتب به زُهيرًا، وأجاب المطعم بمثل جواب زُهير، فطمأنه هشام إلى أنه وزُهير بن أُمية معه فى العمل على

إنهاء المقاطعة. وطلب منه المطعم البحث عن مُؤيّد رابع، واستطاع هشام اقناع "أبوالبخترى بن هشام"و"زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد". واجتمع الستة سرًّا، واتفقوا على السعى فى نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة فى الغد .

وفى صباح اليوم التالى طاف زُهير بن أبى أُميّة بالكعبة سبعة أشواط، ثم أقبل على مجلس زعماء الكافرين قائلًا: يا أهل مكّة.أنأكل الطعام ونشرب الشراب، وبنوهاشم هلكى، لا يُباع ولا يُشترى منهم ؟! والله لا أقعد حتى تُشق (تُمزّق) هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.فصاح أبوجهل:كذبت. والله لا تُشَق..فصاح زمعة بن الأسود بأبى جهل: أنت والله أكذب.ما رضينا كتابتها حين كُتبت. وانضم أبوالبخترى بن هشام إلى زمعة قائلًا: صدق زمعة.لا نرضى ما كُتب فيها ولا نُقرّه.. وهتف المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك.نبرأ إلى الله من تلك الصحيفة ومما كُتب فيها. وقال هشام بن عمرومثل قول أصحابه.فصرخ أبوجهل اللعين غاضبًا: هذا أمر قُضى بليل.تشاورتم فيه بغير هذا المكان. وجاء أبوطالب فحسم الموقف بعرض وافق عليه الجميع.إذ قال لهم إن ابن أخيه محمدًا أخبره بأن الله تعالى قد سلّط على صحيفة المقاطعة حشرة (الأرضة) فأكلت كل ما فيها من ظلم وقطع للرحم، وتركت فقط جملة (بسمك اللهم).فليُخرجوا الصحيفة من جوف الكعبة، ليتأكّدوا من ذلك.فإن كان ما أخبره به محمد صحيحًا يتم نقض الصحيفة وإنهاء الحصار الظالم. وإن كانت الصحيفة سليمة لم تُمسّ يُسلّم إليهم ابن أخيه ليفعلوا به ما أرادوا..فقالوا جميعًا: قد أنصفت يا أبا طالب. وما كادوا يُخرجون الصحيفة من قلب الكعبة حتى رأوا بأعينهم عجبًا.فقد التهمتها الأَرضَة بالفعل-كما أخبر الصادق الأمين-ولم يبق منها سوى عبارة:

((بسمك اللهم))! فانكسر المشركون وأعلنوا الإذعان للاتفاق مع أبى طالب وإنهاء المقاطعة. وكانت تلك نهاية الحصار الإجرامى .. وهى أيضاً مُعجزة ثابتة شهدها الجميع بأعينهم، وكانت كفيلة بإقناعهم أن محمدًا رسول الله حقًّا وصدقًا. لكنهم أبوا إلا استكبارًا وجحودًا وإنكارًا للحق، لتنفذ فيهم مشيئة الله تعالى.

٢٤- ثمرات رحلة الحبيب إلى الطائف

فوجئنا - منذ فترة- بأحد الذين يتحدثون على شاشات القنوات الفضائية يزعم أن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف هي :"محاولة فشلت ضمن ٢٥ محاولة أخرى فشلت كلها"!! اتهمت أذني وقلت لنفسي:لعلى لم أسمع جيدًا، أولعل الرجل لا يقصد، فإذا به يعيد الكلام بكل جرأة، وكأنه يتحدث عن رحلة أومحاولة فاشلة لزعيم سياسي-أوشخصية معاصرة- لحشد أنصار أوالفوز بالحُكْم، أوتحقيق مكاسب دنيوية! !

ولما كانت هذه المسألة قد أثارت جدلًا واسع النطاق في كثير من المواقع على الإنترنت، فقد استعنت بالله تعالى على إيضاح بعض الأمور المتعلقة برحلة الطائف، وإلقاء الضوء على الدروس المستفادة، والثمرات المستطابة التي يرزقها الله سبحانه وتعالى-بحوله وفضله وإحسانه-من يشاء من عباده الباحثين في بستان السيرة العطرة.

وقد وفّق الله عبدًا فقيرًا إلى عفوه وكرمه ورضوانه فاستخرج ١٦ درسًا وثمرةً من هذه الأطايب . ولعل آخرين من أهل العلم والفضل يهتدون إلى أكثر من ذلك بمشيئة الله.

وفيما يلي نعرض هذه الثمار والدروس والحكم البالغة..

في البداية لابد من الإشارة إلى خطورة الكلام بهذا الأسلوب الذي يتسم بسوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.فالكلام عنه أوعن أحد من إخوته الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام أجمعين- ينبغي أن يكون بكل توقير وحرص وهيبة وحذر والتزام بما فرضه الله تعالى علينا من احترام مقام الأنبياء الرفيع، وفى إطار ما هومعلوم من الدين بالضرورة من أنهم ليسوا كغيرهم من البشر، فهم معصومون من كل ما يُشين، تُحيط بهم رعاية الله تعالى وتوفيقه في كل لحظة. ولا يجوز مُطلقًا الحكم على نتائج أعمالهم بمقاييس البشر التي تبقى أبدًا ساذجة سطحية قاصرة.

وأقل ما يمكن أن يقال عن وصف الرحلة المباركة بأنها:"محاولة فاشلة"إنه نتيجة حتمية لنقص نصيب القائل من العلم بالسيرة العطرة، فهويهذى بما لا يدرى!!

ثم من أين جاء برقم ٢٥ هذا ؟! من أين أتى بهذا القول :" فشلت ٢٥ محاولة للرسول"؟!

هذا الهذيان لم أجد له أثرًا إطلاقًا في أي مرجع علمي محترم من المراجع الموثوق بها في السيرة العطرة!!

سبحانك.. هذا باطل نبرأ إليك منه، ومن عمل كل من ينشره، ومن قول كل من يُصرّ علي التمسك به. ولا يقولن أحد أن النصيحة هنا يجب أن تكون سرّية، فقد بُثّت تلك الأباطيل علانية، وتلّقاها

ملايين المشاهدين عبر تلك القناة الفضائية، ثم عشرات المواقع على شبكة الإنترنت، فوجب تصحيح هذا علانية أيضًا، كيلا يُفتتن العوام بمثل هذه الجهالات الشنيعة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

لقد كان من الممكن- جدلًا- أن نلتمس بعض العذر لهذا القائل لوأن أحدًا لم يؤمن بالرسالة طوال الفترة التي زعم أنها شهدت ٢٥ محاولة فاشلة، لكن الواقع والتاريخ يثبتان أن عددًا كبيرًا من خيار الناس كانوا قد أسلموا خلال تلك المرحلة من عمر الدعو.. أين الفشل إذا كان قد دخل في الإسلام- في تلك الفترة- أبوبكر وحمزة بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وبلال بن رباح وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وخباب بن الأرت ومئات آخرون رضي الله عنهم، ثم عمر بن الخطاب بعدهم، ومنهم من كان يجهر باعتناق الحق، ومنهم من كان يخفى إسلامه تجنبا لبطش المشركين ؟!والله إن كل واحد من هذه النجوم الساطعة في سماء البشرية لترجح كفته بملايين من غيرهم..كل واحد منهم هو"أُمّة"كاملة ولوكان وحده. وحاشا لله أن تكون قد"فشلت محاولات"من هداهم الله به إلى الحق والفلاح.

ومن يقرأ ويتأمل-بهدوء وتعقّل وبصيرة -تفاصيل رحلته عليه الصلاة والسلام إلى الطائف سوف يجد أنها أثمرت الكثير من الإنجازات والدروس والعبر العظيمة التي لم تكن لتتحقق بدونها، وبالتالي فقد نجحت نجاحًا تامًا بكل المقاييس..

ولأن رسالة الإسلام عامة لكل الخلق، فمن البديهي ألا يقتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة قريش فقط . ولهذا بدأ عليه الصلاة والسلام في التحرك لدعوة المقيمين بمناطق أخرى خارج مكة المكرّمة. ففي شوال من السنة العاشرة بعد بدء نزول الوحي، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة حوالي ٦٠ ميلًا، مشاها على قدميه الشريفتين ذهابًا وإيابًا.

ومن المعلوم بالضرورة كذلك أنه قد اتجه إلى الطائف بأمر من الله تعالى، فهوعليه السلام لا يفعل هذا من تلقاء نفسه. والله سبحانه لا يأمر بشيء إلا لعلمه الأزلي بما فيه من حكم بالغة، سواء علمها الخلق أم جهلوها.

لم يكن معه إلا الله تعالى ثم مولاه زيد بن حارثة. وروى ابن إسحاق أنه بعد وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف اجتمع بثلاثة من رؤساء ثقيف، هم الإخوة عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء

عمروبن عمير الثقفي، ودعاهم إلى الله وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هويَمْرُط ثياب الكعبة [أي يمزقها] إن كان الله أرسلك. وقال الآخر:أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك؟وقال الثالث:والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، قائلًا لهم: [إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني].طلب منهم ذلك حتى لا تشمت به قريش، وتزداد إجرامًا وبطشًا بأصحابه.

وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف فترة، لم يترك خلالها أحدًا من أشرافهم إلا دعاه إلى الإسلام، فتطاولوا عليه وطردوه، ثم أغروا به سفهاءهم فلاحقوه، أثناء خروجه من الطائف، يسبّونه، ويرمونه بالحجارة، حتى جُرِحَت قدماه الشريفتان، وسالت على نعليه الدماء.حاول زيد بن حارثة أن يحمي رسوله وحبيبه ومولاه بنفسه، فأصابوه-رضي الله عنه-بارتجاج في المخ، لكثرة ما تلقّاه من ضربات. ولم يزل السفهاء يرمونهما بالأحجار، حتى لجأ الرسول وصاحبه إلى حائط –بستان-لعتبة وشيبة ابني ربيعة على مسافة ثلاثة أميال من الطائف، فرجعوا عنهما.

((هنا لقّننا الحبيب صلى الله عليه وسلم الدرس الخالد الأول، وهوالثبات على الحق وتحمل كل الأهوال والأذى والمشقات في سبيل الدعوة إلى الله)).

كما علّمنا زيد رضي الله عنه–بدوره –درسًا ثانيًا هو: ((أن ندافع عن الرسول والرسالة بالنفس والنفيس)) ولولم يكن في الرحلة الخالدة من دروس وعبر إلا هذا لكفى.

جلس صلى الله عليه وسلم تحت شجرة عنب وراح يناجي ربه بدعائه الشجي المؤثر الذي تعلّمه منه ((درسًا ثالثًا)) كل مسلم يمرّ بشدّة أوبلاء أومحنة إلى قيام الساعة:

(اللهُمَّ إِنِّي أَشْكُوإِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وهَوَانِي عَلى النَّاسِ.يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّي، إِلى مَن تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يُتَجَهَّمُنِي، أم إِلى عَدُومَلَّكْتَه أَمْرِي.إِن لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي، ولكِن عَافِيَتَكَ هي أَوْسَعُ لِي.أَعُوذُ بِنُورِ وجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ بِه الظُّلُمَاتُ وصَلُحَ عَلَيهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، من أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أوتُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، ولاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ)

فلما رآه ابنا ربيعة شعرا نحوه بالعطف –لأنهما من أقاربه– فأمرا غلامًا لهما نصرانيًا اسمه عَدَّاس بأن يعطى محمدًا قطفًا من العنب. وضع عدّاس العنب بين يدي الحبيب صلى الله عليه وسلم، فمد يده إليه قائلًا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم أكل.

((نلاحظ هنا درسًا رابعًا في جواز قبول هدية وضيافة الكافر للمسلم عند الضرورة وجواز أكل طعامه))

سيطرت على عدّاس دهشة بالغة.لقد كان يعلم أن سكان مكة وما حولها مشركون يعبدون الأصنام، فمن أين لمحمد هذا—ذكر اسم الله تعالى على الطعام –قال عدّاس للنبي متعجّبًا:إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.سأله صلى الله عليه وسلم : (من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟) قال عدّاس:أنا نصراني من أهل نِينَوَى.قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى).زادت دهشة وعجب عدّاس فسأل النبي:وما يدريك ما يونس ابن متى؟ أجاب صلى الله عليه وسلم: (ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي).فأكبّ الغلام على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلها باكيًا.

((درس خامس للدُعاة:أنه صلى الله عليه وسلم استثمر حتى لحظات الاستراحة القصيرة، رغم الأوجاع والآلام والإصابات البالغة في جسده الشريف، في دعوة الغلام إلى الإسلام، كما نلاحظ))

قال ابن ربيعة لأخيه:أما غلامك فقد أفسده عليك.فلما جاء عدّاس صاحا به:ويحك ما هذا؟ أجاب:يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل.لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.قالا له بغيظ شديد:ويحك يا عدّاس، لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.. وهكذا أسلم عدّاس رضي الله عنه ((وتلك ثمرة سادسة من ثمرات الرحلة المباركة))

ونتعلّم من عدّاس بدوره درسًا بليغًا ((سابعًا)) هوأنه ينبغي قول الحق وإتباعه فورًا بلا اعتبار لرأى المجتمع أوحجم التضحيات أوالمخاطر التي قد يتعرّض لها، فانه لم يعبأ برأي سيده وأخيه واعتراضهما، وجهر بتأييد الحق والإيمان بالله وبالرسول، رغم ما قد يصيبه بسبب ذلك.

ولم يكن هووحده الذي أسلم بسبب تلك الرحلة، فقد أسلم عدد من عبيد الطائف، ولكنهم ظلّوا يكتمون إيمانهم – في رأى كاتب هذه السطور–إلى أن تمكنوا من الفرار من بطش سادتهم، ولحقوا بالمسلمين بعد ذلك، فأعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم.. ولولم يذهب الرسول في رحلته تلك إلى الطائف، فكيف كان هؤلاء سيجدون فرصة للعلم بالإسلام ثم الدخول فيه ؟! ((وهى الثمرة الثامنة))

وهذا هوالحال في كل الرسالات السماوية، إذ جرت سنّة الله تعالى على أن يكون أكثر من يتّبعون الحق هم الضعفاء والأرقاء، وأن يكون أعداء الرسل هم الطواغيت وزعماء القوم، الذين تُهدّد رسالة الإيمان والعدالة والمساواة مصالحهم وحياتهم المترفة الناعمة، وامتيازاتهم الظالمة على حساب باقي البشر.

ثم إن واجب الرسول – كل رسول- هوالدعوة والبلاغ فحسب، وأما النتائج–الهداية-فهي بيد الله وحده لا شريك له. ولوكان نجاح الدعوة يقاس بعدد الأتباع فحسب، لظنّ بعض السطحيين والجهلة أن نبيّا عظيمًا مثل سيدنا نوح عليه السلام قد أخفق أيضا –حاشا لله-لأنه عاش يدعوقومه إلى التوحيد ٩٥٠ سنة، ولم يؤمن معه إلا عدد قليل من الناس حملتهم سفينة واحدة.

وهناك الحديث المتفق عليه الذي أخبر فيه الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم أنه سيأتي يوم القيامة أكثر الأنبياء أتباعًا، وأن من الأنبياء من سوف يأتي ومعه الرجل الواحد، ومنهم من سيأتي ومعه الرجلان، ومنهم من سيأتي وليس معه أحد (نص الحديث في الصحيحين)

وكذلك نورد بعض حديث رواه الإمام مسلم وهوقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته إلا رجلٌ واحد) فهل يعيب نبيًا عظيمًا أنه لم يؤمن به أحد من قومه ؟! بل ماذا يمكن أن يقال – لوقبلنا هذا المنطق الأحمق – عن أنبياء عظماء قتلهم أقوامهم، وخاصة من قتلهم اليهود لعنهم الله ؟!! أتقولون عن الشهداء الأبرار أنهم قد فشلوا أم أنهم فازوا فوزًا عظيمًا يغبطهم عليه كل من سواهم ؟!

إن الرسل عليهم السلام جميعا قد أدّوا الأمانة وبلّغوا الرسالة على أتم وأكمل وجه، وليست الكثرة دليلًا على الحق أوالنجاح، فالنبي هوالحقّ، وهوالأمّة ولوكان وحده، ولم ولن يدخل في الإسلام إلا من شاء الله.

ومن ينشط للدعوة ويؤدى واجبه في إبلاغ الرسالة، فقد نجح تمامًا بغض النظر عن النتائج. وهناك آيات كثيرات حاسمات، تنص صراحة على أنه ليس على الرسول إلا البلاغ-أي التبليغ- أوالإبلاغ والإرشاد والإيضاح فحسب ومنها:

١. وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة المائدة: ٩٢]

٢. وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوشَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [سورة النحل: ٣٥].

٣. فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة النحل: ٨٢].

٤. قلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [سورة النور: ٥٤].

٥. وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [سورة العنكبوت: ١٨]

٦. ومَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ [سورة يس: ١٧].

والهداية بيد الله وحده لا شريك له :(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوأَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) سورة القصص الآية ٥٦ . وآية كريمة أخرى تقول صراحة :

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

*وعلى ضوء ما تقدّم نعلم يقينًا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنجز المقصود الأعظم، وهودعوة القوم إلى الله، ونجح كل النجاح في رحلته المباركة.

وفي طريق العودة إلى مكة-بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من البستان-بعث الله سيدنا جبريل، ومعه ملك الجبال إلي الرسول صلى الله عليه وسلم، يستأذنه في أن يُطبق الجبلين—يهدمهما-على رؤوس الكافرين، أي:أن يهلكهم جميعا.

روى البخاري عن عائشة زوج النبي- صلى الله عليه وسلم أنها قالت للنبي عليه السلام هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أُحُد ؟ فقال "لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت على وجهي، وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال:إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، فقال يا محمد ذلك لك، إن شئت أُطْبق عليهم الأخشبين..فأبى النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا:بل أرجوأن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا. "

وهكذا يطمئن الله تعالى نبيه، ويؤازره بجنود من الملائكة لا قبل للكافرين بهم، ولا طاقة لهم بحربهم.لكنه عليه الصلاة والسلام تأخذه الرحمة والشفقة بقومه، رغم كل ما فعلوه به وبأصحابه، ويأبى نزول العذاب بهم، ويؤثر أن يعطيهم الفرصة تلوالأخرى، لعلهم يهتدون أويخرج من أولادهم وأحفادهم من يعبد الله. ولا عجب فهوالذي أرسله ربه: ((رحمة للعالمين)) الأنبياء الآية ١٠٧. صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا

((وهنا نتعلّم الدرس التاسع في: الصبر والتأني وعدم تعجيل العقاب للكفّار لعلّهم يهتدون أوتهتدي ذرياتهم)) ونجد هنا أيضا (أحد الأدلة على نبوته عليه السلام، فقد تحقّق بالفعل ما أخبر به من إسلام أبناء المشركين فيما بعد، وهى الثمرة العاشرة من ثمار الرحلة)

بلغ عليه الصلاة والسلام"وادي نخلة"وأقام فيه أيامًا. وهناك كان على موعد مع نصر عظيم أخر.فقد بعث الله تعالى إليه نفرًا من الجنّ أمنوا به، وذكرهم الله سبحانه في موضعين من القرآن: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}..[سورة الأحقاف:٢٩- ٣١].

وقال تعالى فى موضع أخر: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}..سورة الجن: الآيتان الأولى والثانية.

وهكذا أسلم الجنّ ونصروا دين الله في وقت كان أكثر البشر فيه ضالون لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون!!

((وهى الثمرة الحادية عشرة للرحلة))

فكأن الله تعالى يثبّت فؤاد الحبيب بهذا الفتح بعدما حدث له في الطائف، ولسان الحال يقول:لئن خذلك البشر، فإن ربهم ورب كل شيء معك، يؤيدك بمن وبما يشاء من خلقه ..((وما يعلم جنود ربك إلا هو)) سورة المدثر الآية رقم ٣١.

وما حيلة البشر الضعفاء–من المشركين–في مواجهة قوى الملائكة والجِنّ الجبّارة ؟!

وأي إنجاز أونجاح أعظم من إسلام الجن وتأييد الملائكة ؟! هل هذا قليل ؟!

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل بشارات انتشار الدعوة المباركة، وتؤكد أن أية قوة في الكون لن تستطيع أن تحول بينها وبين الانتصار ولوبعد حين : {وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأحقاف:٣٢]، {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ ولَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن:١٢].

وكل عمل عظيم يحتاج إلى وقت ليُؤتى ثماره، والناس يختلفون في العقول والطباع والمشاعر والمصالح والأهداف، فلن يجتمعوا كلهم على عقائد أوأفكار واحدة، ولن يدخلوا كلهم في الإسلام بلمسة عصا سحرية في وقت واحد.

وكثيرون ممن هداهم الله إلى الإسلام على مرّ الزمان استغرقوا سنين عددًا في البحث والدراسة، حتى اقتنعوا بالحق وآمنوا به. والزارع الذي يضع البذور في التربة، بعد إصلاحها ثم يرويها، يكون قد أدى واجبه، ولا يقال عنه أنه قد"فشل"أما الإنبات ثم النموثم نضج الثمار فهوبيد الخالق وحده لا شريك له .

ونأتي الآن إلى عودته عليه السلام إلى مكة.فقد سأله زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟! يعني قريشًا، فقال صلى الله عليه وسلم بكل يقين : (يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه).

((وهذا هوالدرس الثاني عشر:لابد من اليقين المطلق والثقة التامة بموعود الله)) ومهما طال الليل فلابد من طلوع الفجر وسطوع الشمس.. وهنا أيضا تأكيد آخر ودليل من دلائل نبوته عليه السلام، حيث أخبر زيدًا بما جرى بعد ذلك بسنوات من الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وما جاء من الانتصار بعد الحصار((الثمرة رقم ١٣)).

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا من مكة مكث بحِرَاء، وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال:أنا حليف، والحليف لا يجير.فأرسل إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل:إن بني عامر لا تجير على بني كعب.فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم:نعم، ثم تسلّح ودعا بنيه وقومه، وأمرهم بحمل السلاح ومشاركته في حماية النبي، لأنه قد أجاره.ثم أرسل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:أن ادخل، فأقبل صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهي إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يتعرّض له أحد منكم. وانتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف، والمطعم بن عدى وولده حوله يحمونه حتى دخل بيته. وقيل إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع . مسلم-؟ قال:بل مجير.فقال الطاغية:قد أجرنا من أجرت. وقد حفظ الرسول صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسري بدر: (لوكان المطعم بن عدى حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)".انتهى . وهكذا يعطينا الرسول عليه الصلاة والسلام الدرس الرابع عشر وهو: ((جواز طلب الاستعانة بغير المسلم في حالات الضرورة))

ثم الدرس الخامس عشر وهو: ((وجوب رد الجميل ومكافأة من يُسدى إلينا معروفًا ولوكان كافرًا)). وشاء الله تعالى أن تأتي رحلة أخرى عظيمة- بعد رحلة الطائف-تكريمًا للحبيب وتشريفًا له، وتطييبًا لقلبه الشريف، وتثبيتًا له وللمؤمنين معه، وهى رحلة الإسراء والمعراج التي رفع الله فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى السماوات السبع، وأوحى إليه خلالها ما أوحى، وأراه من آيات ربه الكبرى. وهكذا تأتى "المنحة" بعد" المحنة".. ويأتي العطاء بعد الابتلاء . وهى الثمرة السادسة عشرة للرحلة الخالدة إلى الطائف .

٢٥ – الإسراء والمعراج

جاءت رحلة الإسراء بالحبيب المصطفى ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثُمّ المعراج، فى توقيت بالغ الأهمية، لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم، ولتأكيد منزلته العليا، ومكانته بين الأنبياء–صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين–وللإعلام بعموم الرسالة، وإظهار أهمية الصلاة، وغير ذلك من مقاصد وغايات لا يعلمها إلا الله. والصحيح أن الإسراء والمعراج إلى أعلى السماء السابعة قد تم بالروح والجسد معًا–يقظة لا منامًا–فهذا وحده ما يجعلها معجزة، وهوأيضًا ما يتناسب مع سياق الأحداث. ولوكان الأمر مُجَرّد رؤيا ما استنكرها المشركون، فإن البشر جميعًا يرون فى منامهم ما قد يستحيل تحقّقه فى اليقظة. والنصوص ظاهرة الوضوح فى أن الإسراء كان بالروح والجسد مَعًا، كقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [الإسراء:١] والشاهد هنا التعبير (بعبده) فالعبد روح وجسد معًا.كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم المشركين بقافلتين لهم، رآهما فى الطريق، ضَلّ من إحداهما بعير، وشرب ماءً كان فى إناء للقافلة الأخرى، وأكّد أصحاب القافلتين صدق ما قال، بعد العودة إلى مكة. وشرب الماء لا يكون إلّا فى اليقظة وليس أثناء النوم.. وخُلاصة ما جرى أن جبريل عليه السلام، جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلّم، فأركبه"البُرَاقْ"وهودابة متوسطة الحجم، تضع حافرها عند منتهى بَصَرِهَا–بإذن رَبّهَا–ووصل به إلى المسجد الأقصى المبارك، حيث صلى فيه إمامًا بجميع الأنبياء والرُسُلْ، إيذانًا بأن رسالته هى الخاتمة، وأن الإسلام العظيم هودين الجميع، وفى هذا حُجّة على أتباعهم المكَابِرين الضالّين، الذين يجحدون نبوة الأمين، عليه الصلاة والتسليم.ثم عَرَج صلى الله عليه وسلم، بصحبة الأمين جبريل إلى السماوات، ومَرّ بإخوته الأنبياء–كُلّ منهم فى سماء، حسبما شاء ربه–إلى أن وَصَلْ إلى سِدْرَة المُنْتَهَى. وهناك توقّفَ أمين السماء، وتَقَدّم أمين الأرض، حيث رأى النور الأعظم، وناجاه رَبّ العِزّة بما شاء، وفَرَضَ عليه وعلى أُمّتِه الصلاة من فوق سبع سماوات، تأكيدًا لمنزلتها بين الشرائع، ولا عَجَب، فهى (الصِلَة بين الرَبّ والعبد) وهل هناك ما هوأهم فى حياة الإنسان من علاقته بخالقه جَلّ فى عُلاه ؟!

وقد ثبت بالحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: (رأيت نُورًا)وفى حديث آخر رَدّ صلى الله عليه وسلم على سؤال عن رؤية رَبّه بقوله:"نُور أنّى أراه"رواه الإمام مسلم. ورُوى أيضًا عن ابن عباس رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى رَبّهُ بفؤاده، أى (بقلبه). والله تعالى أعلى وأعلم.

ولا سبيل أمامنا إلى إدراك تفاصيل ما جرى للحبيب فى الحضرة الإلهية، فهذا أمر تعجز عن بلوغه الأفهام، وتغرق في بحاره الأعلام، وتُقْصَف دون بيانه الأقلام.

ولا نملك هنا سوى التزام الأدب مع الله، والتَوَقّفْ، والإكتفاء بما حَكَاه القرآن الكريم:

((ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْأَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)) سورة النجم.

٢٦- الصِدّيق يُواجِه المشركين

فرح المشركون بواقعة الإسراء والمعراج، لأنها كانت -فى نظرهم-فرصة للطعن والتشكيك فى صدق النبى صلى الله عليه وسلم. وراحوا يتصايحون:انظروا إلى محمد، يزعم أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة واحدة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهراً ذهابًا ومثله إيابًا! وبالفعل ارتدّ بعض ضعاف الإيمان عن الإسلام. وثَبَت الراسخون أمثال الصِدّيق "أبوبكر"رضى الله عنه.فعندما جاءوا إليه وأخبروه بالأمر، صفعهم- رضى الله عنه-قائلًا:إن كان قالها فقد صَدَق.إنى لأُصَدّقُهُ فى الوحى يأتيه من السماء فى ساعة من ليل أونهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه. ومضى-رضى الله عنه-إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فسمع منه، ثم سأله أن يصفه له.فرَفَعَ الله المسجد الأقصى إليه، فوَصَفَه له، شبرًا شبرًا بكل دِقّة. وكان أبوبكر قد زاره من قَبْلْ، فهتف قائلًا :صدقت.أشهد أنك رسول الله.فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:وأنت الصِدّيقْ يا أبا بكر.فكانت أول تسميته "بالصِدّيق"فى ذلك اليوم. وعندما أبلغ أبوبكر الكُفّار بوصف النبى للمسجد اعترفوا قائلين:أَمّا الوصف فقد أصابه (يعنون أنه وَصَفَهُ بدقّة ولم يُخْطِىء فى شىء منه).ثم جاءهم صلى الله عليه وسلم بدليل آخر قاطع-كما أشرنا-هومروره على قافلة لقريش كانت عائدة من الشام، وشرب عليه السلام من إناء لهم، فوجدوه فارغًا فى الصباح، وضَلّ بعير لقافلة أخرى، فأرشدهم إلى مكانه، فوجدوه بالموضع الذى أخبرهم به، وحَدّد عليه السلام لأهل مكة مكان القافلتين بالضبط وموعد عودتهما إلى مكة، فجاءتا فى اليوم المحَدّد، وأخبر من فيهما المشركين بأمر الإناء الفارغ، والبعير الضَالّ الذى أرشدهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكانه. ورغم هذه الأدلة والبراهين أبى الظالمون إلا الكُفْر والإنكار والجحود!!

٢٧- شمس الإسلام تُشْرِقْ على يَثْرِبْ

لم يأت الإسلام لقريش وحدها، بل بُعِثَ صلى الله عليه وسلّم للناس كافّة. ولهذا كان صلى الله عليه وسلّم يدعوحُجّاج بيت الله الحرام إلى الإسلام. وخشي المشركون من انتشار الدين الجديد بين العرب، فكانوا يُحَذّرُون الحجيج من النبى صلى الله عليه وسلّم، ويتّهِمُونه بالسحر والجنون والكُفْرْ بالأصنام. وكان أقبحهم وأشدّهُم فى هذا"أبولهب"عم النبى، الذى كان يسير خلفه فى مِنَى وعُكَاظْ وغيرها، لتسفيه رأيه وتشويه دعوته، وتنفير الحجيج منه وشاء الله تعالى ألا يستجيب أحد من قبائل العرب للدعوة الغَرّاء-فى البداية-لأنه سبحانه قد اختص أهل"يثرب"بشرف احتضان الرسول والرسالة، فتأخر إسلام باقى القبائل، حتى استمع ستة من رجال المدينة إلى النبى فى أحد مواسم الحج وآمنوا به. وانطلق هؤلاء إلى بلدهم فأقنعوا آخرين من قومهم بالإسلام . وفى العام التالى جاء ١٢ رجلًا من سادات الأوس والخزرج، فبايعوه صلى الله عليه وسلم على التوحيد ومكارم الأخلاق وتَجَنّبْ رذائل الجاهلية، وغيرها من الأوامر والنواهى. وتلك هى"بيعة العقبة الأولى"وعلى إثرها بعث النبى، صلى الله عليه وسلم، معهم مصعب بن عُمِير، رضى الله عنه، أول سفراء الإسلام، ليُعَلّمَهُم القرآن الكريم، ويُصلّى بهم، ويُفَقّهَهُم فى دينهم. وخلال شهور قلائل، لم يبق من دور الأنصار بيت واحد لم تشرق عليه شمس الإسلام.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢٨- بيعة العقبة الثانية

قبيل الهجرة الشريفة بأسابيع تمت بيعة العقبة الكُبرى. وقد شارك فيها ٧٠من سادات يثرب وامرأتان. وكانت خُطْوَة ضَرورية وتمهيدًا لابد منه قبل الهجرة.جاءوا فى موسم الحَجّ، وتواعدوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على اللقاء ليلًا عند العَقَبَة بعد نَفْرَة الحَجِيجْ من عرفات. ولَمْ يحضر اللقاء مع النبى صلى الله عليه وسلم، سوى عَمّه العباس بن عبد المطلب، الذى لم يكن قد أعلن دخوله فى الإسلام (إلى ما قبل فتح مكة)وكان يُريد الإطمئنان على مصير ابن أخيه، وأخذ المواثيق على أهل يثرب بضمان سلامته وحمايته. وبدأ العباس الكلام بتنبيه الأنصار إلى ما هم مُقْبِلُون عليه من معاداة قريش والعرب، وأن ابن أخيه فى مَنَعَة من قومه فى بلده، يحميه مؤمنهم وكافرهم، فإن كانت لهم قدرة على حماية النبى فلا بأس، وإلا فليتركوه آمنًا فى رعاية أهله وعشيرته.ثم تَكَلّم الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الله، وتلا القرآن الكريم، وطلب من أهل يثرب حمايته حتى يُبْلّغَ رسالة ربه، ولهم على ذلك الجَنّة ورضوان الله. ورَدّ الأنصار بتأكيد أنهم أهل الحرب ورثوها كابرًا عن كابر، وتَعَهّدوا بحماية الرسول كما يحمون أولادهم وزوجاتهم وأمهاتهم.. وأجاب النبى على كافة تساؤلاتهم، ووَعَدَهم بوحدة المصير، فى جميع الأحوال-وحتى بعد أن ينصره الله-وعدم العودة إلى مكة، بل البقاء معهم إلى الممات. وهَبّ القوم يتسابقون إلى بيعته، مصافحة وصَفْقًا بالأيدى على عادة العرب. وطلب صلى الله عليه وسلم منهم اختيار ١٢ نقيبًا، ليضمنوا تنفيذ قبائلهم لإلتزامات البيعة ففعلوا. وهذه هى أول عملية (انتخاب حُرّ مُباشر) فى تاريخ العرب. ويرى الإمام السُهيلى (فى كتابه الروض الأُنُفْ) أن اختيار النُقَباء جاء إقتداءً بما فَعَلُه قوم موسى بأمره، إذ اختاروا أيضًا ١٢ نقيبًا منهم. وقد دفع الحماس أحد الأنصار إلى اقتراح أن يشنّوا هجومًا على الكُفّار بمنطقة"منى"ولكن الرسول صلى الله عليه وسلّم رفض تمامًا، وأخبر الجميع أن الله تعالى لم يأذن له بالقتال بعد. وهذه حكمة إلهية كُبرى، لأن هذه كانت مرحلة الدعوة إلى الحَق، ويُناسبها هنا البيان والنُصح بكُل رفق ولين وتسامح، مع الصبر واحتمال الأذى.ثم يأتى بعد ذلك الإذن بالقتال، دفاعًا عن النفس والدين والعرض والمال، بعد استنفاد كافة السُبُل السلمية. وبانعقاد البيعة الكُبرى، صار للإسلام حصن منيع-بحول الله وقوته-يعبد الناس فيه رَبّهُم، ويأمنون فيه على أرواحهم وأهلهم وأموالهم. وهى سُنَّة الله فى كُلّ أنبيائه ورُسُلِه، إذ لم يأت أحد منهم قومه برسالة التوحيد، إلا أخرجوه واضطهدوه وأتباعه، كما أنّها كرامة الله ونعمته على المدينة وأهلها فى ذات

الوقت. ومنذ تلك الليلة المشْهُودة اشتهر الأوس والخزرج بلقب"الأنصار" فهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه.

رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

٢٩- المؤامرة الكُبرى

سمعت قريش بنبأ البيعة، فَجُنّ جنونها، وازداد بطش طُغاتها بالمسْتَضْعَفِين من المسلمين. وأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالهجرة إلى"يثرب"حيث صار لهم هناك إخوة فى العقيدة، سيجدون عندهم الدعم والمأوى والنُصْرَة.فهاجر سادات السابقين، أبوسلمة بن عبد الأسد، وعبد الرحمن بن عوف وعامر بن ربيعة، ثم الفاروق عمر بن الخطاب وآخرون، ونزلوا على كرام العرب، الأوس والخزرج"الأنصار"الذين واسوهم بالأنفس والأموال، بنُبْلِ وسخاء الأبرار الأخيار. وأدرك المشركون خطورة السكوت على تأسيس مجتمع إسلامى قوى فى المدينة، فعقدوا إجتماعًا طارئًا فى دار الندوة. وانتهت المداولات بصدور قرار عاجل بتكليف ٤٠ رجلًا من جميع القبائل بقتل النبى صلى الله عليه وسلم، ليعجز بنوهاشم عن قتال هؤلاء جميعًا، فيستسلمون للأمر الواقع، ويقبلون الديَة. وظنّوا أنهم باغتيال الرسول سيتخلّصون من الدعوة الخالدة، ولَمْ يُدْرِكُوا أنه-لوقُدّر ذلك-ستشتعل جذوتها أكثر، وتنتشر بمُعَدّلات أسرع مما جرى فى حياته. وجاء الأمين جبريل عليه السلام، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤامرة، وأمره رَبُّه بعدم المبيت فى منزله، فكَلّف عليه الصلاة والسلام ابن عمّه عليًا بالمبيت فى فراشه وغَطّاه برداء له، ودعا له، فحفظه الله من شرور الكافرين. وكذلك بقى الفتى الهاشمى الشجاع بمكة، بعد الحبيب، ليؤدى-بدلًا منه-الأمانات التى كانت قريش تضعها عند الصادق الأمين إلى أهلها. وما عرف التاريخ قبل اليوم-أوبعده-قومًا يكرهون رجلًا منهم، ويسعون إلى سفك دمه، لكنهم لا يأمنون سواه على أغلى ما يملكون، ورغم تآمرهم على قتله، يحرص أشد الحرص، على رَدّ أموالهم إليهم، كاملة غير منقوصة.. والعجب هنا سيزول عند المؤمن وحده، لعلمه بمكارم أخلاق سيد البشر، الذى بَعَثَهُ رّبُهُ لإتمامها، ولن تجد أحدًا يَتَحَلَّى بمثلها، سوى محمد وإخوته الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى يوم يُبْعَثُون.

٣٠ – (إِذْ هُمَا فِي الْغَار)

حاصر المشركون دار النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة. ويروى ابن إسحاق وغيره، أنه عليه الصلاة والسلام خرج عليهم، وتناول حفنة من التراب فرماهم بها، قائلًا:شاهت الوجوه، فما بقى رجل منهم إلا أُصِيبَ وجهه ورأسه.. وتلا صلى الله عليه وسلم: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) سورة يس:٩.. فلم يره أحد منهم قط، وانصرف بسلام. وهناك من يزعمون أن هذه الرواية ضعيفة. والذين لا يُقِرّون بهذه المعجزة سيجدون أنفسهم فى مأزق، إذ سيكون لزامًا عليهم أن يجيبوا عن السؤال البديهى الذى يطرح ذاته هنا: كيف خرج صلى الله عليه وسلم من بينهم، وكيف اخترق حصارهم بدون أن يراه أحد منهم ؟

ووصل عليه الصلاة والسلام إلى دار أبى بكر، الذى بكى فرحًا عندما أخبره الحبيب بالإذن لهما بالهجرة إلى يثرب، وكان قد أعَدّ راحلتين لهذا الغرض منذ فترة. وتم تجهيز كافة لوازم الرحلة المُرْتَقَبَة. وأصَرّ النبى صلى الله عليه وسلم على دفع ثمن الراحلة التى سيركبها فى الرحلة إلى يثرب، رغم إلحاح الصِدّيق.. وأحسب أن الحبيب يُعَلّمناالتَعَفّف–بهذا التصرّف– وعدم استغلال كرم وشهامة الآخرين، إلّا فى حالة الضرورة القصوى–أى ضيق ذات اليد–ثم إن ثواب الهجرة إلى الله عظيم، وقد أراد عليه السلام أن ينال حَظّه منه كاملًا، بأن تكون تضحيته، بدوره، بالنفس والمال معًا..

ودخلت أسماء بنت أبى بكر التاريخ، حين قطعت نطاقها، وربطت بجزء منه فم الإناء الذى فيه الطعام، فَسُمّيت "ذات النطاقين" لهذا السبب.

واستأجر النبى صلى الله عليه وسلم دليلًا خبيرًا بدروب الصحراء، هوعبد الله بن أريقط، رغم أنه كان مُشْرِكًا. وهذا يفيد جواز الإستعانة بغير المسلم، إذا كان ماهرًا أمينًا، لا يُفْشِى أسرار المسلمين. ودخل النبى صلى الله عليه وسلم غار"ثور"مع أبى بكر، للإختباء فيه بضعة أيام، إلى أن يهدأ الطلب، وتتوقّف قريش عن مطاردتهما. وهنا أيضًا لا يُرِيد البعض التسليم بالرواية التى صَحّحَها الإمام ابن كثير، وأوردها الإمام أحمد بن حنبل، عن العنكبوت التى نسجت خيوطها على باب الغار، وعندما رآها فرسان قريش المطَارِدِين تراجعوا، لأنه لوكان محمد وصاحبه قد دخلا الغار لتمزّقَت خيوط العنكبوت، وقال أحدهم:والله إن هذا العنكبوت لأقدم من ميلاد محمد.

وينفون أيضًا رواية أخرى ذكرت أن حمامتين نسجتا عُشّا على باب الغار، وباضتا فيه.. وأحسب أن على هؤلاء جميعًا أن يجيبوا عن السؤال: كيف ولماذا تراجع المشركون-فجأة- من أمام باب الغار، رغم شدّة حرصهم على اعتقال الرسول وصاحبه ؟! وأكثر من هذا: ألا يرون أن صَرْفَ الكُفّار هكذا عن الغار، بدون سبب ظاهر، هومعجزة أقوى من مُعجزة صَرْفِهِم بسبب العنكبوت أوبيض الحمام ؟! أليس إبتعاد الأعداء بدون سبب أشدّ عَجَبًا وغرابة من العنكبوت والحمام ؟! ولقد حَبَسَ الكون أنفاسه فى تلك اللحظات بالغة الحرج. وكان الصِدّيق خائفًا مُشفِقًا، لا على نفسه، وإنما على مصير الدعوة، إن أصاب النبى مكروه.قال رضي الله عنه: (قلت للنّبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لوأنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)؟.. والثابت أن الله تعالى قد صَرَفَ الأعداء عن الغار الذى به رسوله ومُصْطَفَاه وصاحبه، وأنقذهما من بطشهم وكيدهم، وأيّدَهُ بجنود لم يرها أحد من البشر، كما جاء فى قوله سبحانه وتعالى:

(إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة التوبة: ٤٠

٣١- قصة سُرَاقَة بن مالك

حفظ الله الجَبّار القَهّار، رسوله وصاحبه فى الغار، كما حفظ أباه إبراهيم ونَجّاه من النار، وحفظ أخاه يونس، وأخرجه من بطن حوت بقاع البحر، وأخرج أخاه يوسف من الأسر إلى القصر، وحفظ إخوته المرسلين فى كُلّ عَصْرٍ ومصرْ. وكان مِمّنْ سَخَّرَ الله لرسوله خلال الرحلة، أعرابيًا طامعًا من بنى مُدْلِجْ هو"سُرَاقَة بن مالك".كان سُرَاقَة جالسًا مع قومه بالبادية، عندما جاء رجل، فأخبرهم بأنه رأى رَكْبًا يحسبه محمد بن عبد الله وصحبه، الذين رصدت قريش مُكَافَأة قدرها مائة ناقة لمِنْ يأتى بأحدهم، حيًّا أومَيّتًا. وسال لُعَاب سُرَاقة للمال الوفير، فَهَبْ مُنْكِرًا على الرجل ما رأى-لتضليل الآخرين-وأوهمه أنها قافلة أخرى رآها، وليس محمدًا ولا رفاقه. وسرعان ما انسحب بهدوء من المجلس، وامتطى فَرَسَه، ليُسَابِق الريح، نحوالنبى ومن معه. وفَرِح سُرَاقَة عندما اقترب من الرَّكْبْ، إذ يُوشِك حلمه على التَحَقّق، بالفوز بالإبل، وهى ثروة هائلة بمقاييس ذلك الزمان. وفجأة سَقَطَ الفرس على الأرض وسراقة معه !!

ورغم الَوَجَعْ الشديد، نهض بسرعة، وأوقف جواده، وامتطاه ثانية مُسْرِعًا ناحية النبى صلى الله عليه وسلم. وخلال دقائق تَكَرّرَت السَقْطَة بأشَدّ من الأُولى.شَعَرَ سُرَاقَة بالفزع، لكنه مازال فريسة للطمع.أنْهَضَ الفَرَس من جديد، وامتطاه أملًا فى بلوغهم هذه المرّة. ولكن الفَرَسَ سَقَطَ -للمَرّة الثالثة-وغاصت أرجله الأربع فى الرمال، فعجز عن القيام. ووَجَدَ سُرَاقَة نفسه عاجزًا تمامًا عن إعادة الكَرّة، وأيْقَن أن محمدًا رسول الله حَقًا، وأن الله يحميه منه ومن سائر الخلائق.فناداهم، مُتَوَسّلًا نادمًا على ما فَعَلْ. وعَرَض عليهم إمدادهم بالطعام والركائب، إثباتًا لحسن النية، وأسَفِه على تَعَقّبِهِم.لكنهم لم يقبلوا منه شيئًا، وطلبوا منه فقط إبعاد باقى المطَارِدِين عنهم ما استطاع. وطَلَب سُرَاقَة من النبى صلى الله عليه وسلم كتاب أمان، لينتفع به عندما يُظْهِرَه الله على المشْرِكِين، فأمر عليه الصلاة والسلام راعى الأغنام عامر بن فهيرة بكتابة عهد له، على قطعة من الأديم (الجِلْدْ) وأعطاه إياه. وقبل ابتعاده بَشّرَه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سيرتدى"سُوارى كسرى"ملك الفرس ذات يوم. وكاد عقل الأعرابى أن يذهب من فرط العجب والدهشة مما جرى له اليوم..فقد عاين معجزة مَنْعِهِ من القبض على النبى، وكاد أن يهلك وفرسه أثناء المحاولة عدة مرات. وها هوذا (الأَعْزَلْ المطَارَدْ) يُبَشّرُهُ بأنّه سوف يلبس ثياب وزينة ومجوهرات كسرى أقوى وأغنى ملوك الأرض ذات يوم!

ورغم ذهوله انصرف سُرَاقَة، ووَفّى بوعده للرسول، فنَجَحَ فى صَرْفْ باقى المشْرِكِين عن الطريق غير المألوف الذى سلَكَه النبى ومَنْ مَعَه، وكان هذا سبَبًا فى تَوَقّف المطاردة للقافلة المباركة، فلم يتعرّضْ لهم

أحد بعد سُرَاقَة، إلى أن وصلوا إلى المدينة، التى أضاءت بقدوم سيد البشر صلى الله عليه وسلم. وهكذا كان سُراقة أول النهار مُطَارِدًا، وانقلب فى آخره حارسًا! !

وبعد ٨ سنوات من ذلك اليوم، فتح الله على رسوله وأصحابه مكّة المكَرّمة. وجاءه سُرَاقَة بالعهد الذى كتبه له النبى أثناء هجرته، فقَرّبَه الأمين إليه، وأعْلَنَ أن"هذا يوم وفاء وبِرّ"وأمر أصحابه بإكرامه، وأسلم سُرَاقَة بين يديه لله رب العالمين. ولم يكن هذا آخر ما جرى لسُرَاقَة..ففى عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتح المسلمون بلاد فارس، وغنموا كنوز ملكها"كسرى أنوشروان". وأرسلوها إلى الفاروق بالمدينة، لتوزيعها كما أمر الله تعالى. ورأى الفاروق"سوارى كسرى"فتَذَكّرَ بُشرى النبى لسُرَاقَة بن مالك، فاستدعاه، وألبسه السوارين، بالضبط كما أخبر الصادق الأمين عليه صلاة وسلام رب العالمين.. وهتف الفاروق، رضى الله عنه، مُحَدِّثًا بنعمة الله على المسلمين، ومُذَكّرًا إياهم بأحد براهين النبوة: الله أكبر..الحمد الذى سلبهما كسرى وألبسهما أعرابيًا من بنى مُدْلِج "سُرَاقَة بن مالك بن جَعْشَمْ "!

٣٢ – ((أُم معبد))

أُم معبد الخُزاعية[١] سيدة بدوية كانت تسكن فى خيمة على الطريق بين مكة ويثرب. وشاء الله تعالى أن تدخل هذه السيدة التاريخ الإسلامى، من أوسع الأبواب، بسبب كرمها ومروءتها.فقد اعتادت رضى الله عنها أن تُطعم وتسقى المسافرين الفقراء، وأبناء السبيل المحتاجين، بغير مُقابل. ومَرّ بخيمتها النبى صلى الله عليه وسلم، وصاحبه الصدّيق، ومولاه عامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أُريقط، فى طريقهم إلى يثرب. وسألوها أن تبيع لهم بعض التمر واللحم، فاعتذرت عن عدم تلبية مطلبهم، فقد كانت سنة قاسية جدباء–بلا مطر–ولولا هذا لأعطتهم الطعام بلا مُقابل. ورأى عليه السلام شاة هزيلة ترقد فى جانب الخيمة، وسألها عنها، فأخبرته بأنها شاة مريضة صغيرة لم تلد من قبل، ولهذا يستحيل أن يكون بها لبن.فطلب منها صلى الله عليه وسلم الإذن بحلبها، فدهشت المرأة، لكنها أرادت أن تترك له الفرصة ليتأكّد بنفسه من صدقها واستحالة وجود لبن بها، فقالت له: بأبى أنت وأُمّى، إن رأيت بها حَلْبًا فاحلبها.. وأمسك النبى صلى الله عليه وسلم بضرع الشاة الهزيل الجاف، ودعا رَبّه.. وخلال ثوان معدودات انتفخ الضرع، وبدأ اللبن يتقاطر منه وسط ذهول أم معبد، التى أحضرت إناءً كبيرًا، سرعان ما امتلأ باللبن، وأمرها النبى صلى الله عليه وسلم، فشربت حتى ارتوت، وملأ لأصحابه، فشربوا جميعًا حتى ارتووا، وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم، ثم أعاد ملء الإناء عن آخره، وتركه لأُم معبد، وانصرفوا. وما لبث زوجها أن جاء، وذُهل بدوره، حين رأى اللبن الغزير، وحكت له أم معبد المعجزة التى وقعت أمامها، ووصفت له النبى صلى الله عليه وسلم بدقّة بالغة. وما أن انتهت حتى أخبرها زوجها أن هذا هوالنبى الذى ظهر فى قريش، واضطر وأصحابه إلى الهجرة من مكة إلى يثرب، فرارًا بدينهم. وسرعان ما لحق"أبومعبد"وزوجته بالرسول صلى الله عليه وسلم، فى يثرب، وأسلما معه لله رب العالمين. وفُوجىء أهل مكّة ذات ليلة بشاعر مجهول يُنشد :

جزى الله رب الناس خير جزائه & رفيقين قالا خيمة أُم معبد

هما نزلا بالهُدَى واهتدت به & قد فاز من أمسى رفيق محمد

---

[١] قصة أُم معبد رواها الإمام الحاكم في المستدرك، وصَحّحَهَا الإمام الذهبي في التلخيص، ورواها الإمام الطبراني في الجامع الكبير، واعتمدها وحَسّنَ إسنادها الإمام ابن كثير، رضى الله عن الجميع.. ويستحيل تجاهل ما رواه هؤلاء الفحول، نزولًا على كلام بعض المعاصرين، الذين لا يبلغون معشار أحدهم فى العلم !

القسم الثانى

العهد المدنى

٣٣- بناء المسجد النبوى

بوصول الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة بدأ عهد جديد مشهود فى تاريخ الإسلام. وصارت"يثرب"عاصمة للدولة الناشئة، ولجأ إليها كُل مُضْطَهَدٍ مُحَارَبٍ فى دينه من شتى أنحاء الجزيرة. وقد أحسن الفاروق عمر وأصحابه، رضوان الله عليهم أجمعين، حين اختاروا بدء التقويم الإسلامى بيوم الهجرة الشريفة، ففيه تأسّسَت دولة الإسلام.. ومكث صلى الله عليه وسلم أيامًا فى"قباء"إحدى ضواحى يثرب، حيث أسّسَ المسجد المعروف هناك، وصلى بالناس فيه الجُمْعَة لأول مَرّة فى تاريخ الإسلام، إذ منعه اضطهاد المشركين فى مكة من إقامة الشعائر.ثم انتقل صلى الله عليه وسلم بعدها إلى قلب المدينة. وكان من قدر الله وتوفيقه لرسوله أن جَعَلَ تحديد مكان إقامته وبناء المسجد النبوى الشريف بالوحى، وليس باختيار النبى. وجاء هذا تطييبًا لقلوب كافّة القبائل والبطون، حتى لا يحزن أحد منهم، لوفَضّل الرسول غيره عليه. وكانت العلامة هى تَوَقّفْ ناقة المصطفى، فكان يدعوبخير لكل الذين عرضوا استضافته، ويقول لهم: (خَلّوا سبيلها فإنها مأمورة) وبالفعل وَقَفَتْ الناقة فى مكان واسع لتجفيف التمر"يمتلكه يتيمان من بنى النجّار-أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبى عليه السلام-إيذانًا بأن هذا هوالموقع المحَدّدْ لبناء المسجد.. وهذا الاهتمام البالغ بأمر المسجد (حتى قبل دخول النبى أيًّا من المساكن) لأنه بيت الله فى الأرض، وهومكان الصلاة والذكر والإعتكاف والتلاوة وتلَقّى العلم، ومركز الحُكْمْ والإدارة، واستقبال الوفود، ونقطة انطلاق البعوث والسرايا، فضلًا عن الإجتماعات العامة، ومبيت أبناء السبيل والفقراء والمساكين الذين لا مأوى لهم.....الخ. وحَمَلَ أبوأيوب "خالد بن زيد"رضى الله عنه رَحْلَ-متاع- النبى إلى داره، ليُقيم صلى الله عليه وسلم عنده بضعة أشهر، إلى أن تم بناء المسجد ثم حُجُرات أزواجه –واحدة تلوالأخرى-بجواره، فانتقل إليها. وقد رفض صلى الله عليه وسلم تبرع اليتيمين بأرض المسجد، واشتراها منهما بعشرة دنانير، وشارك صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى بناء المسجد البسيط، المكَوّن من الأحجار والطوب اللبن"مصنوع من طين لم يدخل النار"وأقاموه على أعمدة من جذوع النخل، وكان سقفه من جريد النخل فقط. وبذات المواد البسيطة جدًا بنى صلى الله عليه وسلم حجرات زوجاته إلى جوار المسجد. وبذلك لَقّنَ الجميع درسًا عمليًا فى الزُهْد والبساطة والتواضع، وعدم الركون إلى الدنيا وحُطَامَهَا الفانى.(ومَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).سورة الشورى:٣٦

٣٤- المُؤَاخَاة بين المُهَاجِرِين والأنصار

كانت المؤَاخَاة بين المهَاجرِين والأنصار من أهم أُسُسْ بناء المجْتَمَعْ الجديد، التى حَرَصَ عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بمُجَرّد وصوله إلى المدينة المنَوّرَة.فالتكافل الإجتماعى، والتراحم، والترابط بين إخوة العقيدة ينبغى أن يعلوعلى أية روابط أخرى دنيوية. وقد تَرَكَ المؤمنون الذين خَرَجَوا من ديارهم، فى سبيل الله، كُل شىء، وكانوا بحاجة ماسّة إلى حاضنة أُخرى رحيمة، تُعَوّضُهُم مّا فقدوا من بيوت وأهل وأموال، وتُؤْنِسُ وحشتهم، وتُخَفّفْ عنهم فى غُرْبَتِهِم. ويشهد الله أن كِرَامَ الأنصار، قد قاموا بهذا كله، على أروع وأعظم ما يكِونْ، حتى وَصَلَ بهم الأمر إلى درجة أن عَرَضُوا على النبى صلى الله عليه وسلم التنازل عن نصف ثرواتهم من بساتين النخيل لإخوانهم المهَاجِرِين، رضى الله عن الجميع. ورَفَض عليه الصلاة والسلام، وأخبرهُمْ أنه يكفيهم مُشاركة إخوتهم وضيوفهم فى الثمار دون الملكية. وكانت هناك نماذج فريدة للكرم والإيثار خَلّدَهَا التاريخ الإسلامى للأوس والخزرج..فهذا سعد بن عبادة، رضى الله عنه، أحد السادات، لم ينقطع يومًا واحدًا عن إعداد الطعام وإرساله كل مساء إلى مقر إقامة النبى صلى الله عليه وسلم بدار"أبى أيوب"ليطعم المصطفى ومعه عشرات من فقراء المسلمين. وكان أبوأيوب نفسه-رضى الله عنه- يُؤْثِر النبى وأصحابه بالطعام على أولاده. وكذلك كان الصغير"أنس بن مالك"يحمل الطعام الذى أمرته أُمّه الصحابية الجليلة بنقله إلى النبى ومَنْ مَعه.. وبَلَغَ الصحابى الجليل الأنصارى سعد بن الربيع ذروة الكرم والنُبْل، التى لَمْ يبلغها أحد من الناس قبله-عدا الأنبياء-إذ عَرَضَ على أخيه المهَاجِرْ أن يُقَاسِمَهُ ماله-مُنَاصَفَة-وهذه عَرَضَهَا أيضاً كثيرون غيره.لكن سعدًا انفرد من بينهم جميعًا بأن طَلَبَ من أخيه المهَاجِرْ أن يختار التى تُعجبه من زوجتيه، ليُطَلّقها سعد، ثم يَتَزَوّجها أخوه-عبد الرحمن بن عوف-بعد إنقضاء عِدّتِهَا! والرجل قد يجود بماله، لكن النفس-عادةً-لا تُطِيقُ التنازل عن الزوجة بأى حال، مهما بَلَغَت من الكرم والإيثار. ولم ينتهز عبد الرحمن بن عوف الفرصة، ولم يستغل نُبْلَ أخيه الأنصارى، فرفض بتَعَفّفْ، وقال له: بارك الله لك فى أهلك ومالك.دلّنى على السوق. وكان عبد الرحمن تاجرًا ماهرًا، دعا له النبى صلى الله عليه وسلم بالبركة، فكان يربح فى تجارته أضعاف ما يربح غيره، وكان يقول:لوقَلَبْتُ حجرًا لظننت أنّى أجد تحته مالًا.. وخلال أيام تاجر فى

سوق المدينة وربح، فاتخذ بيتًا مُسْتَقِلاً، وتَزَوّج من بنات الأنصار، رضى الله عن الجميع. وعلى أكتاف هذه النماذج الرفيعة التى تقتدى بالسُنّة، وتتحلّى بقيم النُبُوّة، وتسمومبكارم الأخلاق، قامت دولة الإسلام. وقد أثنى الله تعالى علي الأنصار بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ولَوكَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) سورة الحشر:٩. وأثنى على الفريقين معًا بقوله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) سورة التوبة:١٠٠. وبعد سنوات استقر خلالها المجتمع الجديد، وكَوّن المهاجرون أُسَرًا، واكتسبوا أموالًا، لم تعد هناك حاجة إلى"نظام المؤاخاة"بمعناه الحرفى، الذى كان يشمل التوارث، فأمر الله تعالى بإعادة الأمر إلى طبيعته: (وَأُولُوالْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِين).الأحزاب:٦. والآية تُفيد نسخ حكم الإرث بالتآخي في أول الإسلام. ولئن نُسخ التوارث، فلم ولن تُنسخ رابطة الأخوة"المعنوية"فى الله بين الجميع، وهى أسمى وأبقى.

٣٥ – دستور المدينة

مع بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كانت الخطوة الضرورية الثالثة هى وضع نظام أساسى للمجتمع الجديد، يكفل التعايش السلمى بين كل طوائف المدينة، ويحكم وينظّم العلاقات فى الدولة الوليدة. وهناك إجماع بين علماء الدساتير والنظم السياسية والمؤرّخين المنصفين على أن"وثيقة المدينة"هى أول نص مكتوب لدستور شامل لدولة مُتَطَوّرَة، يصل إلينا كاملًا، كما وضعه النبى صلى الله عليه وسلم، بالاتفاق مع المهاجرين والأنصار، ومشركى المدينة، وقبائل اليهود الثلاث—بنوالنضير وبنوقينقاع وبنوقريظة–ومن تحالف معهم. وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم–وإن كان هوالدستور الأعظم–إلا أنه يتضمن المبادىء العامة والقواعد الكلية، تاركًا التفاصيل لأهل كل زمان ومكان، فى إطار تلك المبادىء والقواعد. وهوأقرب ما يكون إلى مفهوم "النظام العام"للمجتمع. وهذا النظام العام للدولة الإسلامية لا يجوز الاتفاق على ما يخالفه، ويقع باطلًا بطلانًا مطلقًا كل نص أواتفاق على الخروج على أحكامه. وعلى هذا فلابد للناس من وثيقة مكتوبة تنص بالتفصيل على حقوق والتزامات جميع الأطراف، وتنظيم العلاقات بينهم، على نحويحسم أية خلافات، ويضع حلولًا لما قد ينشب بينهم من منازعات. وهناك سبب آخر وجيه لوضع دستور مكتوب لدولة المدينة، هوأنها كانت تضم أطرافًا أخرى لا تؤمن بالقرآن الكريم، وهم اليهود ومن لم يكن قد أسلم بعد من الأوس والخزرج، فليس من الحكمة ولا من فقه الواقع إخضاعهم مُباشرة لحكم كتاب سماوى لم يُؤمنوا به بعد، فيقع التنازع فى الدولة الإسلامية الناشئة مُبَكّرًا، وإنما المقبول أن يتم وضع دستور ونص مكتوب يرتضونه جميعًا، شريطة أن يأتى موافقًا لما فى كتاب الله من مبادىء وتشريعات، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ومن مُفَكّرى الغرب الذين بهرتهم هذه الوثيقة الدستورية الخالدة، المستشرق الروماني"كونستانس جورجيو، الذى وضع كتابًا كاملًا عن النبى صلى الله عليه وسلم، استعرض فيه مناقب الإسلام..يقول "جورجيو"عن دستور المدينة أوكتاب النبى صلى الله عليه وسلم المَنَظّم للعلاقات فى دولة الإسلام:"حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندًا.خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، لاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُوّن هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، وأن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. ووضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أى عام ٦٢٣م. ونَصّ على أنه في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو، فعليهم أن يَتّحِدُوا

لمجابهته وطرده"انتهى.. وجاء بالموسوعة العالمية الحُرّة-ويكيبيديا- أن دستور المدينة:"يعتبر أول دستور مدني في التاريخ". وقد أطنب فى ذكره المؤرخون، وعلماء الدساتير وغيرهم، واعتبروه مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي والإنساني. وبإبرام هذا الدستور—وإقرار جميع الفصائل بما فيه-تكوّنت بموجبه دولة وِفَاقية، رئيسها الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وصارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية، وكفلت جميع الحقوق الإنسانية، مثل حرية الاعتقاد وممُارسة الشعائر، والمساواة والعدل. وهكذا نرى أن صحيفة أووثيقة المدينة هى-كما لاحظ المنصفون—دستور سبق كل دساتير العالم المكتوبة بأربعة عشر قرنًا من الزمان، فهى نقلة حضارية كبرى للبشرية. وقد تضمن لأول مرّة فى التاريخ حقوقًا وواجبات متساوية لرعايا الدولة، أوما نسميه بلغة عصرنا:"حقوق المواطنة"بصرف النظر عن ديانة كل منهم أوانتمائه العرقى أوالقبلى . وفى رأى كاتب هذه السطور المتواضع أنه يتعيّن على الباحث المحايد تحليل وقراءة دستور المدينة على ضوء ما كان سائدًا فى كل أنحاء العالم وقت كتابته، وحينئذ تتجلّى أمامه جوانب السبق الفريد، والعظمة، والإعجاز فى نصوص هذا الدستور النبوى الشريف، وكما قيل بحق: "وبضدّها تتميز الأشياء".فلم تكن قبائل العرب المتناحرة المتصارعة فى الجاهلية تخضع لأى دستور أوقانون مكتوب أوغير مكتوب، سوى التقاليد والأعراف السائدة فى كل قبيلة أومنطقة، بل لم يكن لهم نظام سياسى أوحكومة واحدة لها سلطة من أى نوع. ولم يكن للفرس دستور سوى رغبات وشهوات وأوامر وقرارات كسرى التى لا تُناقش ولا تُرد، وذات الحال عند الرومان الذين كان يستعبدهم قيصرهم، وما كان أحدهم يتجرأ أوحتى يفكّر فى مطالبته بنصوص دستورية تضمن حقوقًا للرعية من أى نوع كان. وذات الأمر كان هوالسائد تحت حكم الفراعنة، ثم من تلاهم فى مصر، وملوك الصين والهند وقبائل القارة السمراء أفريقيا بلا إستثناء. وسط كل هذه الظلمات التى كانت تغطى العالم فى تلك الفترة، جاء الإسلام بوثيقة مكتوبة تحدد بوضوح حقوق المواطنة وواجباتها، وطريقة حسم المنازعات بين طوائف مواطنى دولة المدينة، والتزام الجميع بالحفاظ على كيان الدولة والدفاع عنها ضد أعدائها ومن يفكر فى غزوها أوالكيد لها، وتفاصيل حماية الأفراد من الظلم، والتعويضات عن أية تجاوزات تقع ضد أى فرد أوجماعة، وكيفية محاسبة الظالمين وعقابهم على أية انتهاكات لنصوص الدستور أوحقوق المواطنين. وتُقَرّر أيضا التكافل الاجتماعى بين مواطنى المدينة فى أروع صوره. وعن هذا الدستور يقول الأستاذ الدكتور محمد عمارة: "لوأن باحثًا في الفقه الدستوري بحث عن أقدم دستور بقي لنا بنص مواده في الدساتير الإنسانية، فإن هذا الباحث لن يجد دستورًا

سابقًا علي دستور دولة النبوة التي قامت بالمدينة المنورة سنة ٦٢٢م..قد يجد قوانين ترجع إلي عهد حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق .م) ولكنها كانت ناقصة وغير واضحة- لكنه لن يجد دستورًا كاملًا أقدم ولا أعظم من دستور دولة المدينة التي رأسها نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام.

٣٦ – أهداف السرايا

قبل الحديث عن الغزوات والسرايا هناك إيضاح ضرورى.فالكثيرون يغفلون عن حقيقة هامة هى أن المشْرِكِين قد استولوا على أموال وبيوت مَنْ هاجر من المسلمين المسْتَضْعَفين إلى يثرب. ولم تكن هناك محاكم فى بلاد العرب، ليلجأ إليها هؤلاء الذين أُجْبِرُوا على الرحيل، فرارًا من الطُغَاة. وكان حلف الفضول الذى يَتَصَدّى للظالمين، قد اندثر بموت مُعْظَم أعضائه. ومِنْ هنا نُدْرِكْ أنه لم تكن هناك وسيلة لاسترداد الأموال المنهوبة، سوى التصَدّى لقوافل قريش التجارية على الطريق من مكة إلى الشام. وليس من العدل، ولا من المنطق، أن نُطَالب المظلوم بترك ظالمه، ليُنْفِقْ المال المنهوب، فضلًا عن إستثماره، بينما لا يكاد أصحابه الشَرْعِيُّون يجدون الطعام لهم ولأطفالهم. ولهذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عدة سرايا بالخروج لاعتراض بعض قوافل الغاصبين، ومحاولة إسترداد ما يُمْكِن إسترداده من أموالهم المسلوبة. ولم يكن الهدف قتالًا فى هذه الأحوال، إلا إذا اعتدى عليهم الطرف الآخر. وكان الهدف من سرايا أُخْرَى هوتأمين حدود الدولة الناشئة مِنْ هجمات طوائف اعتادت الإغارة على المراعى، إذ لا مَفَرّ مِنْ ردع هؤلاء. وإذا كان الردع دفاعيًا فى مُعْظَم الحالات، ففى حالات أُخْرَى كان لابُدّ مِنْ توجيه ضربات استباقية إجهاضية، لتفريق حشود المغِيرِين قبل تحرّكِهَا لمُدَاهَمَة المدينة على حين غِرّة. وكان النوع الثالث من السرايا–مجموعات صغيرة يقودها

أحد الصحابة وليس النبى–بهدف جمع المعلومات، أى أنها كانت بلُغَة عصرنا (دوريات إستطلاعية)لا تستهدف الإشتباك مع العدو، إلا للضرورة القُصْوَى، إذا بادرها الآخر بالعدوان عليها. وحق الدفاع عن النفس والأهل والمال تكفله كُلّ الشرائع والقوانين والأعراف منذ فجر الإنسانية، بلا إنكارِ أوجِدَالِ مِنْ أحد.

٣٧- والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْل

لم يحدث قتال فى مُعْظَم السرايا التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم حول المدينة، بإستثناء سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه. وهى الواقعة التى حاول خصوم الإسلام إستغلالها للتشكيك فيه، والنيل منه.. وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل التام.ففى هذه السرية بالذات كانت هناك تعليمات"مكتوبة"من النبى صلى الله عليه، سلمها لأميرها ومن معه –كانوا ثمانية فقط من المهاجرين–رضى الله عنهم. وأمره صلى الله عليه وسلم بعدم فتح الكتاب وقراءة ما فيه إلا بعد مسيرة يومين، وألا يُجْبِرَ أحدًا ممن معه على الإستمرار فى الرحلة، إن أراد العودة. وفتح عبد الله بن جحش الكتاب وقرأ ما فيه على أصحابه. وكان أمرًا شريفًا بالمضى إلى منطقة بين مكة والطائف (لاستطلاع أخبار قريش).. وأطاع الثمانية الأمر النبوى، ومضوا فى طريقهم حتى بلغوا منطقة"نَخْلَة"خارج حُدُود الحَرَمْ، فصادفوا إبلًا لقريش معها عمروبن الحضرمى، ووقع اشتباك بين الجانبين قُتِلَ فيه ابن الحضرمى، وأُسِرَ اثنان آخران من المشركين. وقد أثارت قريش ضجة فى سائر أنحاء الجزيرة، زاعمين أن أصحاب محمد سفكوا دمًا فى أحد الأشهر الحُرُم. والحقيقة هى أن القتال كان فى اليوم الأخير من شهر رجب، وظَنّ الصحابة أنه أول أيام شهر شعبان، وهوليس من الأشهر الحُرُم.ثم إن من يريد الهجوم يبعث جيشًا كبيرًا، وليس ٨ من الرجال فقط، فى مواجهة ألوف من المشركين فى مكة.. ونص الأوامر المكتوبة كان هو(رصد قريش والتَعَرّفْ على أخبارها) بلا زيادة أونُقْصَان.. والدليل القاطع على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قد غضب، حين عادت السرية بالأسيرين والغنائم، وأخبروه بما جرى، وقال صلى الله عليه وسلم بوضوح : (ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام) ورفض التَصَرّف فى الإبل، وصَمّم على إطلاق سراح الأسيرين، ودفع فدية ابن الحضرمى"القتيل"للمشركين. ومِمّا سبق يَتَبَيّنْ أن الأمر لا يعدوكونه (اجتهادًا خاطئًا من قائد السرية) بالمخَالَفَة للتعليمات النبوية.. وجاء حل المشكلة من السماء بوحى كريم نَزَل به جبريل الأمين، مُوَضِّحَاً أن القتال فى الشهر الحرام خطأ كبير، ولكن إخراج المسلمين من بيوتهم بمكة، واضطهادهم وإكراه بعضهم على ترك دينه جريمة أكبر وأشد بشاعة.قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ ومَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَكَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) سورة البقرة :٢١٧ .. وفور نزول الآية الكريمة قام صلى الله عليه وسلم باستلام الأسيرين وتوزيع الغنائم، ولم يدفع للمُشْرِكِين فدية لا يستحقونها.

٨٣- الطريق إلى بدر

فى شهر رمضان مِنَ السنة الثانية بعد الهجرة الشريفة علم الرسول صلى الله عليه وسلم بورود أكبر قوافل قريش التجارية، قادمًة من الشام، وكان يقودها أبوسفيان بن حرب أحد كبار زعماء المشركين..كان لكل طُغَاة مكة أموال فى القافلة، ولا شك أن سقوطها بيد المسلمين يُعْتَبَر ضربة اقتصادية ساحقة لأعداء الله ورسوله. وعلى الفور دعا صلى الله عليه وسلم مَنْ كان جاهزًا من أصحابه للخروج واعتراض طريق القافلة. ويُرَجّح الإمام ابن كثير رضى الله عنه أن عدد الذين خرجوا من الصحابة إلى"بدر"كان ٣١٣ رجلًا. ويرى ابن اسحاق، وغيره، أنهم بهذا كانوا ذات عدد أصحاب"طالوت"الذين هزموا جيش الطاغية"جالوت"فى زمن النبى"داود"على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وعلى الجانب الآخر تَحَسّسْ أبوسفيان الأخبار قرب أحد الآبار، فعلم بورود رجلين إلى موضع الماء قبله بقليل، ومن دهائه-كما يروى ابن إسحاق-أنه تَفَقّد مُخَلّفَات بعيرى الرجلين، وفَتّت (البَعْرْ) فوجد فيه آثار (نوى التمر) فصاح:هذه والله علائف (أعلاف) يثرب. ومن هذا أدرك أنهما سرية استطلاعية للمسلمين، ورَجّح أن النبى صلى الله عليه وسلم يُخَطّط لاعتراض القافلة. وسرعان ما أرسل أبوسفيان رجلًا خفيف الحركة إلى قريش، ليحذّرهم من ضياع أموالهم، ويطالبهم بالتحرّك بأقصى سرعة لنجدة القافلة.. وفى ذات الوقت اتخذ أبوسفيان طريقًا آخر إلى مكة، قرب ساحل البحر الأحمر، مبتعدًا عن طريق المدينة، لتفادى الخطر. وكانت ذريعة التعرّض للقافلة فرصة سانحة للحقود"أبوجهل"لإثارة القبائل ضد النبى صلى الله عليه وسلم ومَنْ مَعَه. وراح يحشد، ويتفقّد كُل مَنْ يخشى تَخَلّفَهم، فينهاهم ويُثير حماستهم بأساليب مختلفة.. وهكذا خرج من مكة ألف مُقاتل، طبقاً لبعض الرواة، أو ٩٥٠ حسب مصادر أخرى، ومعهم ستمائة درع، و٦٠ فرسًا، ومئات الإبل. ورغم أن "أبا سفيان"قد نجح فى الإفلات بالقافلة، والابتعاد تمامًا عن المدينة، وأرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع بعد زوال الخطر، إلا أن"أبا جهل"اللعين رفض العودة إلى مكة، رفضًا قاطعًا، وصاح مُؤَكّدًا المضى فى الطريق إلى حدود يثرب، حتى عين ماء"بدر". وبنص كلام "أبى جهل" فالهدف هوأن يُقِيمُ المشركون هناك ثلاثة أيام، فينحرون الذبائح، ويُقيمون الإحتفالات، وتُطْرِبُهُم المغنّيَات، ويشربون الخمر، ويسمع بهم الأعراب، فيرهبونهم أبد الدهر! وهكذا فإن الأمر لم يعد هجومًا على قافلة-نجت بالفعل-وإنما هوالبغى والغطرسة واستعراض العضلات فى المنطقة! وهناك من تصريحاتهم ما يقطع بأن نِيّة القتال كانت مُبَيّتَة عند"أبى جهل"وغيره من طواغيت المشركين.. ولئن كان القتال دفاعًا عن

العقيدة والنفس والعرض والمال أمرًا قد أذن الله به فى العهد المدنى-بعد أن كان محظورًا على المسلمين قبل الهجرة-إلا أن الواقع كذلك أنه ما مِنْ أحد مِنْ العرب-مؤمنًا كان أم كافرًا-يقبل الاستسلام للمَذَلّة والهوان، ما دام فيه عرق ينبض.. وبالإضافة إلى أن القتال ضد البغى والشرك صار مشروعًا، فإن مَنْ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام، مِنَ أهل المدينة، فى ذلك الوقت، رفضوا-بدورهم- هذا التحدى والاستفزاز من قريش، وكانوا مستعدّين للتصدّى له بالنفس والنفيس، مهما بلغت التضحيات.لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر الجميع أن هذه المعركة الفارقة لن ينال شرف خوضها إلّا مَنْ كان على دين الإسلام.

٣٩ – مجلس شورى بَدْر

عندما بَلَغَ الرسول صلى الله عليه وسلم خبر خروج جيش المشركين من مكة فى إتجاه المدينة، جمع أصحابه للتشاور، فى مظهر حضارى رائع، غير مسبوق.افتتح صلى الله عليه وسلم الجلسة –كما يروي ابن إسحاق وغيره– بمقولته الشهيرة: (أشيروا عليّ أيها الناس) فقام أبوبكر رضى الله عنه، فأعلن الدعم المطْلَق للنبى صلى الله عليه وسلم والإمتثال لأوامر الله ورسوله، والإستعداد التام للجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والولد. وقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال كلامًا مُمَاثلًا.ثم تَحَدّثَ المقداد بن عمرورضى الله عنه–الثلاثة من المهاجرين–وفى رواية الإمام البخارى أن المقداد بن الأسود قال للنبى:"لا نقول كما قال قوم موسى له:اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، ولكن نُقَاتِلْ عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك". وروى الإمام أحمد مقولة لصحابى آخر:"والذى بعثك بالحق لوضربت أكبادها–الإبل والخيل–إلى برك الغماد–مكان بعيد–لاتبعناك".فأثنى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا لهم بخير..لكن هذا لم يكن كافيًا..إذ لابد من سماع رأى الأنصار، فهم الأكثرية، كما أن بيعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم–العقد بينهم–على نُصْرَتِه إذا وصل إليهم فى مدينتهم، وربما يظن بعضهم أن واجبهم يقتصر فقط على الدفاع عنه داخل حدود المدينة، وليس خارجها. ولهذا أعاد صلى الله عليه وسلم الطلب:"أشيروا عليّ أيها الناس"وفَطِنَ الأنصار إلى أنه يقصدهم..فقال سعد بن معاذ رضى الله عنه:لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم:"أجَل"فهَبّ سعد رضى الله عنه مُعْلِنَا موقف الأنصار:"يا رسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هوالحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، وعلى السمع والطاعة لك، فامض لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا البحر فخُضته لخُضناه معك، ما تَخَلّفَ منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.إنّا لَصُبّر فى الحرب، صُدّق عند اللقاء، ولعل الله أن يُريك منا ما تقر به عينك، فسِرّ على بركة الله"

وسُرّ النبى صلى الله عليه وسلم بكلام سعد، وقال لأصحابه:"سيروا وأبشروا، فإن

الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم". وكانت للشورى مُنَاسَبة أخرى، عندما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم بالناس فى مكان لم يُعْجِب الصحابى الجليل الخبير"الحبّاب بن المنذر"رضى الله عنه، فقال يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدّم عنه أونتأخر؟! أم هوالرأى والحرب والمكيدة؟

ونُلاحظ هنا فهمًا عبقريًا للحبّاب رضى الله عنه، وأدبه مع الله ورسوله..فلوكان الأمر بوحى إلهى، فلا كلام لأحد، إذ لا اجتهاد مع الوحى، وإن كانت المسألة شأنًا

دنيويًا اجتهاديًّا، فهنا يمكنه الإدلاء برأى أفضل.فلَمّا أخبره الرسول صلى الله عليه وسلم أنه الرأى والحرب والمكيدة، وأنه لم ينزل عليه بشأن مكان الجيش وحى، ب

اقترح الصحابى الجليل الإنتقال بالناس إلى أقرب بئر ماء من الإتجاه الذى سيأتى

منه العدو، وبناء حوض عليه، ليشرب منه المسلمون وحدهم، ويتم تعطيل استخدام

باقى الآبار، لحرمان المشركين من الماء الضرورى لهم ولخيلهم وإبلهم، فلا يستطيعون الصمود فى المعركة وقتًا طويلًا.. وكان هذا رأيًا صائبًا مُوفّقًا ظاهر الوجاهة، فأثنى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمر بتنفيذه فى الحال.

وهكذا تكون الشورى دائمًا بركة من جميع الأوجه، وبها التوفيق والانتصار.

٤٠ – لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

كانت هناك محاولات من بعض عُقلاء قريش لمنع المواجهة. ومنهم الأخنس بن شريق الذى أقنع قومه من بنى زهرة بالرجوع، بعد أن نجت قافلة أبى سفيان من الخطر، وأخلى الرسول صلى الله عليه وسلم سبيل أسيرهم مخرمة بن نوفل.. وبالفعل لم يشهد القتال أحد من بنى زهرة، بالإضافة إلى بنى عدى، الذين لم يخرجوا مع الجيش من مكة منذ البداية، حسبما روى ابن إسحاق. وكذلك استطلع عمير بن وهب الجمحى أحوال المسلمين، وعاد ليُخْبِرَ المشركين أنه رأى رجالًا أشِدَّاء، ليس لهم مَلْجَأ إلّا سيوفهم، وهم حوالى ثلاثمائة مُقَاتل، ليس لديهم ما يخسرونه، فلن يهلكوا إلا بعد أن يقتلوا من قريش عددًا مُمَاثِلًا لعددهم، فأى خير فى الحياة إن قُتِلَ المِئات من الجانبين ؟! وسمع حكيم بن حزام رضى الله عنه–وكان مُشْرِكًا فى ذلك الوقت–ما قال عمير، فأراد حقن دماء الطرفين، وذهب إلى عُتْبَة بن ربيعة، أحد سادات مكة، وناشده أن يرجع بالناس، وأن يدفع هودِيَة حليفه القتيل عمروبن الحضرمى–المقتول فى سرية عبد الله بن جحش قبل ذلك–إذ لا مُبَرّر لسفك الدماء بعد نجاة القافلة. ووافق عُتْبَة فورًا على اقتراح حكيم، وقام فخَطَبَ فى الناس قائلًا:يا معشر قريش.إنكم والله ما تصنعون بقتال محمد وأصحابه شيئًا.فإن أصبتموه، لا يزال الرجل–منكم–ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه–لأنه–قد قتل أخاه أوابنه أوعمه أوابن عمه أوابن خاله أوأحدًا من عشيرته. فارجعوا وخَلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم. وإن كان غير ذلك لم تخسروا شيئًا. وكاد المشركون يخضعون لرأى عُتْبَة، لكن"أبا جهل"اللعين غضب، واتهم عُتْبَة بالجُبْن، والخوف على ابنه"أبى حُذَيْفَة"الذى كان مسلمًا مع النبى. وحَرّض"أبوجهل"شقيق القتيل –ابن الحضرمى–على إثارة الناس، والمطالبة بالأخْذ بثأر أخيه ورفض الدية، وبالفعل قام ابن الحضرمى، فَشَقّ ثيابه، ولَطَمَ خديه، صارخًا:وا عمراه، وا عمراه، فهاج الكافرون، وأصَرّوا على القتال. وهكذا فشلت جميع محاولات العُقَلاء فى حَقْنْ الدماء (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) سورة الأنفال:٤٢.. واصطف الجيشان قرب عين ماء"بدر"وأرسل الله تعالى مطرًا خفيفًا، ثَبّتَ التُرْبَة الرَخْوَة تحت أقدام المسلمين، وأنعشهم.كما أنعم عليهم بالنُعَاس–النوم الخفيف–وقتًا قصيرًا، وبذلك نالوا قسطًا ضروريًّا من الراحة قبل بدء المعركة الفاصلة.

٤١ – يوم الفرقان

قضى الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة"بدر"راكعًا ساجدًا يبتهل إلى ربه: الحيّ القيّوم:"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض"وظل على هذا الحال، حتى سقط الرداء عن منكبيه. وأبوبكر رضى الله عنه يحاول التخفيف عنه:"يا رسول الله بعض مناشدتك لربك"أى هَوّنْ عليك..حسبك..يكفيك بعض هذا، وسيُنْجِزُ الله لك ما وعد.ثم خرج عليه الصلاة والسلام حين أقبل جيش المشركين، وهويتلوقول الله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرْ) سورة القمر:٤٥. وهذه الآية الشريفة من دلائل النبوة، فقد نزلت بمكة، ولم يكن وقتها جيوش ولا قتال، حتى عَجِبَ الفاروق رضى الله عنه، وراح يتساءل:أى جمع ؟! فلَمّا جاءت"بدر"وسمع النبى صلى الله عليه وسلم يُرَدّدُهَا تَذَكَّرَهَا، وفهم أنها كانت بشارة مُبَكّرَة من الله تعالى بالنصر.. وبدأ القتال بالمبارزة على عادة أهل ذلك الزمان، فخرج عُتْبَة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وطلبوا أن يُبارزهم ثلاثة من المهاجرين، وليس الأنصار.فخرج الأسد حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب لمبارزتهم، بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم . ونُلاحظ هنا أن الثلاثة من بنى عبد المطلب، أى بيت النبى، لأنه عليه الصلاة والسلام وأقاربه أولى بأن يكونوا القدوة الحَسَنَة، وفى طليعة أهل التضحية والفداء. وكان عليه الصلاة والسلام، بنفسه الشريفة، أقرب الجيش دائمًا إلى صفوف الأعداء، فكان الصحابة–إذا اشتد القتال يحتمون به–وما لبث الأسد حمزة أن التهم شيبة، وقتل عَلِىّ الوليد، وأصاب الحارث وخصمه عتبة، بعضهما البعض، فأجهز على وحمزة على عتبة، وحملا الحارث، جريحًا، إلى الخطوط الخَلْفِيّة، حيث استشهد بعد قليل، مُتأثرًا بجراحه.ثم بدأ الاشتباك مع جيش قريش الذى يبلغ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين.لكن أصحاب العقيدة، دائمًا وأبدًا، يسحقون الكُفْرْ وأهله، فالنصر من عند الله وحده، بصرف النظر عن الأعداد أوالعتاد. ومن الثابت بنصوص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، ثم تواتر أقوال شهود العَيَانْ من المقَاتلين–على الجانبين–أن الملائكة قد قاتلت فى"بدر"دعمًا للمسلمين فى مواجهة جيش الشرك والإلحاد والطغيان..قال تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) ومَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ ومَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ولِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ويُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ

(١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) سورة الأنفال.

وخلال ساعات قصار، قُتِلَ من المشركين سبعون، ووقع فى الأسر سبعون آخرون، بخلاف الجرحى، وولَّى الباقون هاربين. وكان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر رجلًا فقط -طبقًا لرواية موسى بن عُقْبَة-ولم يُؤخَذْ أسير مُسْلِمْ واحد.

وهكذا تحقّقَ النصر الساحق للإسلام والمسلمين فى أولى وأهم المعارك الحاسمة.. ولا شك أن العالم لم يَعُدْ-بعد ذلك اليوم المشهود-كما كان.. وصدق الله العظيم :

(ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) آل عمران:١٢٣

٤٢ – مصارع الطُغَاة

ومن دلائل النبوة أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه قبل المعركة عن المكان الذى سَيُقْتَلُ فيه كُلّ واحد من طواغيت الكُفّار. ويُجْمِعُ كُلّ من شارك فى"بدر"على أنه لم يُخْطِىء فى موضع واحد منها..فقد هلك عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فى المبارزة، كما تقَدّم. وأمّا أبوجهل"فرعون هذه الأُمّة"كما وصفه الصادق الأمين، فقد وَكّلَ الله به شبلين صغيرين من فتيان الأنصار، لم يتركاه إلا جُثَّةً هامدة.يحكى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف قائلًا أنه كان يقف فى الصف يوم بدر، فمال عليه فتى صغير هامسًا فى أُذُنُه: يا عم: أين"أبوجهل"؟!فسأله ابن عوف:وماذا تريد منه؟!أجاب الفتى وهو"عوف بن عفراء":أريد أن أقتله، فقد علمت أنه كان يُؤذى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة، ووالله لورأيته، فلن يُفَارق سوادى سواده–لن يُفَارِق جسدى جسده–حتى أقتله أويقتلنى. وبعد قليل جاء فتى آخر إلى عبد الرحمن بن عوف، فسأله ذات السؤال عن أبى جهل، وأعاد عليه ذات الجواب عن السبب. وكان الثانى هو"معوذ"شقيق الفتى الأول.

وما لبث ابن عوف أن رأى أبا جهل وسط مجموعة من فرسان المشركين، فأشار إليه، قائلًا لابنى عفراء:هذا صاحبكما الذى تسألان عنه. وبسرعة البرق اندفع الفتيان إلى قلب المشركين، كالصقرين، وقاتلا ببسالة نادرة، حتى نجحا فى اختراق الحراسة المشَدّدَة على الطاغية، وتنافسا فى تمزيق جسده بسيفيهما، رغم ما أصابهما من جراح بالغة بسيوف باقى المشركين. وقد نال كلاهما شرف الشهادة، بعد أن أنجزا واحدًا من أهم مكاسب الغزوة التاريخية. وجلس عبد الله بن مسعود رضى الله عنه على صدر أبى جهل وهويحتضر، وهتف به:هل أخزاك الله يا عدوالله؟! لكن الطاغية أبى إلا الغطرسة والكِبْرْ حتى آخر لحظة، وقال وهويلفظ أنفاسه الأخيرة:وهل أنا إلا رجل قَتَلَهُ قومه؟! لقد رَقِيتَ مُرتقى صعبًا (يقصد جلوسه على صدره) يا رويعى الغنم–تصغير لكلمة راعى الغنم–قالها تقليلًا من شأن ابن مسعود! وأمّا أُمَيّة بن خَلَفْ لعنه الله، فقد استسلم مع ابنه على بن أميّة لعبد الرحمن بن عوف، لكن بلال بن رباح رضى الله عنه شاهده–وكان أُمَيّة يُعَذّبُهُ فى مكة ليترك الإسلام–فصاح بلال:يا للأنصار، هذا رأس الكُفْرْ أُمَيّة بن خَلَفْ، لا نجوت إن نجا..فجاء المسلمون إليه من كل مكان. ورغم أن ابن عوف رضى الله عنه، ألقى جسمه علي أسيره، ليحميه، فقد نحسوه بالسيوف من تحته حتى أجهزوا عليه وعلى ابنه. وأَمّا"أبولهب"اللعين فقد كان مريضًا بمرض خبيث، فلم يحضر القتال، لكنه أرسل رجلًا مكانه، مقابل دين عليه. وعندما بَلَغَه خبر الهزيمة الساحقة، أصابته الحسرة، فَهَلَكَ فى

مكة، بعد"بدر"بأيام. وكذلك وقع عدد من كبار سادات قريش فى الأسر، مثل سُهَيل بن عمرو، والعباس بن عبد المطلب عم النبى، وكان المشركون قد أجبروه على الخروج معهم، ونهى الرسول عن قتله، ضمن جماعة عَلِمَ بالوحى أنهم كانوا مُكْرَهِين، ولم يرغبوا فى القتال. وبعد دفن شهداء المسلمين، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإلقاء جُثَثْ قتلى الكافرين فى حفرة كبيرة، وإهالة التراب عليها. ووقف أمامها، ونادى الزعماء الهالكين بأسمائهم:"يا عُتبة بن ربيعة..يا شيبة بن ربيعة..يا أميّة بن خَلَفْ..يا أبا جهل بن هشام -إلى آخرهم-هل وجدتم ما وَعَدَ رَبّكُمْ حَقًّا ؟ فإنى قد وجدت ما وَعَدَنِى رَبّى حَقًّا". ويروى ابن إسحاق أنه عليه السلام أضاف:

(بئس عشيرة النبى كنتم لنبيّكم..كَذّبتمونى وصَدَّقَنِى الناس. وأخرجتمونى وآوانى الناس. وقاتلتمونى ونصرنى الناس) وعندما تَعَجّب أصحابه من مُخَاطَبته للقتلى، قال عليه الصلاة والسلام: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى). ويثور السؤال عن الحكمة والسِرّ فى أن قتلى الكُفّار ٧٠ فقط، رغم أن واحدًا من الملائكة فحسب، كان كفيلًا بسحق كل مشركى الأرض ؟!

وللإمام ابن كثير رضى الله عنه إجابة رائعة على هذ السؤال :

(وكان قدر الله السابق فيمن بقى منهم-على قيد الحياة-أن سَيُسْلِمْ منهم بشر كثير. ولوشاء الله لَسَلّطَ عليهم مَلَكًا واحدًا فأهلكهم عن آخرهم، ولكن قتلوا من لا خير فيه بالكُلّيّة) انتهى.

(ويُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ويَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) سورة إبراهيم:٢٧

٤٣ – المَنّ والفِدَاء

ضَرَبَ النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه أروع الأمثال فى الإحسان إلى الأسرى وإكرامهم، وكأن هؤلاء لم يسعوا بالأمس إلى القضاء على المسلمين! فقد شَعَرَ عليه الصلاة والسلام بالألم، بعد سماع أنين عَمّه العباس فى قيوده، ولكنه رفض التخفيف عنه، إلا بشرط أن يفعلوا هذا بجميع الأسرى، وقد حدث. وبالغ الصحابة فى الحفاوة بالأسرى، إلى درجة أنهم كانوا يَخُصّونَهُم بالخبز والماء واللحم–إن وُجِدْ–وكل ضروريات الحياة، طوال فترة الأسر، ويكتفون وأطفالهم بالتمر.أى أنهم كانوا– في الحقيقة– ضيوفًا كرامًا على المسلمين. وشكر الله صنيع الصحابة ومدحهم بآيات قرآنية خالدة تُتلى إلى يوم القيامة: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا ويَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً ولَا شُكُورًا) سورة الإنسان:٨–٩

ونقل الإمام ابن كثير رحمه الله قول ابن عباس رضي الله عنه إن المقصود بالأسير هنا"أسراهم يوم بدر من المشركين"ويضيف ابن كثير:ويشهد لهذا الرأي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى,فكانوا يُقدّمونهم على أنفسهم عند الغداء. وقال مجاهد:الأسير هوالمحبوس، أي يطعمون الطعام لهؤلاء، وهم يشتهونه ويحبونه –لأنفسهم–قائلين بلسان الحال:"إنما نطعمكم لوجه الله"أي رجاء ثواب الله ورضاه، لا نطلب منكم مجازاة عليها، ولا أن تشكرونا عند الناس. وقال مجاهد وسعيد بن جبير:أما والله ما قالوا هذا بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك غيرهم"انتهى . وكذلك يحظر الإسلام كافة أشكال التعذيب أوإهدار الآدمية أوالتمثيل– إحداث جراح أوتشويه –بالأسرى، فذلك ممنوع فعله ولوبالكلب العقور، فما بالنا بالإنسان الذي كَرَّمه الله تعالى ؟! أين هذا النبل مما فعله ويفعله الآخرون المجرمون بأسرى المسلمين والمعتقلين في سجون إسرائيل و"أبوغريب"و"جوانتانامو"و"البوسنة"و"الشيشان"و"كشمير"، بل وسجون الطُغَاة العلمانيين أيضًا وغيرهم ؟!

وقد استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه بشأن مصير الأسرى السبعين.فأشار أبوبكر رضى الله عنه بإطلاق سراحهم مقابل فدية، لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام فيما بعد. وأشار عمر رضى الله عنه بقتل الأسرى جميعًا، لكسر شوكة الكُفْرْ، وردعًا لسائر مشركى الجزيرة، فلا يُفَكّر أحد منهم فى غزوالمدينة بعدها.

ومال قلب النبي الذى أرسله رَبّه (رحمةً للعالمين) إلى إخلاء سبيل الأسرى. ودفع من كان غنيًّا منهم الفدية. والفدية المالية التي يدفعها القادرون من الأسرى عادلة تمامًا.إذ أنه من المنطقي أن هؤلاء الذين يشَنُّون حربًا عدوانية، ويقتلون ويجرحون كثيرًا من المسلمين، ويدمرون البيوت والمزارع والمصانع، تقع عليهم وحدهم تبعة إصلاح ما أفسدت أيديهم الآثمة بغير حق. وحتى في عصرنا هذا، تعارفت الدول على أن الطرف المعتدي الذي أشعل فتيل الحرب هوالذي يدفع التعويضات عن كل ما سببه العدوان من أضرار وخراب.

ولما كانت الحرب في الإسلام دفاعية بحتة، والآخرون هم الذين يعتدون علينا دائمًا، فمن الطبيعي أن يدفعوا تعويضات مناسبة"فداء"مقابل إطلاق سراح أسراهم .

ومن هذه الفدية المالية يتم دفع تعويضات للأيتام والأرامل من أسر شهداء المسلمين، وكذلك إعادة بناء ما دمرته الحرب العدوانية من بيوت ومرافق عامة وغيرها. وهذا هوالحق والعدل بعينه. وأمّا الفقراء من الأسرى، فقد مَنّ صلى الله عليه وسلم عليهم (بالعفوبدون مقابل). وللإمام الشوكانى رضى الله عنه لفتة رائعة فى تفسير قوله تعالى: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)سورة محمد:٤ فقد فَسّر تقديم ذكر (المنّ) أولًا بقوله:قدّمَ الله تعالى"المنّ"أولًا لأنه (من مكارم الأخلاق).. وأحسن إمامنا العظيم، فما بعث الله رسوله الخاتم إلا لإتمام مكارم الأخلاق، كما جاء بالحديث

الصحيح. وهناك أيضاً مَكْرُمَة حضارية كُبرى غير مسبوقة فى تاريخ الإنسانية، هى إخلاء سبيل بعض الأسرى مقابل تعليم أطفال المدينة القراءة والكتابة. ونلاحظ هنا أن الأسرى يحصلون على "الحرية"مقابل "العلم" للمسلمين.أى أن (نور الحرية مقابل نور العلم) فهل عهد الناس هذا قبل الإسلام؟! قوم يتخلصون من"ذل الأسر"مقابل آخرين يتحرّرُون من"ظلمة الجهل".. هل هذا تشريع من عند بشر ؟! ومن الذي يحرص على تعليم أتباعه القراءة والكتابة ؟! إنه نبي أُميّ في أُمّة أُمّية!!بأبى وأُمّى هو، صلى الله عليه وسلم. وهكذا تم الإفراج عن مُعْظَمْ الأسرى، ثم نزلت آيات تُعَاتِبْ المصطفى على هذا، وتُخْبِرُه بأن المصلحة الراجحة كانت تُوجب إعدام هؤلاء الطواغيت أعداء الله ورسوله، ولولا عفوالله وسابق علمه وقضائه، لوَقَع على المسلمين فى قبول الفداء عذاب عظيم: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) سورة الأنفال.

وربما حَدَثَ هذا الاجتهاد، لتدريب الأُمّة على تطبيق الشورى–حتى لووقعت أخطاء– فهى خير من الإستبداد بالرأى.. والله تعالى أعلم.

٤٤- حول إعدام مُجْرِمِى الحرب

رغم أن قاعدة المعاملة بالمثل هى إحدى البديهيات القانونية التي تتفق عليها كل المعاهدات الدولية والقوانين الإنسانية، فإن الله تعالى أعطى إمام المسلمين خيارين، لم يذكر سواهما في القرآن الكريم، هما المنّ أوفداء الأسرى.قال تعالى "فإمّا مَنًّا بعد وإمّا فِدَاء"الآية ٤ من سورة محمد. وكان عبد الله بن عمر والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح يرون أن هذه الآية الكريمة: "فإمّا منًّا بعد وإمّا فداء" ناسخة للآية المسمّاة بآية السيف: (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)سورة التوبة:٥ ولذلك رفض ابن عمر أن يقتل أحد عظماء منطقة اصطخر، عندما أسره المسلمون وأرسلوه إلى ابن عمر مقيدًا. ويروي أبوعبيد في"الأموال"والجَصّاص في "أحكام القرآن"أن عبد الله بن عامر رضي الله عنه هوالذي أرسل إلى ابن عمر ذلك الأسير طالبًا منه قتله، فأبى ابن عمر رضي الله عنه إلا المنّ على الأسير—العفوعنه—أوالفداء— إطلاق سراحه بمقابل—ويؤيّد كثير من العلماء—القدامى والمعاصرين—ذات الرأي السديد، خلافًا لرأي آخر يرى جواز قتلهم .

والواقع أنه يستحيل على عالم أوعاقل أن يقبل دعوى أن آية واحدة هي آية السيف المذكورة قد نسخت عشرات الآيات التي تدعوإلى السلم والرحمة والمعاملة النبيلة لغير المحاربين لنا، بل والمحاربين الأسرى والجرحى.كما يستحيل قبول فكرة أن الله "الرحمن الرحيم"يأمر نبيه الذي لم يرسله إلا"رحمةً للعالمين"بإعمال السيف في رقاب كل من يقابله من غير المسلمين، وقتل الأسرى والجرحى والنساء والأطفال والشيوخ غير المحاربين.فهذا كله يتعارض مع آيات قرآنية قاطعة وأحاديث صحيحة ثابتة، وأفعال الرسول عليه السلام طوال عمره الشريف. وإذا كانوا يستندون إلى اثنين فقط—من أسرى بدر—أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما، فهواستدلال خاطئ، لأن الرسول أصدر حكمه عليهما بالإعدام باعتباره قاضيًا، وليس قائدًا عسكريًّا، عقابًا لهما على جرائم ارتكباها ضد الإسلام والمسلمين من قبل.فهما باصطلاح عصرنا من"مجرمى الحرب". وكُلّ الأُمَمْ—حتى الآن—تُحاكم وتُعاقب"مجرمى الحرب"بعد وقف القتال. وهذا هوالإستثناء الذي يثبت قاعدة"المنّ أوالفداء"ولا ينفيها.إذ فى المقابل، عفا الرسول عن عشرات من الأسرى في "بدر"ثم ألوف غيرهم فى فتح مكة وبعد غزوات بدر وحنين وبني المصطلق وغيرها من المواطن، كما سيأتى بحول الله .

وبالإضافة إلى ابن عمر والحسن البصري وعطاء يقول ابن كثير عن آية المنّ أوالفداء: أكثر العلماء يرون أنها ليست بمنسوخة. وقالوا إن الإمام مخيَّر بين المنّ على الأسير– أي إطلاق سراحه بدون مقابل–أوالفداء–أي إستبداله بأسرى المسلمين، أومقابل مال، أوحتى تعليم بعض المسلمين حرفة نافعة أوالقراءة والكتابة، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أسرى بدر. ويؤكد أصحاب هذا الرأي الوجيه أن الإمام ليس له أن يقتل الأسرى طبقًا لهذه الآية، فهي صريحة في النص على المنّ أوالفداء فقط، ولا ثالث لهما. وهذا يعني بوضوح –كما يرى كثير من العلماء– أنه لا يجوز له استرقاق الأسرى أيضاً.بل ذكر الإمام البيضاوى فى تفسيره"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"صراحة أن الآية نسخت الاسترقاق. ونلاحظ أن الآية العظيمة بدأت أولًا بذكر "المنّ" قبل "الفداء"، مما يشير إلى أفضلية ذلك التصرف النبيل بإطلاق سراح أسرى الأعداء بدون مقابل، ففي ذلك إظهار لنبل وسماحة الإسلام. وقال الإمام الرازى فى تفسيره:"وتقديم المنّ على الفداء إشارة إلى ترجيح حُرْمَة النفس على طلب المال" . وكثيرًا ما كان المن سببًا في إسلام الأسرى الذين أيقنوا أن هذا النبل والتسامح دليل قاطع على أن الإسلام هوالدين الحق، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقًا وصدقًا، وليس من ملوك الدنيا الذين يريدون العلوفي الأرض أوالإفساد. والمثال الواضح لذلك قصة ثمامة بن أثال الحنفي – سيد قومه الذي أسره المسلمون وربطوه في المسجد. وكان عدوًا شديد الضراوة في الفتك بالمسلمين المارين بمنطقته. ومر به الرسول عليه الصلاة والسلام وهومربوط بأحد أعمدة المسجد، فأمر بإطلاق سراحه. وعلى الفور انطلق ثمامة إلى ماء قريب، فاغتسل وعاد ليشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وصار بعد ذلك من أخلص أنصار الإسلام والمسلمين.كما روى البخاري وغيره حديث:"فكوا العاني"–يعني الأسير – وهوأمر نبوي شريف لا سبيل إلى المجادلة في دلالته الواضحة والقاطعة على وجوب تحرير الأسرى كمنهج إسلامي ثابت. وعند البخارى أيضًا أن رجلًا سأل عليًّا عن الصحيفة التى عنده، فأقسم أنه ليس فيها إلا"العقل–أى الدِية–و(فكاك الأسير) وألا يُقتل مسلم بكافر"وعلى هذا فمن المقطوع به أن إطلاق سراح الأسير كان من أهم وصايا النبى عليه السلام .

ونقل الإمام البغوى قول ابن عباس رضى الله عنهما ": لما كَثُرَ المسلمون واشتدَّ سُلْطَانُهم، أنزل الله المنَّ والفداء".. ويؤيد الإمام البغوى رضى الله عنه–فى تفسيره معالم التنزيل–مذهب العفوعن الأسرى أومبادلتهم بأسرانا. وروى الإمام الشافعى، رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وسلم حرّرَ رجلين من ثقيف أسرهما المسلمون مقابل إطلاق سراح أسير مسلم كانوا يحتجزونه.. وكذلك أعتق النبي جارية من قريش نظير إطلاق سراح عدد من أسرى المسلمين بمكة.

٤٥ – غزوة بنى قينقاع

التزم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه دائمًا بأحكام الوثيقة أوصحيفة المدينة، فلم يصدر عنهم أى تصرف مخالف لها. ولم تقع انتهاكات أوحوادث تعكر الصفوداخل المدينة، ولا منازعات بين رعاياها من الفرق الثلاث–المسلمين ومشركى المدينة واليهود–عامين كاملين. والذى حدث أن اليهود هم الذين أبوا إلا الغدر ونقض النصوص التى وافقوا عليها من قبل. وهذا هودأبهم على مدار التاريخ كله! فقد

جابهوا المسلمين بالحقد، وإظهار غيظهم وحسدهم بعد الانتصار فى غزوة"بدر"و

مما قاله بنوقينقاع صراحة فى ذلك، بأسلوب استفزازى سافر:"يا محمد.لا يغرّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فلوحاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس"! ثم زادوا على ذلك بالتحوّل من مجرد التطاول بالكلام إلى انتهاك حرمة سيدة فاضلة من نساء الأنصار المسلمات العفيفات. وتروى مراجع السيرة العطرة أن بائعًا من يهود بنى قينقاع انتهز فرصة جلوس الصحابية فى السوق، وغافلها وربط ثوبها من الخلف إلى حجر، فلمّا قامت من مكانها انقطع ثوبها، وانكشف جسمها وسط قهقهات اليهودى ومن معه! وهذا التصرف الإجرامى فى بيئة عربية وإسلامية أبيّة عزيزة طاهرة كفيل باندلاع قتال شرس حفاظًا على العرض. وكم من معارك طاحنة فى الجاهلية استمرت سنوات، وسقط فيها من القتلى والجرحى العشرات بل المئات، دفاعًا عن الشرف العربى الذى يهون دونه كل شيء آخر. ويروى المؤرخون أن الصحابية صاحت مستنجدة برجل مسلم، فثار الأخير وقتل اليهودى الفاجر انتقامًا لأخته، وتكاثر اليهود على المسلم الحرّ وقتلوه، وبذلك أشعلوا نار الفتنة وشرارة حرب أهلية مدمّرة توشك أن تعصف بكيان المدينة بأسرها. وعندما حذّرهم النبى صلى الله عليه وسلم من عواقب البغى والخيانة ونقض العهود، تطاولوا عليه وهدّدوه كما رأينا، ثم تحصّنوا داخل قلاعهم، واستعدوا بما لديهم من سلاح وعتاد لبدء القتال ضد المسلمين! فماذا يمكن أن يفعل رئيس الدولة فى مثل هذه الظروف ؟! بالقطع ليس من الحكمة ولا من حسن السياسة السكوت على هذا الخرق الصارخ للدستور، وهذا التهديد الخطير لأمن الدولة الناشئة، ولا يمكن ترك مثيرى الفتنة ودعاة الحرب الأهلية ليفعلوا ما شاءت نفوسهم الخبيثة المجرمة، فى ظل ثورة أفراد قبيلة السيدة المسلمة التى انتهكت حرمتها وأهينت كرامتها، إذ لن يهدأ لهم بال أويغمض لهم جفن حتى ينتقموا لها وللشهيد الذى قتله اليهود. ورغم كل ذلك لم يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال بنى قينقاع البُغاة، وكان حريصًا كل الحرص على حقن الدماء

ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. واكتفى عليه الصلاة والسلام بحصارهم، إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، وينزلوا على حكم الله العادل فى أمثالهم. وبالفعل لم يتحمّل المجرمون الحصار أكثر من أسبوعين، وأيقنوا أنهم لن يهنأ لهم عيش بالمدينة بعد فعلتهم النكراء تلك، فأرسلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يطلبون السماح لهم بالخروج من المدينة بسلام، وأجابهم إلى ما طلبوا، وتم توفير ممر آمن لهم، فخرجوا إلى منطقة "أذرعات"على حدود الشام، حاملين معهم كل ما استطاعوا من أموالهم، بإستثناء السلاح، منعًا لهم من التفكير فى ارتكاب أية حماقة مُجَدّدًا. وبذلك وقى الله الدولة الوليدة شرًّا مُستطيرًا سبّبه بنوقينقاع. ونلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحكم بقتل أحد منهم، لأن النزاع قد تم حَلّه باستسلامهم وجلائهم، وبهذا يسّر الله تعالى احتواء الموقف الملتهب بأقل قدر من الخسائر.

٤٦- إعدام كعب بن الأشرف

يُثِيرُ علمانيون-فى هذا الزمان-الغبار حول بعض وقائع السيرة العطرة، ومنها مقتل الشاعر اليهودى الماجن"كعب بن الأشرف". وبلغ السفه والإجرام والضلال بأحد الإعلاميين العلمانيين المصريين حَدًّا جعله يتطاول على المقام الشريف، زاعمًا أن قتل الشاعر اليهودى كان قمعًا لحرية الرأى فى المدينة!ولا أفهم:لماذا يفضح إعلامى جاهل نفسه، ويهذى بما لا يدرى! فاختصاصه وعمله طوال عمره بمجلة"فنية"أى مطبوعة لنشر أخبار الممثلات والمغنّيات والراقصات، فما شأنه بالسيرة، أوأحكام الشريعة؟!ولماذا لم يسأل أحدًا من العلماء، قبل أن يتطاول بجهل وسفه على المقام النبوى الشريف؟!وكما يفعل كثيرون فى هذا الزمان، فقد خاض المارق الجاهل فى قصة الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير!والثابت من مراجع السيرة العطرة أن هذا الكافر المجرم لم يُقْتَل لمجرد تطاوله بشعره البذىء السافل على الإسلام وأعراض المسلمات فقط، وإنما خَرَقَ أيضا نصوص دستور أومعاهدة المدينة، التى وافق عليها مع قومه اليهود بعد الهجرة الشريفة. ومنها نصوص صريحة على أن:(أن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب) و(ألا يغادر أحد المدينة بدون إذن النبى عليه الصلاة والسلام) وألا يُجِيرَ أحدًا من قريش، أويحمى مصالحها ضد المسلمين. وفى حالة النزاع يكون الإحتكام إلى النبى بصفته قاضيًا. وقد أهدر اللعين كل هذه النصوص، وذهب إلى مكة، ليُحَرّض المشركين وقبائل العرب على قتل وقتال المسلمين، واتفق معهم على أن يهيىء لهم طريقًا للدخول إلى يثرب من الناحية التى يسكن فيها. وبذلك يكون قد ارتكب ما نسميه بلغة عصرنا جناية (الخيانة العظمى) التى تُعاقب عليها التشريعات الوضعية فى أغلب الدول بالإعدام. وقد أصدر النبى صلى الله عليه وسلم حكمه عليه -بصفته قاضيًا-وقام بتنفيذ الحكم عدد من الصحابة الأخيار العدول، بقيادة البطل محمد بن مسلمة، رضى الله عن الجميع ورضوا عنه.فهى مُحَاسَبَة على جريمة خيانة عظمى ثبت-بأدلة قاطعة-أنه ارتكبها، لا أكثر ولا أقل.ثم نسأل:ولوسَلَّمْنَا-جدلًا بأن سبب الإعدام كان هوالشعر السافل البذىء، فهل يقبل هذا العلمانى أوغيره، أن ينشر أحد شعرًا أونثرًا يتهم فيه أمه أوأخته أوابنته أوزوجته بالزنا، أوأن يصف أعضاء جسد واحدة منهن؟! ألا يعلم أن هذا الأمر تثور بسببه حروب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، فى بيئة عربية أصيلة مُحافظة، تهون الحياة فيها صونًا للعرض، إن مَسّهُ أحد بأذى أوشائبة؟!وفضلًا عن هذا فقد حَقَنَ الرسول صلى الله عليه وسلم دماءً كثيرة، كانت على وشك أن تسيل أنهارًا فى المدينة، إذا استمر هذا الشاعر الداعر فى طعن أعراض المسلمات والتشهير

بهن، وكانت قبائلهن توشك أن تجتاح كعباً وقبيلته كلها، ثأرًا للأعراض، فاستبق النبى صلى الله عليه وسلم الفتنة بحكمته، وحال دون إندلاع حرب أهلية مُحَقَّقَة. ولم يكن هناك سبيل سوى معاقبة من ارتكب الجرم وحده، قبل أن يدفع الغضب العارم أهالى الضحايا إلى عقاب جماعى، يمتد إلى جميع أقارب الجانى، كما هوالحال فى مثل هذه الظروف بالغة الحرج والحساسية، التى لا تحتمل أى تَرَدّدْ أوتأخير فى إطفاء الحريق.

٤٧ – غزوة السُويق

بعد الهزيمة الساحقة فى "بدر" نَذَرَ أبوسفيان بن حرب ألّا يَمَسّ الماء جسده (لا يغتسل مِنْ جِمَاعٍ أوغيره) حتى ينتقم من المسلمين. وجمع مائتين من المقَاتِلِين، وشَنّ بهم غارة على المزارع فى ضواحى يثرب، وقَتَلَ رجلين من الأنصار كانا يعملان فى بستان لهما، وأحرق مساحة كبيرة من زراعات النخيل، ثُمّ انصرف هاربًا، قبل قُدُوم جيش المسلمين. ووصلت أنباء الغارة إلى المدينة، فخَرَجَ الرسول صلى الله عليه وسلم بمَنْ كان حاضرًا من أصحابه لمطَارَدَة المعْتَدِين، لكنهم أفلتوا قبل اللحاق بهم. ولكى تكون حركتهم أخف فى الهروب، تخلّص الكُفّار من مُعْظَم ما كانوا يحملون من الطعام، وخاصة "السُوَيْقْ" وهوالطحين من الحنطة أوالشعير الذى يُصنع منه الخُبْزْ، ولهذا سُمّيت "غزوة السُوَيْقْ". وتجدر الإشارة هنا إلى أن مُعْظَم من كتبوا عن السيرة العطرة من الخصوم قد تجاهلوا، تمامًا، ما فَعَلَه "أبوسفيان" من قتل المدنيين وحرق النخيل! !

ولوكان المسلمون هم مَنْ فَعَلَهَا، لأقام المجْرِمُون الدنيا ولم يُقْعِدُوها، على غرار ما فعلوا بشأن سرية عبد الله بن جحش –كما تَقَدّم–ومواضع أُخْرَى كثيرة!!وهذا هو شأنهم دائمًا، أى انعدام الإنصاف، والإفتقار إلى الأمانة العلمية! !

وقد شَهِدَ العام الثانى من الهجرة أيضاً غزوات صغيرة،

هى "الأبواء" و "بنوسليم" و "ذوأمر" أوغزوة "غطفان" و "قرقرة الكدر" – وكُلّها أسماء أماكن أوقبائل بالجزيرة العربية–ولم يحدث فى أى منها قتال. كما نزلت فى هذا العام آيات كثيرات بتشريعات، مثل إباحة القتال دفاعًا عن الدين والنفس والعرض والمال، وفرض الصيام وزكاة الفطر .. وذَكَرَ الإمام ابن كثير رضى الله عنه أن فرض زكاة المال وبيان أنواعها ومقاديرها كان فى العام الهجرى الثانى أيضًا.

وفى هذا العام دَخَلَ صلى الله عليه وسلم بزوجته السيدة عائشة بنت أبى بكر الصِدّيق. وكان قد تزوّج قبلها السيدة سَوْدَة بنت زَمْعَة، بعد وفاة السيدة خديجة، رضى الله عن الجميع.

٤٨- سِن السيدة عائشة عند الزواج

حاول المستشرقون فى زماننا إثارة ضجة حول عمر السيدة عائشة عندما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم، وراحوا يتصايحون:كيف يتزوج محمد طفلة فى التاسعة من عمرها ؟ ويُمكننا الرد على هذه الشبهة من أوجه عديدة:

-لم يتحدّث أحد من مشركى مكة ويهود المدينة والمنافقين عن هذا الأمر، رغم حرصهم الشديد على اصطياد أدنى هفوة، للتشهير بالنبى صلى الله عليه وسلم. وهذا يدل على أنهم لم يجدوا فى زواجه بالسيدة عائشة شيئا منكورًا، وأنها كانت فتاة ناضجة صالحة للزواج، وليست طفلة كما يزعم الخصوم الآن.

-كانت السيدة عائشة مخطوبة قبل النبى صلى الله عليه وسلم لجبير بن المطعم بن عدى. وعندما أسلم أبوبكر خاف المطعم وزوجته أن يعتنق ابنهما دين صهره، فأصرّا على فسخ الخطبة، فأبدلها الله خيرًا منه، بالزواج من سيد ولد آدم أجمعين.

-كانت السيدة عائشة سعيدة مع زوجها عليه الصلاة والسلام، وغيرتها الشديدة المشهورة-على زوجها-هى غيرة الأنثى الناضجة.

وكانت تزهووتفخر دائما على باقى نسائه بحبه لها ومكانتها وحظوتها عنده..فهل تفعل هذا طفلة ؟!

-كان عمر السيدة مريم ١٢ سنة عندما ولدت طفلها عيسى عليه الصلاة والسلام، وكان عمر خطيبها المزعوم-يوسف النجار-قد تجاوز التسعين. وكانت السيدة هاجر صغيرة، وكان أبونا إبراهيم، قد بلغ ٨٠ سنة عندما أنجبت له إسماعيل عليهما السلام..فإن احتجّوا بأن هذه كانت من المعجزات، فإن عليهم-بذات المنطق-قبول أن السيدة عائشة كانت معجزة أيضا.

- حتى الآن، تسمح قوانين دول كثيرة، منها الولايات المتحدة الأمريكية بزواج الفتيات فى سن مُبكّر.ففى ولايتى"كنساس"و"ماساتشوستس"يسمح القانون بالزواج عند بلوغ١٢سنة فقط..بل إنه فى ٢٧ من الولايات الأخرى لا يوجد حد أدنى لسن الزواج، فيمكن أن تتزوج الصغيرة ولودون العاشرة أوالثامنة أوالسابعة، بشرط موافقة الوالدين والمحكمة المحلية.كما تذكر إحصاءات حديثة أنه من بين كل ٩ زوجات فى العالم، تتزوج واحدة على الأقل تحت ١٥سنة. وكثيرات منهن تزوجن فى سن العاشرة وما دونها.

-ملايين الفتيات فى كل العالم، خاصة المناطق الحارة، مثل جزيرة العرب، يبلغن المحيض تحت سن العاشرة. ومن يبحث على الانترنت مثلا، تحت عنوان"أصغر أم فى العالم"سيرى العجائب فى كل أنحاء الأرض، حتى فى البلاد الباردة. وذكر الإمام الشافعى أنه عندما زار اليمن، وجد هناك ظاهرة منتشرة، هى أن كثيرا من الفتيات يأتيهن الحيض، دون سن التاسعة. وتؤكّد الأبحاث العلمية الحديثة أن تلوث البيئة واستخدام الهرمونات والكيماويات والإشعاعات النووية سوف تتسبب فى زيادة مستمرة فى أعداد الفتيات البالغات فى سن أقل من ٦ و٧سنوات.أى أن نطاق ظاهرة البلوغ المبكّر فى اتساع مستمر وليس العكس.

-لم تكن هناك سجلات رسمية لتسجيل المواليد فى تلك الأزمنة القديمة، ولهذا يختلف المؤرّخون حول أعمار الشخصيات التاريخية. والمثال الصارخ هنا هوالخلاف الحاد -القائم حتى الآن-حول تاريخ ميلاد السيد المسيح، فيحتفل بعض النصارى بمولده فى ديسمبر، وآخرون يحتفلون به فى يناير..إلخ.

-كان لصغر سن السيدة عائشة حكمة كبرى، فقد عاشت بعد وفاة النبى حوالى ٥٠ سنة، وكانت ذات ذكاء حاد، وذاكرة فولاذية، فحفظت ألوف الأحاديث النبوية الشريفة وروتها للأُمّة، وكان أكابر الصحابة والتابعين يتعلّمون منها.. وفى دواوين كُتُب السُنّة أكثر من ألفى حديث رُويت عنها وحدها، وهذا أضعاف ما روته باقى أمهات المؤمنين مُجتمعات، فقد كانت أصغرهن، ولهذا حفظت أكثر منهن، مصداقًا لمقولة الحسن البصرى:"التعليم في الصغر كالنقش على الحجر"رضى الله عن الجميع.

٤٩- مجلس شورى أُحُد

فى شوال من العام الثالث بعد الهجرة، خرجت قريش بجيش قوامه ثلاثة آلاف مُقاتل، للثأر لقتلاها فى"بدر"والقضاء على المسلمين بزعمهم. وعَسكَروا بقيادة أبى سفيان بن حرب إلى جوار جبل"أُحُدْ"خارج المدينة مُبَاشَرَة. وفور علمه بالأمر عقد المصطَفَى صلى الله عليه وسلم إجتماعًا طارئًا، شارك فيه مُعْظَمْ أهل يثرب لتدارس الموقف. وهنا أيضاً ضَرَبَ صلى الله عليه وسلم أعظم الأمثال فى تطبيق الشورى، واحترام رأى الأغلبية، وإن تعارض مع رأى النبى الذى يُوحَى إليه من السماء! وكان صلى الله عليه وسلم قد رأى فى منامه ما تفسيره أن عددًا من أصحابه سينالون شرف الشهادة، وأن الاحتماء بالمدينة وإتخاذ مواقع دفاعية بداخلها أفضل وأشدّ على العدو. ولهذا اقترح البقاء فيها لاضعاف المشركين.لأنهم لوظَلّوا فى معسكرهم خارج المدينة، سيتسلّل التعب والإرهاق واليأس إلى نفوسهم بمرور الوقت، فضلًا عن تعطيلهم عن التجارة التى هى مورد رزق معظمهم، فيُصابون بخسائر مالية فادحة بلا مُقَابل، وهكذا سَيُضْطَرّون إلى الإنسحاب حتمًا بعد فترة..أمّا لوهاجموا المدينة فسَيُجْبَرُون على التَفَرّقْ فى شوارعها وأزِقّتها، التى لا يعرفونها، ولن يجدوا أمامهم من يُقَاتلون-وجهًا لوجه-وسيكون من السهل على السُكّان نصب الكمائن للغُزَاة، واصطيادهم، برمى السهام والأحجار عليهم من فوق أسطح المبانى، فتكون خسائرهم البشرية أضعافًا مُضاعفة، بالقياس إلى خسائر المقاومين من أهل يثرب. وسوف يستحيل عليهم البقاء داخلها ليلًا، أوالحصول على أى قسط من الراحة، وإلا تم قتلهم أوأسرهم جميعًا، واحدًا تلوالآخر. وفى حالة التراجع مع حلول الظلام، ستكون أيضًا فرصة لمهاجمة مؤخرتهم من الخَلْف. وكان والله نعم الرأى، ولكن قَدّرَ الله وما شاء فعل.فقد هاج أغلب الحاضرين، وخاصة من لم ينالوا شرف القتال فى"بدر"وطالبوا بالخروج لملاقاة الجيش المعْتَدِى خارج المدينة، مهما تَكَلّفَ الأمر من تضحيات. والواقع أن النخوة العربية الأصيلة، وحماس الشباب قد تَغَلّب على صوت الحكمة والتخطيط الحربى السليم، ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا. وأحسب أن إستجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمطلبهم، جاءت لرغبته فى تعلّيم الأُمّة-من بعده-احترام نتائج الشورى، وترجيح رأى الأغلبية مهما حدث. وبعد قليل شعر هؤلاء بتأنيب الضمير، لأنهم خالفوا رغبته عليه الصلاة والسلام. ويبدوأنه قد اتضح لكثير منهم-بعد إعادة التفكير بهدوء-أن الصواب هوما اقترحه عليه السلام، من الاكتفاء باتخاذ مواقع دفاعية بالمدينة، لإرهاق جيش الكُفّار، فعادوا إليه يلتمسون منه العدول عن الخروج، وتطبيق رأيه، لكنه عليه الصلاة والسلام كان قد ارتدى ثياب

الحرب، وأخبرهم أنه لا يجوز لنبى إذا استعد للقتال أن يتراجع، إلى أن يحكم الله بينه وبين عدوّه. وهنا نتعلّم درسًا آخر، هوعدم التذبذب، وثبات القائد–فى مثل تلك المواقف–حتى لا يحدث اضطراب وبلبلة للرأى العام، وتأثير سلبى على معنويات الجنود، بالقرارات السريعة المتناقضة. وخرج عليه الصلاة والسلام بأصحابه من طريق آخر غير مألوف، لمفَاجأة العدو، واتخاذ موقع مُناسب قبل بدء القتال. وقد تراجع زعيم المنافقين عبد الله بن أبُىّ بن سلول–لعنه الله–بثلث القوات، غاضبًا من إستجابة النبى لرأى الأغلبية، وعدم الأخذ برأيه الشخصى فى البقاء بالمدينة..لكن هذا لم يُؤثر على معنويات الباقين. وواصل الرسول صلى الله عليه وسلم السير، حتى نزل بالمسلمين إلى جوار جبل"أُحُدْ"وكانوا سبعمائة فقط، أى أن عدد جيش المشركين كان أربعة أضعاف عدد المسلمين. وهكذا كان الحال فى كل المعارك الكبرى فى تاريخ الإسلام.فالنصر مِن عند الله، بالعقائد لا بالأعداد. وصَدَقَ الله العلىّ العظيم: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). سورة البقرة 249

50- خطأ الرماة

وَضَعَ الرسول صلى الله عليه وسلم خطة عسكرية مُحْكَمَة.فقد عَسْكَر بالجيش فى موقع جيّد، وجعل ظهره إلى جبل"أُحُدْ"ليُشَكّلَ هذا حماية وتحصينًا طبيعيًا للمؤخرة، وأمر خمسين من الرُمَاة الماهرين، بقيادة عبد الله بن جبير، رضى الله عنه، بالمرَابَطَة فى مكان مرتفع، للتصدّى لمن يُحَاول التسلّل مِنْ المشْرِكِين خلف خطوط المسلمين، ورشقهم بالسهام والحجارة. ونهاهم صلى الله عليه وسلم عن ترك المكان لأى سبب كان، مهما كانت تطورات المعركة سلبًا أم إيجابًا. وكان هذا تخطيطًا عبقريًا، شهد له الخبراء العسكريّون حتى من غير المسلمين. ونجحت الخطة فى بداية المعركة، وفشل فرسان قريش فى الاقتراب من مُؤخّرة الجيش بسبب بسالة الرماة. وقد كان مع المشْرِكِين ٢٠٠ من الفرسان، ولم يكن مع المسلمين من الخيل شىء، فهم جميعًا من"المشَاة"بلغة عصرنا. ورغم التفوّقْ العددى لقريش-وفى العتاد أيضًا-كان تفوّق أبطال الإسلام واضحًا منذ بداية المعركة، وسقط ٢٢ قتيلًا من الكُفَّار، منهم حامل اللواء-وكان من بنى عبد الدار-وتَسَبّب سقوطه قتيلًا، وسقوط لواء الشِرْكْ، فى إثارة الرُعْبْ فى قلوب خالية من العقيدة، فأطلقوا سيقانهم، يُسابقون الرياح، هاربين فى إتجاه مكة، وكانت الهزيمة الساحقة-للمَرّة الثانية-قاب قوسين أوأدنى. وبدأ بعض المسلمين بالفعل فى جمع الغنائم التى تَرَكَهَا المشْرِكُون وراءهم.. وهنا ارتكب الرُمَاة المرَابِطُون بأعلى الجبل الخطأ القَاتِل، الذى تَسَبّب فى انقلاب النتائج رأسًا على عقب.فقد طمع أغلب الرُمَاة فى الغنائم، رغم أن النبى صلى الله عليه وسلم هوالذى يُقَسّمَهَا بين الجميع، على سبيل العدالة والمساواة، كما أمره ربه. ولا فضل لمنْ يَجْمَعهَا على مَنْ دَافَع عن ظهر الجيش، ولا على مَنْ يحمون النبى، فالكل له دوره الضرورى، وله نصيبه من الغنائم، وتوزيع"الأنفال"يتم بنظام دقيق، أنزله الله تعالى بآيات من فوق سبع سماوات.لكن حُب المال أغرى مُعْظَم الرُمَاة، رغم تحذير قائدهم عبد الله بن جبير لهم من عصيان أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعليماته بالبقاء فى الموقع، سواء انتصر الجيش أم هُزِمْ. ولم يبق مع ابن جُبَير سوى عشرة فقط. وعلى الجانب الآخر كان خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين يُراقب الموقف، ولاحظ نزول معظم رُماة المسلمين من أعلى، فانتهز الفرصة السانحة، وانقض بفرسانه المائتين، على المسلمين من الخلف. ورغم بطولة بن جبير والعشرة الذين ثبتوا معه، فقد عجزوا عن صَدّ هذا العدد الكبير من الفرسان، وقاتلوا جميعًا حتى نالوا شرف الشهادة.. والنتيجة الطبيعية فى مثل هذا الموقف العصيب، هى حدوث حالة من الفوضى والإضطراب فى صفوف المسلمين، الذين حُوصروا بين الفرسان القادمين من الخلف، وبين باقى جيش

الكُفّار، الذى كَرّ عائدًا، بعد أن تم إختراق صفوف المسلمين، عبر الثغرة التى خَلّفَهَا تَخَلّى الرُمَاة عن موقعهم. وقاتل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعه عشرات من أصحابه ثبتوا حوله يحمونه بأجسادهم، واستشهد كثيرون منهم، بعد أن تلقّوا السهام والطعنات، بدلًا منه عليه الصلاة والسلام. واستبسل دفاعًا عنه طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام و"أبودجانة"سَمّاكْ بن خَرْشَة وأبوعبيدة بن الجراح وعلى بن أبى طالب وسعد بن مُعاذ وقتادة بن النعمان ومالك بن سنان وغيرهم.كما قاتل أسد الله ورسوله"حمزة بن عبد المطّلِبْ"ومُصْعَب بن عُمَير وأنس بن النضر-حتى استشهادهم -ضمن سبعين من سادات الصحابة، كَتَبَ الله لهم الشهادة فى"أُحُدْ"رضى الله عنهم ورضوا عنه. وحتى النساء، كانت منهن مَنْ سَجّلَتْ-بدمائها-أروع صفحات البسالة والفِدَاء، فى وقت الشِدّة.فقد قاتلت أُمْ الأبطال"نُسَيّبَة بنت كعب"الأنصارية، رضى الله عنها، دفاعًا عن نبيها، وتلقت الطعنات فى جسدها، لتفتديه بنفسها، ونجحت مع عدد قليل من الرجال فى حماية وتأمين الرسول، بعد إصابته بجراح بالغة، وصعدوا به إلى موقعٍ أكثر تحصينًا، بأحد الأماكن المرتفعة من الجبل، وسط شائعات أطلقها المجرمون عن مقتله..لكن الصحابى الجليل"كعب بن مالك"عَرَفَهُ من نور عينيه الشريفتين الجميلتين، المشْرِقتين تحت القناع، وصاح كعب مُبَشّرًا المسلمين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حَىّ يُرْزَق، فارتفعت الروح المعنوية، لمنْ كانوا قد ضعفوا أوتراجعوا، وسارعوا إلى الاحتشاد، وتنظيم الصفوف مَرّة أُخْرَى، لمواجهة المشرِكِين، بإيمان كالجبال الرواسى، وعزائم مِنْ حَدِيدْ .

51- الله أعلى وأَجَلّ

تمَكّنَ المسلمون مِنْ صَدْ الهجوم المضَاد.. وتراجع المشركون دون تحقيق نصر حاسم..فرغم استشهاد ٧٠ بطلًا، بقى أضعافهم، وحفظ الله نبيّه ووزيريه-الصِدّيق وعمر-وغيرهما من كبار الصحابة، لأنه سبحانه وتعالى، يدّخَرَهُم لأدوار كبرى فيما بعد. وقد ارتكب المجرِمون فظائع قبل انسحابهم، ظلّت عارًا وفضيحة، يستحيل محوها من سجلات التاريخ، وهى التمثيل بأجساد شهداء المسلمين. ووصل الحقد المسعور بهند بنت عُتْبَة إلى درجة بقر بطن الأسد الشهيد"حمزة"ومحاولة مضغ قطعة من كبده، لكنها لفظتها من فمها لمرارتها!وكذلك جدعوا أنف عبد الله بن جحش، وقطعوا أطراف آخرين من الشهداء. ويكفى أن المسلمين تَعَفّفُوا فى"بدر"وفيما بعد-بل دائمًا-عن ارتكاب مثل تلك الأفعال الدنيئة..فالمسلم الحَقّ فارس شريف، لا يغدر ولا يَمْثُل ولا يتشفّى إذا انتصر. وقد دفن المسلمون قتلى المشركين السبعين فى بدر، مراعاة لحرمة الجسد الإنسانى، ولم تقع حالة تمثيل واحدة بالجثث، على مر التاريخ الإسلامى- ١٤ قرنًا -فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن"المثلة"ولوبالكلب العقور.. ورفض عليه الصلاة والسلام قطع لسان"سُهيل بن عمرو"أحد أسرى بدر، الذى كان يهجوه، وقال: (لا أمثُل فيمثُل الله بى وإن كنت نبيًا) رواه ابن إسحاق والحاكم.. وقال لعمر بن الخطاب صاحب الاقتراح: (لعلّه يقوم مقامًا لا تَذُمّه) رواه ابن إسحاق. وبالفعل أسلم سُهيل فيما بعد، وصار من ألسنة الإسلام وخطبائه المعدودين. وهناك أحاديث صريحة قاطعة تنهى عن قتل النساء والأطفال والرُهبان والمدنيين غير المحاربين، كما تحظر حرق الزرع أوتخريب أوهدم بيوت عبادة أهل الذِمّة ومساكن الخصوم..إلخ.. وكان أصعب المواقف فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم عندما وقف على جسد عمه الشهيد، ورأى ما صنع به الحاقدون المسعورون.لكن الله تعالى أنزل عليه بعد ذلك آيات خالدات، تأمر بالعدل فى العقاب، وتُرشد المسلمين إلى أن الصبر وضبط النفس أفضل، وأن الترَفّع عن مُشابهة الكافرين أجدر بهم. وقد حاول "أبوسفيان"زعيم المشركين التنصّل من عار التمثيل بالجُثَثْ، فقال فى مُساجلته مع الفاروق عمر، عقب المعركة :"ستجدون مُثْلَة لم نأمر بها، ولم نكرهها"! أى أنه رغم مُحاولة التَهَرّب من الفضيحة، يأبى إدانة هذا التصرف المشين!ونُلاحظ هنا أيضًا أن خصوم الإسلام مِن المؤرخين لم يذكروا شيئًا عن هذه الفظائع، والسبب بالطبع هوأن مَنْ ارتكبوها ليسوا من المسلمين! ومن الخطأ البالغ تسمية ما جرى فى"أُحُدْ"بالهزيمة، بل هوانتصار للمنهج-كما وصفه العَلّامَة الشعراوى رحمه الله-لأن عصيان الرُماة لأمر النبى سبب لعدم التوفيق (انتهى). والحق أنه لم يكن مقبولًا ولا معقولًا أن

يُخالف البعض أمر النبى صلى الله عليه وسلم، ومع هذا يتحقّق لهم النصر، وكان لابُدّ من الدرس القاسى، لتتعلّم الأُمة بأسرها إلى يوم القيامة أن الخير والفلاح فى طاعة الله ورسوله، وأن المعصية لا نتيجة لها غير الخيبة والخسارة فى الدارين.ثم أن المشركين خسروا فى"بدر"سبعين قتيلًا وسبعين أسيرًا، أى ضعف عدد شهداء المسلمين فى"أُحُدْ"، وانصرفوا دون تحقيق الهدف الأساسى، وهوالقضاء على النبى ومن معه. ويؤيد رأينا هذا أنهم أفاقوا فى طريق العودة إلى مكة، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا..تركتموهم ولم تبتروهم-تقضوا عليهم-فقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم.فلنرجع لنستأصل بقيتهم..لكن معبدًا الخزاعى-وكان لم يزل مُشركًا فى ذلك الوقت-مَرّ بالمسلمين الذين تَجَمّعُوا فى منطقة"حمراء الأسد"رغم جراحهم، لملاقاة الكافرين من جديد.، فأخبر"أبا سفيان"أنه رأى حشدًا هائلًا مع محمد فى"حمراء الأسد"وبهم من الغيظ والغضب ما لم يره من قبل، وأن أهل يثرب جميعهم خرجوا طالبين الثأر لقتلاهم فى "أُحُدْ". واستبد الرُعْبْ بالكُفّار فور سماع ما قال"معبد"فوَلّوا هاربين إلى مكة قبل وصول المسلمين. وأحسب أن مناظرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، مع أبى سفيان فور انتهاء القتال هى خير تلخيص لما وقع فى"أُحُدْ".إذ هتف زعيم الكافرين:أ فى القوم محمد ؟ أفى القوم أبوبكر ؟ أفى القوم عمر بن الخطاب ؟ فلم يسمع ردًا فقال : أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا..فلم يتمالك عمر نفسه وصاح به:إن الذين ذكرت أحياء يا عدوالله، وقد أبقى الله لك منهم ما يسوءك.. فصاح أبوسفيان:أُعْلْ "هُبَل"(يقصد صنمهم).فأمر النبى عمرًا أن يُجيبه:الله أعلى وأجَلّ..صاح الكافر:لنا العُزّى (صنم آخر) ولا عُزّى لكم..رد الفاروق: (الله مولانا ولا مولى لكم) فقال أبوسفيان:يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، والأيام دُوَل..فأمر النبى عمرًا فأجابه:لا سواء..قتلانا فى الجَنّة وقتلاكم فى النار.قال أبوسفيان:موعدنا"بدر"فى العام القادم..فرد عليه الفاروق: نعم هوبيننا وبينكم موعد. والواضح من الحوار أن المعركة لم تحسم الأمر، لهذا طلب زعيم المشركين موعدًا للقتال من جديد، لأنه لم يتحَقّق لهم ما أرادوا من القتال. وإذا لم تُحقّق المعركة أهدافها، فليس من حق أحد الطرفين أن يزعم تحقيق النصر فيها..كما أن الشهادة هى أعظم ما ينال المسلم، ومَنْ لم ينالوا شرفها فقد أبقِاهم الله، ليواصلوا الجهاد، وليرفعوا راية الحق والتوحيد على الأرض.

٥٢- كرامات خبيب بن عدى وأصحابه

مِنَ الوقائع التى أَكّدَت ضرورة وجود جيش قوى، لحماية دولة الإسلام، وردع أعدائها الكثيرين، ما جرى لبعثة خُبَيْب بن عدى وأصحابه..فقد جاء نفر من أعراب"عَضَلْ"و"القارة"إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فزعموا أنهم أسلموا، وطلبوا منه إرسال بعض أصحابه معهم لدعوة وتعليم قومهم. وأرسل عليه الصلاة والسلام معهم ستة من الدُعاة هم : مرثد بن أبى مرثد وعاصم بن ثابت وخبَيْب بن عدى وزيد بن الدّثنة وعبد الله بن طارق وخالد بن بكير. وما كادوا يصلون إلى موضع بئر ماء"الرجيع" بالصحراء، حتى غَدَرَ بهم الأعراب، واستصرخوا عليهم قبيلة"هُذَيل"فأحاط بهم عشرات الرُماة والفرسان، وطلبوا منهم الإستسلام، مع عهد ووعد بعدم قتل أحد منهم. ورفض ثلاثة من الصحابة تسليم أنفسهم لمشْرِكِين غادرين، وقاتلوا حتى استشهدوا-وهم عاصم ومرثد وخالد-رضى الله عنهم. وكان الهذليون يطمعون فى بيع جثة عاصم لإمرأة من قريش قتل عاصم ولديها فى غزوة"بدر"ونذرت أن تشرب الخمر فى جمجمته، ولكن ظهرت له كرامة ثابتة أمام الجميع.فقد اجتمعت حول جسده رضى الله عنه، أسراب هائلة الأعداد من النحل، مَنَعَتهم من الاقتراب منه، فانتظروا رحيلها ليلًا، لكن سيلًا جارفًا اكتسح المكان فى المساء، واختفى الجسد الطاهر تمامًا، فعلم المشركون أنه ممنوع منهم. وكان عاصم قد نذر ألّا يَمَسّ كافرًا طوال حياته، فأكرمه الله بعد استشهاده، وأبَرّ قَسَمَه، فلم يلمسه أحدهم، ووارى جسده الطاهر بعيدًا عن أعينهم. وعندما وجد الرابع"عبد الله بن طارق"أنهم ربطوه مع صاحبيه الآخرين، أيقن أنهم قد غدروا بهم، فأفلت من القيود وقاومهم، حتى استشهد بدوره رضى الله عنه. وهكذا لم يعد فى قبضة الهذليين، سوى خُبَيْب بن عدى وزيد بن الدّثنة، فباعوهما فى مكة، بمبلغ كبير من المال، لأقارب قتلاهما فى"بدر"للثأر منهما. وعندما عَلّقوا زيدًا على خشبة، تمهيدًا لقتله، سأله"أبوسفيان بن حرب":ناشدتك الله يا زيد:أيسرك أنك الآن سالم فى أهلك، وأن محمدًا مكانك، ويُقْتَلْ بدلًا منك ؟ فأجاب زيد رضى الله عنه بكل ثبات:والله ما يسرنى أننى سالم فى أهلى، وأن النبى صلى الله عليه وسلم تُصيبه شوكة فى قدمه، فكادت الدهشة تذهب بعقول الكافرين، وهتف"أبوسفيان":ما رأيت أحدًا يُحِبُ أحدًا، كما يحب هؤلاء محمدًا! ونال زيد نعمة الشهادة، إذ قتله صفوان بن أُمَيّة بأبيه الهَالِكْ فى بدر.

وأمّا خبيب بن عدى فقد شهدت التى حبسوه فى بيتها بمكة قبل قتله كرامة ثابتة له.تحكى المرأة أنها رأت بيد خبيب قُطْفًا ضخمًا من العنب، فى غير أوانه، وما فى مكة بأسرها حَبّة منه! وأنه استعار منها شفرة حادة لإزالة شعر جسده قبل الاستشهاد، وفى غفلة منها زحف طفلها نحوه، فأجلسه على ساقه. ورُوّعَت المرأة، ظَنًّا منها أنه سينتقم من قومها بقتل الطفل، لكنه رضى الله عنه هدّأ روعها، وأخبرها بأن أخلاقَ الإسلام تمنعه من أن يؤذى طفلًا بريئًا لا ذنب له، رغم غدر الآخرين به. وكان لهذا الموقف النبيل تأثير عظيم على نفس المرأة، واهتدت للإسلام بعد ذلك. وخبيب بن عدى–رضى الله عنه–هوأول من سَنّ صلاة ركعتين قبل الاستشهاد، إذ طلب من الكافرين إمهاله للصلاة قبل قتله فوافقوا. وبعد أن صلى قال لهم:لولا أن تظنوا بى الجزع من القتل لزدت فى الصلاة.. ودعا رَبّه قائلًا: اللهم أبلغ عنا نبيك.. (اللهم أحصهم عَدَدًا، وأهلكهم بَدَدًا، ولا تذر على الأرض منهم أحدًا) وهو–رضى الله عنه–القائل قبل استشهاده:

فلست أبالي حين أقتل مُسلمًا & على أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

ولست بمبدٍ للعدوتخشّعًا & ولا جزِعًا إنّي إلى الله مَرجعي.

وروى الإمام البيهقى عن عمروبن أُميّة الضمرى أنه تَسَلّل إلى مكة –بأمر النبى–وانتهز فرصة سنحت له، بخلوالمكان الذى عَلّقُوا فيه جسد خبَيْب، فصعد بسرعة إليه، وقطع الحبال، فنزل خبيب على الأرض. وبعدها بثوانٍ معدودات تلفت عمروحوله فلم يجد جثمان صاحبه الشهيد، فقد أخفاه الله جَلّت قدرته، وهكذا نال خبَيْب كرامة أُخْرَى، مُماثلة لكرامة صاحبه الشهيد مثله"عاصم بن ثابت".رضى الله عن الجميع وأرضاهم.

٥٣ – غدر عند البئر

لعل واقعة الغدر بعشرات المدنيين المسالمين قرب بئر "مَعُونة"وأمثالها، تكون ردًا كافيًا لإسكات مَنْ يعيبون على المسلمين اضطرارهم إلى حمل السلاح، دفاعًا عن النفس.فحسب رواية "ابن إسحاق"كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل أربعين من خيرة شباب الأنصار، للدعوة إلى الله في منطقة "نجد"بطلب من عامر بن مالك بن براء. وعندما أبدى النبي تَخَوّفه من أذى المشْرِكين النجديين لهم، أعلن عامر بن مالك أنه يُعْطِيهم الأمان في جواره، وتحت حماية قبيلته، ذات العدد الكبير بما يكفي لتأمين الدُعَاة. وحسب رواية"البخاري"فإنهم كانوا في طريقهم إلى منطقة أُخرى لغرض آخر، وأن قبائل"رَعْلْ"و"عصية"و"زكوان" و"لحيان"اعترضوا طريقهم عند بئر"مَعُونَة"وحاول الصحابة رضي الله عنهم التفاهم مع تلك القبائل التي حاصرتهم من جميع الجهات فجأة، وقال لهم الصحابة بالنص: (والله ما إياكم أردنا، وإنما نحن مُجْتَازون– عابرون للسبيل–في حاجة للرسول صلى الله عليه وسلم) بمكان آخر.لكن القوم أمطروهم بالنبال –السهام– وأعملوا فيهم السيوف، حتى استشهدوا جميعًا، رضي الله عنهم، بإستثناء عمروبن أميّة الضمري، الذي أسروه، ثم أطلقه المجرم ابن الطفيل كبير الكافرين الغادرين بالمنطقة، وفاءً بنذر على أُمّه فيما زعم.. وفي طريق عودته إلى المدينة لقي عمرورجلين من تلك القبائل المجْرِمَة قاطعة الطريق، فقتلهما انتقامًا لأصحابه. ولم يعلم أن لهذين الرجلين شأن آخر خلاف قومهما، إذ كان لهما عهد وأمان من النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا صَمّمَ النبي على دفع ديتهما، رغم فاجعة استشهاد كل هذا العدد من الصحابة الأخيار. وهذا درس للإنسانية كلها في الوفاء بالعهد، مهما كانت الظروف، حتى لوخان الآخرون العهود والمواثيق. وهوعليه السلام الذي عَلّمَنَا–في مناسبة أخرى–أنّه:" لا يحل في ديننا الغدر "و((إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) رواه أبوداود والبيهقي.أي لا يجوز له أن يغمز بعينه، أوأن يشير إشارة خفية لبعض أتباعه لخداع أوقتل رجل بغير أن يشعر. وقد كَتَب الله لهؤلاء الأنصار الأبرار الشهادة في سبيله، وقالوا –فيما أخبر به الوحي–بَلّغ قومنا أنّا قد لقينا ربنا، فرضي عَنّا وأرضانا. وهذه الواقعة تُلْقي مزيدًا من الأضواء على الظروف التي كانت تُحِيط بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وإذا كان عليه السلام قد مَكَثَ ١٥ سنة – ١٣عامًا في مكة وعامين بالمدينة– قبل الإذن له بالقتال، فمن المستحيل استمرار الحياة هكذا، وسط هؤلاء الأعراب الجُنَاة الخائنين، الذين لا يخشون في مسلم رَبًّا، ولا يحترمون حلفًا، ولا يُرَاعُون عهدًا. وكان من الضروري أن يحمل المسلمون السلاح، لحماية الدولة الناشئة من ناحية، ولتأمين الأفراد خارجها من ناحية أخرى.. وليس من الحكمة أن يرى القائد استمرار نزيف الدم بين أصحابه غدرًا وغِيلَة هكذا، ثم يظل مُسْتَسْلِمًا، ويكتفي مع رجاله، بتلقي الضربات القَاصِمَة باستمرار دون رَدّ!ولهذا نَزَلت آيات الإذن بالقتال

دفاعًا عن النفس أولًا، ثم فى مرحلة تالية فَرَضت الأوضاع الإنتقال إلى مرحلة توجيه الضربات الإستباقية للمُتَرَبّصين بالمسلمين، لفرض احترام حقوقهم، وتأمين الحق فى الحياة، وحرية العقيدة، والدعوة إلى الله بسلام فى كل مكان. والخُلاصة أنه: لم يكن هناك سبيل آخر لردع المعْتَدِين، وكف أذاهم عن المسلمين، بغير القتال.. وآخر الدواء الكَىّ، كما يقولون، وأن (للدعوة بالرفق واللين والموعظة الحسنة موضعها.. وللسيف موضعه أيضًا)

٥٤- مُحاولة اغتيال فاشلة

لم يمض من الزمن إلا القليل، حتى عاد اليهود إلى نكث العهود وتهديد السلم والأمن فى المدينة.فقد ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير، ليطلب منهم المساهمة فى سداد ديّة الرجلين اللذين قتلهما عمروبن أمية الضمرى خطأ. وكان بنوعامر حلفاء لبنى النضير، وهذا يُفسّر لماذا طلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلم المشاركة فى ديّة القتيلين من حلفائهم، ولم يطلب ذلك من بنى قريظة. وتظاهر بنوالنضير بالموافقة على طلب النبى صلى الله عليه وسلم، وطلبوا منه الجلوس وتناول بعض الطعام إلى أن يجمعوا المال، الذى يشاركون به فى تحمّل الدية.لكنهم كانوا-لعنهم الله- يدبّرون جريمةً منكرة، هى أن يصعد أحدهم- عمروبن جحاش بن كعب-إلى أعلى الحصن، ليُلقى صخرة كبيرة على الرسول، فيقتله، ليتخلصوا من الإسلام بذلك كما ظنّوا..لكن الله تبارك وتعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى نبيّه، ليحذّره من محاولة الاغتيال الآثمة، فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من المكان، فورًا، قبل تنفيذ الخبثاء لمخططهم الإجرامى اللعين. وهنا أيضا نتساءل:ما هوالتصرف الذى تتخذه سلطات أية دولة معاصرة عند ضبط محاولة لاغتيال رئيس البلاد؟!هل تحيط أعناق المجرمين المتورّطين بالأزهار والرياحين؟!أليست محاولة قتل رئيس الدولة خرقًا إجراميًا للدستور والقانون، وتهديدًا سافرًا لأمن البلاد واستقرارها، فضلا عَمّا فى هذا الأسلوب من خِسّة وغدر ودناءة ترفضها كل الأعراف، بل الفطرة السليمة والعقول المستقيمة؟!وهل يُؤمَن جانب هؤلاء بعد ذلك؟لكل ما سبق كان من الضرورى إبعاد خَوَنَة بنى النضير من المدينة فى الحال، حفظًا للسلام والأمن، لأن ترك أمثال هؤلاء القتلة الخبثاء سيكون من سوء السياسة وعجز الرأى، وحاشا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون هذا حاله.. ورب البيت العاقل الحكيم لا يترك الأفاعى السامة، لتصول وتجول داخل المنزل، فتنهش فلذات كبده، وتبث سمومها فى كل الأرجاء.. وسرعان ما أرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه، ليأمرهم بمغادرة المدينة.لكنهم رفضوا، واستمروا فى العصيان والتمرد، بعد أن راسلهم المنافقون، وأطمعوهم فى مناصرتهم ضد المسلمين. وتحصّن بنوالنضير فى قلاعهم

وحصونهم، كما فعل أسلافهم من بنى قينقاع، لكنهم لم يقدروا على الاستمرار، خاصة بعد أن أخلف المنافقون وعودهم، وتخلّوا عنهم. ولم يجدوا فى نهاية الأمر مفرًا من طلب الصفح من الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يأذن لهم بالرحيل عن المدينة بأطفالهم ونسائهم وأموالهم، فوافق على ذلك، بشرط واحد، هوألا يخرجوا بأى سلاح معهم. وهذا شرط بديهى ومفهوم تمامًا فى مثل تلك الظروف.فقد أظهر القوم غدرًا ولؤمًا ونيةً مبيّتةً فى النيل من الإسلام ونبيّه عليه الصلاة والسلام، وترك السلاح بحوزتهم خطأ سياسى وعسكرى فادح تكون له عواقب وخيمة فيما بعد. ولهذا فقد أبدع الحاكم والرسول صلى الله عليه وسلم فى قراره الصائب بتجريد الغادرين من أسلحتهم، ليأمن المسلمون شرورهم.

٥٥- الخندق

لم يحضر المشركون فى السنة الرابعة إلى"بدر"تنفيذًا لما قالوا مِن قبل..فقد تَهَرّب زعيمهم"أبوسفيان بن حرب"بحُجّة أن العام كان قَحْطًا، فلا مطر ولا عشب للإبل والأغنام، ولا ثمار ولا ألبان. ولكن"حيي بن أخطب"زعيم يهود بنى النضير المطرودين من المدينة لم يتوقّف-مع آخرين يهود أيضًا-عن تحريض زعماء قبائل الجزيرة ضد النبى صلى الله عليه وسلم والدين الذى جاء به، وأقنعهم بأنه يُهَدّدْ مصالحهم وامتيازاتهم، ويساوى بينهم وبين عبيدهم، ولابد من القضاء عليه، قبل أن يتجرّأ هؤلاء عليهم، فيفقدون الوجاهة والثراء. وهكذا نجحت شياطين الإنس والجن فى حشد أكثر من عشرة آلاف مقاتل، جاءوا من جميع الأنحاء، فى السنة الخامسة بعد الهجرة، بهدف مُدَاهمة يثرب، والقضاء التام على المسلمين والإسلام. وكان هذا هوأكبر حشد عرفه تاريخ الجزيرة العربية فى ذلك الزمان. وتواترت أنباء الحشود الهائلة إلى المدينة، فبادر الرسول صلى الله عليه وسلم-كعادته-بعقد إجتماع طارئ لمجلس الشورى فى المسجد النبوى الشريف. وفى هذه المرّة استفاد المسلمون من درس"أُحُدْ" فلم يُجادل أحد فى صواب الرأى الحكيم، بوضع النساء والأطفال فى الحصون المرتفعة لحمايتهم، وأن يتخذ الرجال مواقع دفاعية حول مختلف مناطق المدينة، لإجبار المعتدين على التراجع، أوالبقاء خارجها.فإذا أَصَرّوا على اقتحامها، فليس أمامهم سوى الانتشار فى الشوارع والحارات الضيّقة، فيسهل صَدّ هجماتهم، ونصب الكمائن لهم، واصطيادهم فرادى وجماعات.لكن أعداد الجيش المعْتَدى كانت هائلة هذه المرّة، فكان من الضرورى أن يبحث المجتمعون عن حل للتَغَلّب على المشكلة، وتعويض الفارق العددى الكبير. وقَيّضَ الله لها الصحابى الجليل"سلمان الفارسى"رضى الله عنه.فقد تذَكّر حيلة حربية قديمة كان قومه

يستخدمونها ضد الجيوش التى تغزوهم، هى حفر خنادق واسعة تعوق عبور الخيول والإبل والمشاة، فتمنع اقتحام المدن والقرى بهذه الطريقة الرائعة زهيدة التكاليف. ومن تدبير الله تعالى لنبيه ودينه، أن المدينة تُحيط بها مُرتفعات عديدة، وهى تُشَكّل موانع طبيعية جَيّدَة بدورها.. وهذا يجعل حفر الخندق أيسر، وأقل مجهودًا وأقصر وقتًا، لأنه سيكون فى جانب واحد فقط، وتتكَفّل الجبال بالباقى.. وليت الخُصُوم المفْتَرُون على الإسلام يُلاحِظون هنا هذه ((الخطّة الدفاعية البحتة)) فى الاكتفاء بالبقاء داخل المدينة وتحصينها وحفر خندق لحقن الدماء، وإجبار المعْتَدى على التراجع..فهل يكتفى (الإرهابى) بالبقاء فى بيته وتحصينه واتخاذ وسائل دفاعية بحتة هكذا ؟! أو ليس غير المسلمين الذين قدموا للبغى والعدوان–من مسافات بعيدة–هم بوصف الإرهاب أجدر، وإلى الظلم والطُغيان أقرب ؟! وعلى الفور وافق الجميع على الاقتراح العبقرى، وشرعوا فى التنفيذ بأقصى سرعة، لأن حشود الكافرين كانت قد بدأت تحركاتها من مواطنها، وما هى إلا بضعة أيام، حتى تصل طلائعها إلى مشارف يثرب. وقَدّمَ الهادى البشير صلوات الله وسلامه عليه القدوة الحسنة فى التضحية والتواضع والعمل الجاد المتَوَاصِل، ومواساة النبى والقائد لجنوده بنفسه الشريفة، فشاركهم فى الحفر بيديه، وهوبنص الحديث: "سيد ولد آدم ولا فخر"كما شاركهم الطعام القليل المتواضع، وهوالتمر والماء معظم الأيام..بأبى هووأمى ونفسى وولدى..صلى الله عليه وسلم دائمًا أبدًا، كما يُحِبُ ويَرْضَى.. ومن دلائل النُبُوّة أنه صلى الله عليه وسلم بَشّرَهم–فى ذلك الوقت العصيب–بفتح فارس والشام واليمن.. وراح المنافقون يُشكّكون–كالعادة–فى هذه البشارة، ويتهامسون بينهم:"يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه من الذهاب لقضاء حاجته فى الخلاء"؟! لكن ما أخبرهم به عليه السلام، ما لبث أن تحَقّقَ بعد ذلك ببضع سنين.((وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوإِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)) سورة النجم:٣––٤

٥٦ – غدر اليهود

اتخذ النبي وأصحابه جَبَلَ"سلع"حصنًا طبيعيًا يحمى ظهورهم، وجعلوا الخندق مانعًا يحجز بينهم وبين جيش المشركين.. والحقّ أنها كانت خطة رائعة تعتمد على استنزاف وإنهاك العدو، بدون إلتحام مُباشر، ومع مرور الوقت، يستبد اليأس والإرهاق والذُعْرْ بالكُفّار، بتأثير الخسائر اليومية فى البشر والخيل والإبل. وبكل تأكيد، لن يحتملوا البقاء على هذا الحال سوى فترة قصيرة. وفى المقَابل كان على المعَسْكَر الإسلامى التحلّى بالصبر والعزيمة والجَلَدْ، فى مُواجهة هؤلاء، إلى أن يرحلوا.لكن المنافقين لم يتركوا المجاهدين وشأنهم، بل راحوا يُكْثِرُون الشائعات والأقاويل لإضعاف الروح المعنوية لدى الصحابة.فمنهم من طلب الانصراف بحجة وجود خطورة على النساء والأطفال الذين هم فى الحصون.. ومنهم من لجأ إلى التشكيك –كما تَقَدّم–قائلًا:يعدنا محمد بفتح قصور كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن الذهاب لقضاء حاجته فى الخلاء بمفرده!ولم يعلم المنافق أن هذا من آيات نبوته، إذ أوحى رَبّه إليه بأخبار هذه الفتوح، فى وقت عصيب يستحيل فيه على بشر أن يتوقّع أوأن يتنبأ بمثل هذا! وكان أخطر ما جرى هوانضمام يهود"بنى قريظة"إلى التحالف الكافر ضد الإسلام والمسلمين، فهم القبيلة الوحيدة الباقية من اليهود داخل المدينة، وفى هذا خطورة بالغة على الجيش الإسلامى، لوتجرّأ الجُبناء على مُهاجمة النساء والأطفال فى الحصون، فى ذات توقيت هجوم المشركين من الخارج. وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم السعدين (بن مُعاذ وبن عبادة) إلى بنى قريظة للتأكّد من الأمر. وبالفعل سمع السعدان من اليهود تطاولًا سافلًا بذيئًا على نبى الرحمة، وجهرًا دنيئًا بالعداء وفاحش القول، ظنًّا منهم أن القضاء على المسلمين جميعًا أمر وشيك لا شك فيه. وقالوا لهما بكل وقاحة: لا عهد لصاحبكما عندنا ولا عقد! ولم يكتفوا بهذا، بل أرسلوا أحد الجواسيس، لإستطلاع أحوال الحصون، تمهيدًا لإقتحامها.لكن السيدة صفية بنت عبد المطلب–عَمّة النبى–تصدت للجاسوس، وبضربة قوية بعمود خيمة أردته قتيلًا. وكان هذا كافيًا لردع أعداء الله، وتوقّفهم عن مهاجمة الأطفال ونساء المسلمين فى الحصون.. ولتفتيت وتفكيك جبهة الأعداء، استشار الرسول صلى الله عليه وسلم السعدين (كُلّ منهما سيد قومه مِن الأوس والخزرج) فى منح أعراب غطفان ونجد ثُلث ثمار"تمر"المدينة مقابل انسحابهم، وهوأمر–إن تم–يكفل إضعاف جبهة الكُفْرْ، وانسحاب الباقين تباعًا. وبعد أن أخبرهما صلى الله عليه وسلم أن هذا اقتراح شخصى منه، وليس وحيًا، كان من الطبيعى أن يرفض الأسدان"السعدان"بكُل قُوّة ونخوة.. وقالا:والذى بعثك بالحَقّ، ما كانوا فى الجاهلية يطمعون أن يأكلوا

منها تمرة واحدة، إلا قِرَى–ضيافة– أوبيعًا، أفبعد أن أكرمنا الله بك وبالإسلام نعطيهم الثلث ؟! والله ما نعطيهم إلا السيف..فدعا لهما النبى صلى الله عليه وسلم بالخير، وأفهمهما أنها كانت مُجَرّد فكرة أحب أن يعرضها عليهما، بعد أن تحالف الكُفّار من العرب جميعًا ضدهم.. وفى مواجهة المكر واللؤم وخِسّة الأعداء، ووسط الشِدّة والتعب والقلق، كانت يد الله تعالى تعمل فى الخفاء..فقد أسلم نُعيم بن مسعود سِرًّا، وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبره أن له علاقات جَيّدَة بالمشركين واليهود أيضًا، وطلب منه تكليفه بما يشاء..فأخبره عليه السلام بأنه رجل واحد، وأن من الأفضل أن يكتم إسلامه، وأن يسعى للتخذيل وإضعاف مُعَسْكَر الشرك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وكان من توفيق الله لنُعَيم رضى الله عنه أن ألهمه فكرة بالغة الدهاء.فقد استثمر صداقته لزعماء قريش، وأثار شُكُوكَهم فى نوايا اليهود وغدرهم، وحَذّرَهُم –على سبيل النصيحة–من الإستجابة لما سيطلبه منهم اليهود، وهوتسليم بعض زعماء قريش، لتحتفظ بهم قريظة، كرهائن، ضمانًا لعدم انسحابهم وترك اليهود بمفردهم، وأفهمهم أن اليهود اتفقوا مع محمد على تسليم رهائن من سادات قريش إليه، لإثبات ولائهم له.. وذهب نُعَيم إلى اليهود، فحَذّرهم من انسحاب وشيك لجيش قريش، بعد فشلهم فى تجاوز الخندق، وتزايد خسائرهم يومًا بعد الآخر.. واقترح عليهم أن يطلبوا منهم رهائن من ساداتهم، ضمانًا لعدم الانسحاب.. وأرسل المشركون إلى اليهود، يطلبون منهم الإنضمام إلى جيشهم للهجوم على محمد، ورَدّ اليهود بأن اليوم يوم السبت، ومن المحظور عليهم أى عمل فيه، وقد علم الكُل عقاب من يحاول القيام بأى عمل فى السبت. وفضلًا عن هذا، قال اليهود إنهم لن يشاركوا فى القتال إلا بعد حصولهم على رهائن من أشراف قريش، ليحتفظوا بهم عندهم، ضمانًا لعدم انسحاب المكيّين فجأة، وترك بنى قريظة وحدهم فى مواجهة محمد وأصحابه. وهنا قال المشركون لبعضهم البعض: صدق والله نُعَيم بن مسعود فيما أخبركم به. وأرسلوا إلى اليهود يَسُبّونهم ويخبرونهم بأنهم لن يعطوهم أحدًا كرهائن.. وهكذا انهار التحالف بين عَبَدَة الأصنام وبين إخوة القردة والخنازير. ومكث الجيشان شهرًا بلا قتال، سوى التراشق بالسهام والأحجار. وفى محاولة يتيمة، نجح أحد أشهر فرسان العرب، وهوعمروبن ود، فى اقتحام موضع ضيّق من الخندق مع بعض فرسان المشركين، وطلب المُبَارَزة، فخرج إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه. ورغم صغر سن علىّ، أيده الله بمدده وحوله وقوته، فصمد فى المبارزة الخطيرة الصعبة، واستطاع أن يحسمها أخيرًا بطعنة قاتلة قضت على فارس قريش، الذى لم يهزمه أحد من قَبْل. ولاذ باقى فرسان الكافرين بالهروب إثر هلاك قائدهم.. وأرسل الله تعالى جنودًا لم يرها أحد،

وبردًا شديدًا، وريحًا عاصفة اقتلعت خيام المشركين، وبعثرت طعامهم، وأطفأت نيرانهم، وانتابهم الرُعْب الذى ينصر الله به رسوله، فأمرهم"أبوسفيان"بالرحيل، وما كاد يركب ناقته، حتى هرول الآخرون خلفه جميعًا، عائدين إلى مكة. وصدق الله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) الأحزاب:٩. وكانت تلك هى نهاية الهجمات على المدينة، إذ استبد اليأس بنفوس الكُفّار، وتأكّدوا من عدم جدوى أية مُحاولات جديدة.. وصدق صلى الله عليه وسلم الذى أخبر أصحابه بأن المشركين لن يُهاجموا المدينة بعد اليوم، بل يغزوهم المسلمون بحول الله. وأنزل الله عَزّ وجَلّ: (ورَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) سورة الأحزاب:٢٥

٥٧- إعدام خَوَنَة بنى قُريظة

حانت لحظة الحساب، بعد رحيل الأحزاب، فانطلق الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لتطهير آخر أوكار الأفاعى بالمدينة المقدّسة، وحُوصر بنوقريظة-كما جرى لأسلافهم المجرمين من بنى قينقاع وبنى النضير ٢٥ ليلة، حتى استسلموا، وطلبوا أن يحكم فى أمرهم حليفهم سعد بن معاذ رضى الله عنه (وكانت قبيلة الأوس حليفًا لبنى قريظة فى الجاهلية) فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك.. وإنه لمِنَ المغالطة وإنعدام الأمانة العلمية أن يتجاهل الحاقدون على الإسلام هذا التسامح، وذلك التساهل غير المسبوق فى التاريخ كله.فمَنْ سواه عليه السلام يسمح للخَوَنَة والمتآمرين باختيار القاضى الذى يحاكمهم ؟!ومَنْ غيره يُوافق على أن يحكم فى القضية الخطيرة حليف للمتهمين الغادرين الفاجرين؟!وكان حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه على حلفائه الخونة هوإعدام البالغين منهم، قتلًا بحد السيف، وأن يُسْبَى الأطفال والنساء. ولا عجب فى هذا الحكم، لأن التوراة التى بأيدى اليهود-اليوم-تنص على قتل كل سكان المدن التى ينتصر عليها بنواسرائيل ذكورًا كانوا أم إناثًا، أطفالًا أم شيوخًا، وتأمر بشق وبقر بطون الحوامل، وإعدام كل كائن حى، حتى البهائم والحيوانات والطيور كلها، ولا يُتْرَكْ منها نسمة على قيد الحياة! فإذا اقتصر حكم سعد رضى الله عنه على إعدام الخونة البالغين من الذكور-أى المقَاتِلين فقط-واستبقاء الصغار والنساء أحياء، فهوالعدل كله، وتم تطبيقه بحزم على مرتكبى جريمة الخيانة العظمى، وهى الرحمة كلها بمَن لم تكن لهم يد فى الغدر ولا الخيانة من الأطفال، ومعهم النساء، اللائى لم يشاركن لا فى القتال ضد المسلمين ولا الغدر بهم ولا نقض الصحيفة. والذين يتباكون على إعدام خَوَنَة بنى قريظة يتجاهلون أن جريمتهم كانت أشد خطرًا وأبعد ضررًا، ولولا عون الله ونصره وتأييده، لكانوا قد شاركوا -مع الأحزاب-فى القضاء التام على الإسلام والمسلمين. وشدّة العقوبات يجب أن تتناسب مع خطورة الجنايات. كما أن جريمة الخيانة العظمى تتضاعف عقوبتها وتغلظ فى أوقات الحروب، وهذا أمر معروف ومُسَلّم به فى كل قوانين دول العالم المعاصرة. وقد كان زعماء اليهود من أخطر عوامل الفتنة والتحريض ضد الإسلام والمسلمين فى سائر أنحاء الجزيرة العربية-كما تقدّم-وهم الذين طافوا بكل القبائل، لتحريضها وحَثّها على المشاركة فى الحملة على يثرب، للقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وراحوا يغرونهم بالأموال والجاه، بالتنسيق الكامل مع مشركى قريش.. وكانت نتائج الشحن والحشد والتحريض بالغة الخطورة.إذ كادت المؤمرة أن تنجح، وتحدث إبادة جماعية للمسلمين. وبدلًا من التعاون مع المسلمين على صدّ العدوان-كما تنص

صحيفة المدينة صراحة–تآمر بنوقريظة مع أعداء الدولة، وخانوا الله ورسوله والمؤمنين، فى أخطر الأوقات وأشدها حرجًا وصعوبةً. وبتر العضوالفاسد ضرورة لا بديل عنها لإنقاذ الجسد. وصدق شاعرنا الكبير أحمد شوقى رحمه الله:

الحَربُ في حَقٍّ لَدَيكَ شَريعَةٌ & ومِنَ السُمومِ الناقِعاتِ دَواء.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، كما يحب ويرضى دائمًا أبدًا.

58- مَلَكْتَ فاسجح

كان العام السادس الهجرى ساخنًا حافلًا بالأحداث.فقد بدأ بخروج المسلمين للثأر من "بنى لحيان"الذين غدروا بخبيب بن عدى وأصحابه، رضوان الله على الجميع.لكن المجرمين هربوا عندما علموا بقدوم الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وتفرّقوا فى أعالى الجبال.. وما كاد النبى يعود إلى المدينة، حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى"الأحمق المطاع"وقومه على مراعى المدينة، فقتلوا راعيًا، وأسروا زوجته، واستولوا على الإبل، وهربوا قبل مجىء الناس. وهنا سَجَّلَ التاريخ بطولة أسطورية للصحابى الجليل"سلمة بن الأكوع الأسلمى"رضى الله عنه، فقد كان أول من رأى خيول المعتدين، فصعد أعلى جبل"سلع"وصاح بأعلى صوته لتنبيه المسلمين، ثم انطلق بأقصى سرعة، ليُطارد العصابة-وحده-ويرميهم بالنبال، وكان من أمهر رُماة العرب، فأصاب بعضهم، وكرّ عليه الباقون، فتراجع ليُطاردوه، وتكَرّرَ هذا الموقف، وبهذا عَطّل هروبهم أطول فترة مُمكنة إلى أن لحقت بهم طلائع فرسان المسلمين. ويصف ابن إسحاق الصحابى"سلمة بن الأكوع"بطل غزوة"ذى قرد"بأنه"كان مثل السبع"وصدق، فما عهد العالم قبل هذا ولا بعده، رجلًا واحدًا –بلا فرس- يناوش بمفرده عشرات الفرسان، ويُصيب منهم الواحد تلوالآخر بسهامه، ولا يتمكّنوا جميعًا من إصابته بخدش واحد.. وقد نجح سلمة رضى الله عنه فى استرداد معظم الإبل من أيديهم، وغنم وحده منهم ثيابًا كثيرة تخلّصوا منها لتخفيف الأحمال وتسهيل الهروب.كما تمكّن من تعطيلهم، ساعات، حتى لحق بهم فرسان الصحابة، واشتبكوا معهم عند موضع عين ماء"ذى قرد"وهرب الفزاريون بعد مقتل وإصابة عدد منهم. ونجحت أرملة الراعى فى الهروب على ظهر ناقة سريعة من إبل الصدقة، وكانت قد نذرت أن تذبحها إن نَجّاها الله. وعندما أخبرته بهذا، ابتسم صلى الله عليه وسلم، وقال:"بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونَجّاك بها، ثم تنحرينها"؟! ثم أخبرها أنه لا نذر فيما لا يملك الإنسان، ولا فى المعصية. وأقام صلى الله عليه وسلم عند ماء"ذى قرد"يومًا وليلة، ليسمع كُل أعراب المنطقة بخروج جيش المسلمين، وليعلموا أن غارة اللصوص قد فشلت، فلا يُفكّر أحد منهم فى إعادة الكَرّة. وطلب البطل سلمة بن الأكوع من الرسول صلى الله عليه وسلم إرساله على رأس مائة فقط من المجاهدين، لغزو"الفزاريين"فى عُقر دارهم، وتأديبهم، وجعلهم عبرة لسائر العرب.فابتسم عليه السلام، وأجابه بجملة تُفيد الإكتفاء بما تحقّق من نصر واسترداد معظم الإبل، وهروب اللصوص بعد قتل وإصابة بعضهم :((يا بن الأكوع.. مَلَكْتَ فاسْجَحْ)) –رواه البخارى ومسلم- وهى عبارة فى ذروة الفصاحة والبلاغة النبوية الشريفة، تحث المسلم على الرفق والإحسان والعفوعند المقدرة، والتَكَرّم على من أقدره الله تعالى عليه.. وكان لهذه الحكمة وبُعد النظر الشريف أثر عظيم، فقد تاب القوم، وأقلعوا عن السلب والنهب، وأسلموا-فيما بعد .صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، كما يحب ويرضى.

٥٩- تحرير بنى المصطلق

وفى العام السادس الهجرى أيضًا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة من أصحابه، لصَدّ عدوان بنى المصْطَلق، الذين احتشدوا تمهيدًا للهجوم على المدينة. والتقى الجمعان عند عين ماء"المريسيع"وعرض النبى صلى الله عليه وسلم عليهم الإسلام، ومنع القتال، وحقن الدماء، فأبى زعيمهم الحارث بن ضرار إلّا الحرب! وما هى إلّا ساعات قصار حتى سقط من بنى المصْطلق عشرة من القتلى، وتم أسر باقى أفراد القبيلة بالكامل، وكانوا مائة بيت، أى مئات النساء والأطفال. وهنا يُعطى الرسول صلى الله عليه وسلم درسًا خالدًا فى توجيه الناس—بشكل غير مُباشر-إلى المن والعتق وإكرام الأعِزّة الذين تعرّضوا لنكبة.فقد جاءته جويرية بنت الحارث بن ضرار-كبير القبيلة-التى وقعت أسيرة مع قومها، وطلبت منه إعانتها على الفكاك من الرق. وما كان رسول الإنسانية ليدع مثل هذه السيدة فريسة للإذلال والاسترقاق، كما أنه لا ذنب لها فى عدوان أبيها وكُفره وعناده.. وهكذا عرض عليها صلى الله عليه وسلم أن يُؤدّى عنها كتابتها-قدر من المال تدفعه لمن هى عنده مقابل حريتها - وأن يتزوّجها، فوافقت، ففعل، وصارت السيدة جويرية من أُمّهَات المؤمنين. وما كاد الصحابة يعلمون بهذا حتى تدافعوا صائحين مستنكرين:"أصهار الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأسر"؟! وانطلقوا فحَرّروا جميع من كانوا تحت أيديهم من أسرى بنى المصْطَلق، بسبب هذه الزيجة الشريفة. ولهذا وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها السيدة جويرية قائلة: (لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها) وقد أسلم أبوها وقومها جميعًا بسبب هذا النبل وتلك المكرمة، وحَسُنَ إسلامهم. وهكذا أرسى النبى صلى الله عليه وسلم قاعدة فقهية شريفة، هى أن يعتق الرجل جاريته، أوأن يشترى جارية غيره، فيُعتقها، ويتزوّجها، ويكون عتقها-أوما دفعه ثمنًا لها-هومهرها.,وبشّر من يعتق جاريته ويتزوّجها بأن"له أجران"والحديث فى الصحيحين..ثم أنه-بهذه الزيجة- قد حَثّ أصحابه— بإشارة لطيفة- على تحرير ما بأيديهم، بمُطلق اختيارهم وبلا أى ضغط، على سبيل التقرّب إلى الله وتكريم رسوله، صلى الله عليه وسلم.. والأهم من كل ما سبق أن الله تعالى قد أعتق رقاب بنى المصطلق من الكُفر أيضًا، وحَرّرَهم من العبودية للأصنام، ومَنّ عليهم بالإسلام، ومُصاهرة سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام.

٦٠- ولله العِزّة ولرسوله وللمُؤمنين

لم يكن الخطر على الدولة الإسلامية من الكافرين واليهود فحسب، بل كان هناك أيضا"طابور خامس"يتربّص بالمسلمين الدوائر، ويسعى إلى اقتناص أية فرصة تسنح لإشعال الفتن. ومن هذا ما جرى بعد الانتصار فى غزوة بنى المصطلق.إذ وقعت مُشادة بين أجيرين، أحدهما لعمر بن الخطاب، والآخر يعمل لدى أحد الأنصار. ولأن العاملين من حديثى العهد بالإسلام، فقد دعا كلاهما بدعوى التعصّب والجاهلية، وصاح أحدهما مُستغيثًا بالمهاجرين، واستغاث الآخر بالأنصار! ولولا أن المصادر التاريخية لا تسعفنا بالكثير عن هذين الشخصين، لظننّا أن يكون أحدهما أوكلاهما، مدفوعًا-عمدًا- من كبار المنافقين، لزعزعة صفوف المسلمين. وطالما لم يثبت لدينا هذا، على وجه اليقين، فإن القَدْرَ المؤكّد أن الجهل والجاهلية كانت ملء النفس من كليهما. وحاول كبير المنافقين"عبد الله بن أُبىّ بن سلول"استغلال الفرصة لإستعادة نفوذه، الذى كان قد تلاشى بالهجرة الشريفة إلى المدينة، وقيام الدولة الإسلامية الجديدة. وراح يُحَرّض قومه:" أوقد فعلوها ؟ -يقصد المهاجرين- نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ؟ والله ما حالنا وهؤلاء إلّا كما قال الأوّل: سَمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجّن الأعزّ منها الأذل"وراح يلوم قومه-الأنصار-قائلًا:هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لوأمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غيركم"!وسمع هذا زيد بن أرقم رضى الله عنه، وكان صبيًّا صغيرًا، فأبى إلّا أن يخبر النبى صلى الله عليه وسلم. وجاء كبير المنافقين مُنْكِرًا، وأقسم للنبى بأغلظ الأيمان أنه ما قال هذا! ولكن الله تعالى أنزل قرآنًا يفضح المنافق، ويُثبت كذبه وتطاوله، ويُؤكّد صدق زيد بن أرقم رضى الله عنه: (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) سورة"المنافقون":٨

وكان من رحمة الله ولطفه بالأُمّة أن الأغلبية الساحقة من الصحابة رفضت الاستجابة لهذه النعرات القبيحة، وتحرّك صلى الله عليه وسلم بسرعة وحكمة، فقضى على الفتنة فى مهدها، وأمر الناس بالرحيل، فى وقت الظهيرة، وهكذا شغلهم بعناء طريق العودة إلى المدينة عن حديث الفتنة، وواصل السير بهم يومين متتاليين، حتى سقط الجميع على الأرض من شدّة التعب، فور أمره لهم بالتوقّف

للراحة، وغرقوا فى نوم عميق أنساهم الحادث. وجاء أسيد بن حضير رضى الله عنه، ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن سبب قرار الرحيل المفاجىء، فى وقت غير مُعتاد، وأجابه عليه السلام:"أوما بلغك ما قال صاحبكم"؟! وأخبره النبى بمقولة عبد الله بن أُبَيّ:لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنّ الأعزّ منها الأذلّ! فصاح أُسيد رضى الله عنه: فأنت يا رسول الله تخرجه والله إن شئت..أنت الأعَزّ وهوالأذَلّ..ثم التمس من النبى الرفق بابن أُبَيّ، فقد كان قومه على وشك تتويجه مَلِكًا على يثرب قبل الإسلام، وهذا هوسبب حقده المسعور على النبى وعلى الدين، الذى يظن أنه السبب فى ضياع فرصته فى رئاسة المدينة. واقترح عمر بن الخطاب إعدام المنافق، قطعًا لدابر الفتنة، فرفض النبى صلى الله عليه وسلم، حتى لا يستغل الخصوم هذا فى تشويه الإسلام، بإدّعَاء أن محمدًا يقتل أصحابه. وكذلك جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ"نجل زعيم المنافقين"وكان صحابيًا جليلًا صالحًا-على عكس أبيه تمامًا- فاستأذن النبى أن يكون هومن يقتل أباه (لوأراد النبى ذلك)وليس أحدًا آخر، حتى لا يُسوّل له الشيطان الثأر من قاتل أبيه، فيدخل النار.لكن النبى صلى الله عليه وسلم تلطّف به، وهدّأ من روعه، وقال له :"بل نرفق به، ونُحسن صُحبته ما بقى معنا". وكانت لهذه الحكمة والرَوِيّة نتيجة رائعة، فقد تصدّى الخزرج -قوم ابن سلول-له، وراحوا يلومونه ويسبّونه ويعاقبونه بأنفسهم. ووصل الأمر بولده الصالح إلى حَدّ أن وقف له على مشارف المدينة، ومَنَعَهُ من دخولها، إلّا أن يأذن له النبى صلى الله عليه وسلم بذلك. وهكذا لَقّن الرسول صلى الله عليه وسلم الجميع درسًا فى التأنّى، وقال لعمر بن الخطاب:"كيف ترى يا عمر ؟أما والله لوقتلته يوم قُلْتَ، لأرعدت من أجله أنوف —غضبت وتعصّبت له— لوأمرتها اليوم بقتله لقتلته"فرَدّ الفاروق رضى الله عنه:"قد علمت-والله-أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى.

٦١- حديث الإفْك

بعد فشل المنافقين فى الوقيعة بين المهاجرين والأنصار لجأوا إلى حيلة أخرى بالغة الخِسّة والدناءة، للإساءة إلى البيت النبوى الشريف، هى الافتراء الإجرامى على أم المؤمنين، الصدّيقة بنت الصدّيق، عائشة رضى الله عنها. ولولا أن الشبهة الآثمة قد تلقّفها خصوم الإسلام من المنصّرين، وحاولوا من خلالها أن ينفثوا سمومهم وأحقادهم على الرسول والرسالة، ما استحقت الرَدّ عليها لتفاهتها وتهافتها أيضًا.. وقد نزلت آيات كريمات ببراءتها من فوق سبع سماوات، كما برأ القرآن الكريم أختها السيدة مريم من قبل، ونفى عنها افتراءات اليهود، الذين لم يسلم الأنبياء من بذاءاتهم بدورهم-كداود وسليمان ولوط وموسى-عليهم السلام. وأثبت القرآن الكريم كذب الأفّاكين: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ولَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوعِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) ولَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) ويُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) سورة النور

ثانيًا: يعلم القاصى والدانى أن بيوت الأنبياء، صلى الله عليهم وسلم طاهرة مُنَزّهة عن الفواحش والقاذورات. وإجماع العلماء على أنه" ما زنت امرأة نبى قَطّ". وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما ورد بالقرآن الكريم عن خيانة زوجتى نوح ولوط، عليهما السلام، إنما هى"خيانة المنهج"وليست"خيانة الجسد"فهما لم تؤمنا بالرسالة، وانحازت كلتاهما إلى قومها ضد زوجها..قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) سورة التحريم:١٠..قال الضحاك فى تفسير الآية: (ما بغت امرأة نبى قَطّ) وقال ابن عباس:خيانة امرأة نوح أنها كانت تقول عنه:مجنون، وخيانة امرأة لوط أنها كانت تدل على

ضيوفه. وقال عكرمة: الخيانة هنا فى الدين. وعلى هذا النحوسار المفَسّرون فى جميع العصور. والأنبياء أكرم على رَبّهم من أن تتلطّخ بيوتهم-منازل الوحى-بشىء من هذا.

ثالثًا:كان حب السيد عائشة لزوجها الرسول وغيرتها الشديدة عليه أمرًا ظاهرًا مشهودًا من الكافة، وعاشت بعده ٤٦ سنة، وروت عنه أكثر من ألفى حديث شريف. وما كان لعلوم السُنّة والفقه والسيرة والتفسير أن يُودعها الله إلّا فى أطهر الأوعية، وأشرف المعادن. وما كانت ترى أويملأ عينها وقلبها من الرجال أحد سواه.

رابعًا: ثبت أن الصحابى الجليل"صفوان بن المعَطّل"الذى اتهموه معها، كان عاجزًا لا يأتى النساء، وأقسم أنه لم يكشف جسد امرأة قط طيلة حياته، وكان مشهودًا له بالتقوى والعِفّة طوال عمره، ومات شهيدًا بعد ذلك، رضى الله عنه.

خامسًا: إن مَن اعتاد ارتكاب الفواحش لا يخفى أمره على جيرانه ومعارفه، وقد شهد الكافة للسيدة الطاهرة بنقاء السيرة والسريرة، وكان ممن شهدن لها ضرائرها، كالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنه، التى قاومت غيرة النساء فى داخلها، وهتفت بنزاهة وأمانة ونُبل"أم المؤمنين"حقًا: أحمى سمعى وبصرى. والله ما علمت عنها إلّا خيرًا.. ولوكان هناك ما يُريب لكانت الضرائر فى طليعة من ينشرنه، للانفراد بقلب الزوج. وهناك شهادة جاريتها التى قالت أنها لم تنكر على السيدة عائشة شيئًا، سوى أنها كانت تنام عن العجين، فتأتى الشاة فتأكله..كما كان بيت أبى بكر مثالًا للعفّة والطهارة سواء فى الجاهلية أوبعد الإسلام.

سادسًا:لوكان فيما يزعمون أي قدر من الصدق، لوثب كُفّار قريش، وصاحوا مُؤيّدين للإفك، ولدعموه بما يعلمون عن حياة النبى وآل أبى بكر فى مكة من قبل، لكن قريشًا رفضت الشائعات الخبيثة، وأبى القوم-رغم كفرهم وعدائهم-ترديدها، لأنهم ما علموا عن الصادق الأمين، وصاحبه الصِدّيق وبيته الشريف إلّا كل خير وطهارة ونقاء.

٦٢- حابس الفيل

طوال تاريخ البيت الحرام لم يتجرّأ أحد من قريش على منع قبائل العرب من زيارة الكعبة، سواء للحَجّ أوللعُمْرَة.فقد كانوا-رغم الكُفر والجاهلية-يُعَظّمون بقايا الشعائر الموروثة عن أبينا إبراهيم وإسماعيل، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام. ولهذا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس١٤٠٠ من أصحابه-فى العام السادس الهجرى-لأداء مناسك العُمرة، كغيرهم من العرب. وأحرم وأصحابه بالعُمْرَة، وساقوا معهم الهدى-الذبائح- ليتأكّد الجميع أنهم مُعتمرون لا مُقاتلون. وعلمت قريش، فثارت نعراتها، وأقسم أكابر مُجرميها، على منعه من دخول مكة، مهما سال بسبب ذلك من دماء. وكان أول من قابلهم فى الطريق"بشر بن سفيان الكعبى الخزاعى"الذى أخبر النبى عليه السلام أن قريشًا حشدت له المقاتلين فى منطقة"ذى طوى"وعلى رأس فرسانها خالد بن الوليد، وقد عاهدوا الله ألا يدخلها عليهم أبدًا.فقال صلى الله عليه وسلم: (يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب.ماذا عليهم لوخَلّوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة.فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به، حتى يظهره الله، أوتنفرد هذه السالفة"كناية عن الاستشهاد") ونُلاحظ هنا شفقة الحبيب على قومه، ورحمته بهم، رغم أنهم أخرجوه وحاربوه وقتلوا أصحابه، ولا عجب فقد أرسله ربّه (رَحْمَةً للعَالمين) فهوعليه السلام كالطبيب، يحرص على شفاء المرضى، ويستخدم ما يُمكنه من الدواء بأقل قدر، بغير كى أوبتر. وإمعانًا فى تجنّب إراقة الدماء، أمر عليه السلام دليل القافلة بسلوك طريق آخر، للابتعاد عن مكان قوات المشركين، وتفادى الصدام المبَكّر. ووصل الركب المبارك إلى منطقة"الحُديبية"خارج الحرم، فبركت ناقة الرسول هناك. وأزال صلى الله عليه وسلم دهشة الصحابة، حين أخبرهم أنه قد (حَبَسَهَا حابس الفيل) أى أن الله تعالى هوالذى أمر الناقة بعدم دخول الحرم، لحكمة يعلمها، كما ألهم الفيل الحبشى التوقّف وعدم دخول مكة، فى موقعة جيش أبرهة الأشرم، الذى دَمّرته الطيور الأبابيل، عقابًا له على محاولة هدم الكعبة المشرّفَة.. وعندما تَوَقّفَت ناقته"القصواء"قال صلى الله عليه وسلم:" لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها"وهذا تأكيد آخر لسلمية الرحلة.. وشكا له الناس من عدم وجود ماء بآبار المنطقة التى أمرهم بالنزول فيها، فأعطى أحدهم سهمًا، وأمره بغرسه فى بئر جاف، فانبثق الماء غزيرًا، ليشرب الصحابة وأنعامهم.. وهى معجزة نبوية ثابتة، وأقل ما يُقال عنها، إن الذى فَجّر مياه زمزم تحت قدمى جدّه إسماعيل، ثم هدى إليها جَدّه عبد المطلب بعد مئات السنين، هوسبحانه الذى سقاه وأصحابه هذا الماء من بئر الحديبية الجاف وغيره من المواضع.

٦٣- مفاوضات الحديبية

حاول المشركون مُمارسة ضغوط على المسلمين، أوإرهابهم، أوتحسين ظروف التفاوض لصالحهم، فأرسلوا قوّة قوامها ٥٠ فارسًا، لاختطاف بعض الصحابة وأسرهم، لكن العكس هوالذى حدث، واستطاع المسلمون اعتقال أفراد القُوّة بالكامل. وكان تصرّف الرسول صلى الله عليه وسلم فى غاية النبل والتسامح والعفوعند المقدرة، فأمر بإطلاق سراحهم، وأيضًا لتتأكّد قريش من أنهم لم يأتوا للقتال، بل للعُمرة فحسب. وإزاء هذا الدليل القاطع على حسن النيّة، لان موقف الكُفّار بعض الشىء، وبدأوا فى إرسال الوفود، واحدًا تلوالآخر.جاءه أولًا وفد بزعامة حليفه بديل بن ورقاء الخزاعى(وكانت خزاعة دائمًا حليفًا لآل هاشم فى الجاهلية والإسلام) فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم جاءوا لزيارة البيت الحرام، ولم يأتوا لقتال. وعاد بديل بن ورقاء إلى مكة، ليخبرهم بأن المسلمين جاءوا فقط للطواف بالكعبة، وليس للحرب، فتصايح أئمة الكفر:وإن كان لا يريد قتالًا، والله لا يدخلها علينا عُنْوَة أبدًا، ولا تتحدّث عنا العرب بذلك! ثم تلاه مكرز بن حفص بن عامر بن لؤى، فسمع من النبى ذات التأكيد بأنه جاء للعُمرة، وليس للقتال، وعاد مكرز فأخبرهم بذلك، دون جدوى. وكان ثالث الوافدين هوالحليس بن علقمة، كبير الأحابيش-حلفاء قريش-ومن الحكمة النبوية، أنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف تعظيم الحليس للمناسك -رغم كفره- فأمر الصحابة بإطلاق الهدى (ذبائح الحُجّاج والمعتمرين) أمامه. وهاب الحليس مشهد إبل الهدى، عندما رآها تتقاطر عليه من كُل جانب، وقد تآكلت أوبارها من طول الحبس عن بلوغ الحرم، فتراجع قبل بلوغ مجلس النبى، وهرول مُسرعًا، مُطالبًا قريش بالسماح للنبى وأصحابه بزيارة البيت وذبح الهدى عنده. ورَدّ عليه الكُفّار بغلظة وجفاء:"اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك"! فغضب سيد الأحابيش، وكان عددهم كبيرًا، وصاح:"يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا عاقدناكم..كيف تصدّون عن بيت الله مَنْ جاء مُعَظّمًا له ؟! والذى نفس الحليس بيده لتُخَلّنّ بين محمد وبين ما جاء له، أولأنفرنّ بالأحابيش نَفْرَة رجل واحد". وخاف المشركون من انفراط عقدهم، فاضطروا إلى مُلاطفة الحليس، وطلبوا منه منحهم بعض الوقت لتدبّر الأمر.. وأمّا المبعوث الرابع فكان عروة بن مسعود الثقفى، الذى راح يُهَدّد بأسلوب جاف خشن:"يا محمد، أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى قومك لتستأصلهم بهم؟ هذه قريش بجموعها، قد لبسوا ثياب النمور، يعاهدون الله ألّا تدخلها عليهم عُنْوَة أبدًا، وكأنّى بهؤلاء-يشير

إلى الصحابة–قد انكشفوا عنك غَدًا"! وكانت هذه إهانة وَقِحَة، لا يقبلها الأسود، فرَدّ عليه أبوبكر الصدّيق بنخوة المسلم والعربى الأصيل:"امصص...اللات،

أ نحن نفرّ وندعه"؟!

وصدق رضى الله عنه، فقد خاضوا معه الحروب فى"بدر"و"أُحُد"و"الخندق"وغيرها، وجعلوا نحورهم دائمًا، فداءًا لنحره الشريف، فى أحلك الأوقات، عندما كانوا قِلّة مُستضعفة، فكيف يتخلّون عنه اليوم، بعد أن أعزّهم الله به، ونصرهم على أعدائهم، المرّة تلوالأخرى، وهم اليوم أقوى وأعَزّ وأكثر؟! وعلم عروة أن مَن يُكَلّمه هو"أبوبكر"فامتنع عن الرَدّ عليه، لأن أبا بكر كان له عليه فضل ومعروف فى الجاهلية. وظهر الضيق على وجه الرسول صلى الله عليه وسلم–بسبب عبارة أبى بكر–لكنه لم ينهره، لأنه يعلم أن العربى–فضلًا عن المسلم–لا يقبل الإهانة، ويأنف من الاتهام الباطل له بالجبن والفرار، ومن الطبيعى أن ينفعل، وأن يرد بعنف على مَن يتطاول عليه، مثلما فعل ذلك المشرك الجِلْف.. ولم يكن هذا هوكُل ما لقى عروة.فأثناء الحديث كان يمد يده إلى اللحية الشريفة، ففوجئ بفارس مُقنّع يضربه على يده، مُحذّرًا له من تجاوز حدود الأدب مع رسول الله:"اكفف يدك عن لحية الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل ألّا تصل إليك"أى لا تمد يدك وإلّا قطعتها، فصاح عروة بالفارس:ما أفظّك وأغلظك! من هذا يا محمد؟! ابتسم صلى الله عليه وسلم، وأجابه:هذا ابن أخيك"المغيرة بن شُعبة"! فكاد عروة ينفجر، من شدة الغضب والعجب معًا، إذ كيف يفعل به ابن أخيه هذا من أجل محمد؟! وكان عروة قد دفع ديات١٣ رجلًا قتلهم المغيرة قبل إسلامه، فصاح يسُب ابن أخيه:"أى غُدَر! وهل غسلت سوءتك إلّا بالأمس"؟! ثم انصرف عروة بن مسعود إلى المشركين، فقال لهم:"يا معشر قريش.إنّى قد جئت كسرى فى مُلكه، وقيصر فى مُلكه، فوالله ما رأيت أحدًا فى مُلكه مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه إلى شىء أبدًا.فانظروا رأيكم. ولم تستجب قريش لعروة بدوره، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه، ليخبرهم بأنهم يريدون زيارة الكعبة فحسب، ولم يأتوا لقتال.فأجار بنوأمية ولدهم– عثمان–حتى أبلغ الزعماء الرسالة. وعرضوا عليه الطواف بالبيت، لكنه رضى الله عنه، رفض بشدّة قائلًا:ما كنت لأطوف بالبيت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم..ثم حدث أمر كاد أن يقلب كُل شىء رأسًا على عقب.

٦٤- بيعة تحت الشجرة

تأخّرت عودة عثمان بن عفان رضى الله عنه من مكة، وسَرت شائعة خبيثة"أن المشركين قد قتلوه". وهنا عَلّم الرسول صلى الله عليه وسلم الأُمّة أن تكون على استعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، حسب التطورات. وإذا كان الأصل هوالسعى إلى السلام، إلّا أن هذا لا يتعارض مع التصدّى بكل شدّة وحسم للمُعتدين، وردع مَنْ يستغل التسامح واللين ورفق المسلمين. وعلى المرء ألّا يسعى إلى الحرب، فإن فرضها الآخر عليه، فليكن رجلًا، وليقاتل حتى النصر أوالشهادة. ولهذا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة –حيث كان واقفًا– فجاءوا عن بُكرة أبيهم وبايعوه على الموت، وفى رواية لجابر بن عبد الله رضى الله عنه، أنهم بايعوه على عدم الفرار، مهما اشتدت ضراوة القتال. وبايع النبى بنفسه الشريفة عن عثمان رضى الله عنه . وقد سُمّيت هذه "بيعة الرضوان"لأن الله تعالى قد رضى الله عن الصحابة الأبرار الذين حضروها، وبايعوا الله ورسوله فيها : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيبًا *ومَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) سورة الفتحً :١٨-١٩

وما لبث عثمان أن عاد، بعد أن أخلت قريش سبيله، فهدأت الأوضاع..ثم جاء بعده سهيل بن عمرو، أحد سادات قريش لإبرام الصلح مع النبى صلى الله عليه وسلم. وعندما رآه النبى قادمًا قال لأصحابه: (قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل) وصدق عليه السلام، فقد طلب سهيل التصالح ووقف القتال بين الجانبين عشر سنوات، وأن يرجع المسلمون هذا العام، ثم يأتون للعمرة فى العام القادم، وأن يرد النبى من يأتيه من قريش مسلمًا، بينما لا يرد المشركون أحدًا يأتيهم من المسلمين، وأن من أراد التحالف مع النبى من قبائل العرب فليفعل، ومن أراد التحالف مع قريش فله ذلك.

ومن الطبيعى أن تثور ثائرة الصحابة بسبب الشروط التعسفية الجائرة التى تفرضها قريش، وقد التمس الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بعض العذر، فهم لا يعلمون ما يعلم من ربّه، ولا تستوعب عقولهم البشرية القاصرة حكمة الله وتدبيره الخفى لدينه ونبيّه.. وجاء عمر بن الخطاب قائلًا:يا رسول الله، ألست برسول الله؟ أجابه:بلى، فسأل عمر:ألسنا بالمسلمين؟فردّ النبى:بلى، قال عمر:أليسوا بالمشركين؟أجب:بلى، فهتف عمر:فعلام نُعطى الدَنِيّة فى ديننا؟! وكان جواب النبى صلى الله عليه وسلم على السؤال حاسمًا :" أنا عبد الله ورسوله ..لن أُخالف أمره.. ولن يُضيّعنى " وهذا – فيما يرى كاتب هذه السطور– نص نبوى صريح، على أن الموافقة على الصلح كانت بوحى إلهى، فلا مجال فيها للشورى، إذ لا اجتهاد، ولا رأى لأحد مع الوحى. وكذلك بَشّر النبى أصحابه بأنهم، رغم المنع هذا العام، سيأتون البيت ويطوفون به. وهذا ما جرى، بالفعل، بعد أشهر قلائل.

٦٥- شروط الصلح

اشتد الكرب على المسلمين عندما رفض مندوب قريش كتابة"بسم الله الرحمن الرحيم"فى أول معاهدة الصلح، أوكتابة"محمد رسول الله"وأصر على محوالعبارتين، وكتابة"بسمك اللهم"و"محمد بن عبد الله"لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُفسد الأمر بالتمسّك بألفاظ يرفضها الكافرون.أولًا:لأن جحودهم بها لن يُقدّم ولن يُؤخّر، فالله تعالى هوالرحمن الرحيم، ومحمد صلى الله عليه وسلّم هورسوله، رغم أنوف الجنّ والإنس أجمعين..ثانيًا:لأن مكاسب الهدنة، التى سنعرضها لاحقًا، كانت أهم وأعظم من إفشالها، بسبب خلاف حول الألفاظ.. وثالثًا:لأنه كان يعلم، من الله، أنهم لن يلبثوا إلّا قليلًا، وسيُؤمنون قريبًا بما يجحدون الآن.. وزاد حزن الصحابة عندما جاء"أبوجندل بن سهيل بن عمرو"ابن مندوب قريش نفسه، لحظة كتابة المعاهدة. وكان قد أسلم، وهرب من محبسه، ليلحق بالنبى وأصحابه.فقام إليه أبوه ولطمه، وصاح قائلًا:يا محمد، هذا أول ما أُقاضيك عليه، يقصد ضرورة إعادة ولده، تطبيقًا لشرط إعادة من يُسلم-بعد العقد-إلى المشركين. وحاول النبى صلى الله عليه وسلم إقناع سهيل بترك ابنه، لأن كتابة العقد لم تنته بعد، لكنه أصرّ على موقفه، وغضب الصحابة، وصاح أبوجندل مُستغيثًا بهم، لكن النبى صلى الله عليه وسلم أفهمه أنه يحرم علينا الغدر، وأن الاتفاق مع قريش قد تم، وأوصاه بالصبر، وبشّره بأن الله تعالى سيجعل له ولأمثاله فرجًا ومخرجًا قريبًا.. وبعد إبرام الصُلْح طلب عليه السلام من أصحابه الحلق، وذبح الهدى، للتحلّل من العُمرة، فامتنعوا من شدّة الحزن. ودخل عليه الصلاة والسلام، خيمته، حزينًا. وعندما فهمت زوجته، التى كانت برفقته-السيدة أم سلمة-الموقف، أشارت عليه برأى حكيم، هوأن يخرج، فلا يُكلّم أحدًا منهم، وأن يحلق هوشعره، ويذبح هديه، ليتحلّل من العُمرة، تمهيدًا للرجوع إلى المدينة، طبقا للشروط. وما كاد الصحابة يرون الرسول صلى الله عليه وسلم يحلق ويذبح هديه، حتى ثابوا إلى الرُشد، وتسابقوا فى الحلق وذبح الهدى. وهكذا كان رأى أم المؤمنين العاقلة سببًا فى القضاء على فتنة لا يعلم عواقبها إلّا الله. وسرعان ما تتابعت الأحداث، بعد ذلك، لتُثبت حكمة النبى وبركات الصبر والرفق والتأنّى.فقد أنزل الله تعالى نصّا حكيمًا يمنع تسليم المؤمنات إلى المشركين، ولم تعترض قريش، لأن هدفهم من الشرط هوالحد من عدد المقاتلين الذين ينضمون إلى النبى، والنساء لا تُقاتل.. ومن ناحية أخرى، لم يرتدّ من المسلمين، أويلحق بالكُفّار أحد، طوال عامى الهدنة. ولوكان قد فعلها فرد شاذ، فهومُنافق، أبعده الله، وطَهّر الصف الإسلامى منه. وهكذا نرى أن هذا الشرط لم تكن له قيمة، ولا أثر فى مُعظم الحالات.. وأمّا أبوجندل وأمثاله من المستضعفين، فسرعان ما جعل الله لهم فرجًا ومخرجًا، من حيث لا يحتسبون، كما بَشّره النبى صلى الله عليه وسلم تمامًا.

٦٦- فتح قريب

كان"أبوبصير"عُتبة بن أسيد هوأول مُن بعثت قريش فى طلب استرداده.فقد نجح فى الإفلات من الأسر، وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلّم مُسلمًا، وقَدِمَ بعده رجلان من المشركين، فطالبا النبى بتسليمه. وقال النبى صلى الله عليه وسلم له:"يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، وإنّه لا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومَخْرجًا، فانطلق إلى قومك"فتأثر أبوبصير، وقال بحُزْن:يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين، يفتنونى فى دينى؟! فكَرّر صلى الله عليه وسلم مقولته:"يا أبا بصير انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا"فأطاع أبوبصير أمر النبى صلى الله عليه وسلم، وسار مع الرجلين فى طريق العودة إلى مكة. وأثناء الاستراحة- خلال الرحلة-أبدى أبوبصير إعجابه بسيف أحد الرجلين، وطلب منه أن يراه فوافق. وبسرعة البرق استل أبوبصير السيف، وعاجل الرجل بطعنات قاتلات، ولاذ الآخر بالفرار، عائدًا إلى المدينة، مُستجيرًا بالرسول صلى الله عليه وسلم. وأقبل أبوبصير هاتفًا:يا رسول الله وَفّت ذمتك، وأدّى الله عنك، أسلمتنى للقوم، وقد امتنعت بدينى أن أُفتن فيه، أوأن يُعبث بى..لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هتف:"ويل أُمّه محش حرب لوكان معه رجال". و"محش الحرب"هوالذى يوقدها ويتسبّب فى إشعالها. وخشى أبوبصير أن يُسلّمه النبى مَرّة أُخرى، التزامًا بالعهد، فانطلق إلى ساحل البحر الأحمر. وتسامع الجميع بما فعل أبوبصير، فلحق به سبعون من المستضعفين فى مكة، منهم"أبوجندل بن سهيل بن عمرو"وغيره، وشَكّلُوا كتيبة شديدة البأس، للردع والتأديب والإنتقام من الكُفّار الذين عَذّبُوهم واستولوا على أموالهم.. وشَنّت كتيبة الثائرين غارات مُتتاليات، على قوافل قريش القادمة من وإلى الشام. وكانت الضربات مُوجعات، والطعنات نافذات، فاستغاث المشركون بالنبى صلى الله عليه وسلم، للتدخّل وكَفّ هؤلاء عنهم، وناشدوه بالله والأرحام، أن يأويهم عنده، فلا حاجة لقريش بهم. وبذلك تنازل الكُفّار من تلقاء أنفسهم عن الشرط الظالم الذى يفرض إعادة المسلمين الجدد إلى مكة. وهكذا نجح هؤلاء الأبطال فى تأديب قريش، وكسر أنفها، وإجبارها على الإذعان، وإلغاء شرط التسليم.. وتحقّق ما بَشّرَ النبى به أبا جندل يوم كتابة الصلح، ثم أعاد تأكيده لأبى بصير مَرّتين:"إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومَخْرَجًا"وهذا -كما نرى- من دلائل النبوة.. ولم يبق من شروط الصلح سوى وقف القتال عشر سنوات، والسماح للنبى وأصحابه بأداء

العُمرة فى العام القادم، وإعطاء الحرية لمن شاء من العرب فى التحالف مع النبى، أوالانضمام إلى قريش. وقد انضمت"خزاعة"مسلمها وكافرها إلى النبى-كعادتها مع بنى هاشم منذ عشرات السنين- بينما تحالف"بنوبكر"مع المشركين.. وكانت ثمار الهدنة عظيمة، بل اعتبرها كبار العلماء والمؤرّخين فتحًا كبيرًا..فخلال سنتين فقط، بعد الهدنة، أسلم أضعاف من كانوا أسلموا طوال١٩سنة كاملة قبلها، هى كل ما مضى من عمر الإسلام. ويصف الإمام الزهرى رضى الله عنه صُلْح الحديبية قائلًا:"فما فُتِح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه..إنما كان القتال حيث التقى الناس..فلمّا كانت الهُدنة، ووُضعت الحرب، وأَمِنَ الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمناقشة..فلم يُكَلّم أحد يعقل شيئًا فى الإسلام إلّا دخل فيه.. ولقد دخل فى هاتين السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر"انتهى. ويُؤَكّد ابن هشام-راوى السيرة عن ابن إسحاق-رضى الله عنهما، كلام الإمام الزهرى، بدليل حاسم، هوأن عدد من كانوا مع النبى فى الحديبية ١٤٠٠ حسب رواية جابر بن عبد الله، بينما خرج معه بعد عامين أكثر من عشرة آلاف فى فتح مكة.أى سبعة أمثال مَن أسلموا قبل الصُلْح. وصدق الله العظيم القائل فى مُحكم التنزيل :(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا). سورة الفتح:٢٧

٦٧- درس فى حقن الدماء

كان من أسباب إبرام صُلْح الحديبية، ما أخبرنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى:

(**ولَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ونِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوتَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (٢٥).سورة الفتح..فقد كان بمكة مسلمون ومسلمات يكتمون إيمانهم، ولوأذن الله لرسوله وأصحابه باجتياح الحرم، لسُفِكَت دماء زكية كثيرة، هى دماء هؤلاء المؤمنين والمؤمنات وأطفالهم جميعًا، فضلًا عن آخرين يُفكّرون فى اعتناق الدين الحنيف، وقد أسلموا بالفعل لاحقًا. وهذه الحالات الأخيرة يُشير إليها قوله تعالى: (**لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**) فالهدف الأول للإسلام هوهداية الناس، وليس الانتقام، ولا تصفية الحسابات. ولابد من التأنّى وإمهال غير المسلمين وقتًا كافيًا، لأن العقول تتفاوت فى إدراك الحَق، وكثيرون لا يُغَيّرون عقائدهم بسهولة وسرعة.

ولا يمكن السماح بإراقة دماء المؤمنين-المجهولين عند جيش المسلمين-فى سبيل النيل من المشركين.. ومذهب الإمامين مالك والشافعى وغيرهما هوعدم جواز رمى الكُفّار أوحرق حصونهم إذا كانوا يحتجزون أسرى من المسلمين، ويتخذونهم تروسًا- دروعًا بشرية بلغة عصرنا-وكما نرى فإن الإمامين العظيمين قد حرصا على حقن الدماء- رغم حالة الحرب- إذا تعذّر الفصل بين المسلمين وغيرهم.

٦٨- فتح خيبر

كانت فلول يهود المدينة قد لاذت بحصون"خيبر"التى تَحَوّلت إلى وكر لتدبير المؤامرات، وإعداد حشود لمهاجمة المدينة، عندما تسنح الفرصة. ولم يكن من الحكمة الانتظار حتى تُعاود جحافل غطفان ومعها يهود خيبر، مُحاصرة المدينة، على غرار ما حدث فى غزوة الخندق، بل الصواب هوتوجيه ضربة استباقية لإجهاض المؤامرات، والقضاء على هذا الخطر الداهم إلى الأبد. وتحقيقًا لهذا الهدف، خرج النبى صلى الله عليه وسلم بجيش كبير، بعد صُلْح الحُديبية بشهرين، لفتح"خيبر"ودَك آخر قلاع اليهود فى جزيرة العرب.. ومن الحكمة النبوية أيضًا أنه، عليه السلام، نزل بالجيش فى وادى"الرجيع"الذى يقع بين منازل غطفان وبين خيبر، وبهذا قطع خطوط الإمداد والاتصال بين الحليفين. ومن تدبير الله تعالى لنبيّه أن غطفان كانت قد خرجت بالفعل للانضمام إلى اليهود فى المعركة، فأرسل الله تعالى جنودًا لم يرها أحد، أحدثت جلبة وضجيجًا خلف مُؤخّرة الغطفانيين، فاستبد بهم الرُعب، وظَنّوا أن المسلمين قد غَيّروا اتجاههم، وهاجموا ديارهم بعد خروجهم، وسرعان ما عادوا إلى مساكنهم، لحماية أموالهم ونسائهم، وتركوا يهود خيبر لمصيرهم المحتوم. وكانت لمحمد بن مسلمة، والزبير بن العوام، وعلى بن أبى طالب وغيرهم مواقف مشهودة فى الغزوة.فقد بارز محمد بن مسلمة رضى الله عنه"مرحبا"وهوأشد وأقوى فرسان خيبر، وكان من المعدودين فى الجزيرة العربية بأسرها. وأعان الله بن مسلمة عليه، فصرعه بعد مُبارزة ضارية.((وهناك رواية أخرى تقول أن عليا رضى الله عنه هوالذى بارز مرحبا وقتله)) ثم جاء بعد"مرحب"أخوه"ياسر"وطلب المبارزة، فخرج إليه الزبير بن العوّام، وألحقه بأخيه بعد قتال تشيب لهوله الولدان. وكان هلاك مَرْحب وشقيقه ضربة ساحقة، انهارت بسببها الروح المعنوية لليهود، فضلًا عن شدّة الحصار الذى فرضه المسلمون عليهم، فاستسلم عدد من الحصون. وأمّا علىّ رضى الله عنه، فقد شهد النبى صلى الله عليه وسلم له فى خيبر، إذ قال:"لأُعطينّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بِفَرّار"وتطلّع إليها الجميع، لكن الرسول استدعى عليًّا، وكان مريضًا بالرمد، فتفل النبى صلى الله عليه وسلم فى عينيه، فشفاه الله فى الحال، ثم أعطاه الراية ليفتح أصعب الحصون، قائلًا له"خذ هذه الراية، وامض بها، حتى يفتح الله عليك".. وهنا حديث شريف آخر، بالغ الأهمية- رواه البخارى ومسلم وغيرهما- يُثبت بوضوح أن الإسلام يسعى أولًا إلى هداية الناس قبل أى اعتبار آخر، فقد سأل علىّ النبى صلى الله عليه وسلم، عما يفعل مع اليهود، وهل يُهاجمهم على الفور، أم

يدعوهم إلى الإسلام أولًا، فأمره بدعوتهم أولًا قبل القتال، وقال له:"انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه..فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم". وهى أغلى أنواع الإبل عند العرب، والمعنى أنه: إذا جعله الله سببًا فى هداية شخص واحد، فهذا أفضل له من كل أموال الدنيا وحطامها الفانى. وقد فعل علىّ ما أمره به النبى عليه السلام، لكن إخوة القردة والخنازير أصرّوا على الكُفر والعناد والقتال، فأعانه الله عليهم، واقتحم أعتى حصونهم وحده، وخلع بابه، وحمله ليتخذه درعًا، يصد به ضربات سيوفهم، حتى فتح الحصن، ودخله وتلاه باقى المسلمين، ثم سقطت الحصون التالية بعده بسهولة. ويقول أبورافع-مولى النبى-أنه حاول مع سبعة رجال آخرين، بعد إنتهاء المعركة، حمل هذا الباب الذى كان علىّ يحمله ويتخذه ترسًا، فما استطاعوا أن يرفعوه أويقلبوه! وكما نرى، فتلك بدورها كانت معجزة ثابتة- ومن دلائل النبوة- ببركة الدعاء الشريف.

٦٩- دروس من غزوة خيبر

أثبتت غزوة خيبر استحالة تخلّى اليهود عن العداوة والغدر والخِسّة، حتى بعد أن استسلموا واتفقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على زراعة أراضى المنطقة، مقابل نصف الثمار.فقد عمدت امرأة منهم إلى وضع السُمْ فى ذراع شاة، أهدتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم. وما كاد عليه السلام يضع قطعة من اللحم فى فمه الشريف، حتى لفظها، بعد أن علم بوحى من رَبّه أنها مسمومة. وكان الصحابى الجليل بشر بن البراء بن معرور معه، وأكل من الشاة، فاستشهد على الفور، لشدّة وكثرة السُم الموضوع بالطعام. وتم القبض عليها، واعترفت بجريمتها النكراء، وقالت تبريرًا لذلك:"قلت إن كان ملكًا نستريح منه، وإن كان نبيًّا فسيخبره الله". ويُروى أنه صلى الله عليه وسلم قد عفا عنها. وذكرت رواية أخرى أنها قُتلت على سبيل القصاص لبشر بن البراء رضى الله عنه.. وقد تزامنت غزوة خيبر مع عودة جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه من الحَبَشَة.. وعن هذا قال صلى الله عليه وسلم: (ما أدري بأيهما أنا أُسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟) كما أخبر عليه الصلاة والسلام مهاجرى الحبشة بأن لهم أجر هجرتين، وللباقين أجر هجرة واحدة.

ومن الأحكام الشرعية التى نزلت فى خيبر، أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن زواج "المتعة"وهوالزواج المؤقت-بالنَصّ على زمن مُحدّد فى العقد- وحَرّم أكل لحم الحمير الأهلية- التى يقتنيها الناس للركوب وغيره من الأغراض- وأباح لحم الخيل. وفى غزوة خيبر أيضًا أكّدَ صلى الله عليه وسلم منهج الإسلام فى تحرير الرقيق، بزواجه من السيدة صفيّة بنت حُيي بن أخطب. وكانت قد وقعت فى الأسر، بعد هزيمة قومها، ورآها الصحابة، فقالوا :يارسول الله، هذه بنت سيد اليهود، ما تصلح إلا لك، فأعتقها صلى الله عليه وسلم، وتزوجها، وجعل عتقها مهرها، فصارت هذه سُنّة-كما قال الإمام ابن القيّم-أى أن يعتق الرجل جاريته ثم يتزوجها، ويكون مهرها هوالعتق. وفى هذا إثبات أيضًا لحقيقة أن الإسلام لا يشقى به من كان عزيزًا قبله، بل يزيد الشريف شرفًا، ويرفع المملوك على عرش الملوك، على حَد قول ابن عباس رضى الله عنهما، فى مُناسبة أخرى. وكانت السيدة صفية قد رأت -

قبل غزوة خيبر–فى منامها أن القمر وَقَعَ فى حِجْرِهَا، وحكت لزوجها اليهودى الرؤيا، فلَطَمَها بجنون وحقد، وصاح:تتمنيّن ملك يثرب ؟! (يقصد النبى صلى الله عليه وسلم) وشاء الله تعالى أن تَتَحَقّق الرؤيا سريعًا، فقُتِل زوجها فى الغزوة، وأنقذها الرسول صلى الله عليه وسلم من الرِقْ، وأعتقها وتزوّجها، لتُصبح واحدة من أمهات المؤمنين.. وعاشت معه محلًا للمودة والتكريم والحفاوة، وكان يغضب إذا دفعت الغيرة منها الأُخريات إلى التعريض بأصلها اليهودى، ويُعَلّمها أن تقول رَدّا عليهم بكُل فخر: (أبى هارون –وكانت من نسله– وزوجى محمد). وسيُؤتيها الله أجرها مَرّتين، مثلها فى ذلك مثل أىّ شخص من أهل الكتاب يعتنق الإسلام، بنص القرآن الكريم: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) سورة القصص.

٧٠- عُمرة القضاء

فى ذى القعدة من العام السابع الهجرى خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأداء عُمرة القضاء، بدلًا من العُمرة التى حالت قُريش بينهم وبين انجازها. واضطر أكثر المشركين إلى الخروج من مكة، كى لا يروا بأعينهم أُولئك المطاردين المستضعفين السابقين، يطوفون بالكعبة المشرّفة، ويسعون بين الصفا والمروة، أعِزّة آمنين.. ولم يبق لهم من حيلة للتشفّى والتنفيس عن الحقد المسعور، سوى إطلاق الشائعات، فزعموا أن المسلمين قد أضعفتهم حُمّى المدينة. وكان أفضل رَدّ على الشائعة، هوأن يُهرول المعتمرون خلال الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، حول البيت الحرام، وكُل منهم يكشف منكبه الأيمن، لتظهر قوتهم وعافيتهم للكافة، فدعا صلى الله عليه وسلم تشجيعًا لأصحابه، بأن يرحم الله من يريهم من نفسه قُوّة. وكان لدُخول النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة، لأداء العمرة، والبقاء ثلاثة أيام بها، طبقًا للمعاهدة، دلالات وإشارات عُظمى.فقد علم سائر العرب أنّه لا سبيل إلى حصار الإسلام، أوالقضاء على المسلمين، بعد أن ضعفت شوكة قريش، واشتدّت سواعد الموحّدِين، وتضاعفت أعدادهم، وكثرت الوفود التى تتقاطر على المدينة، لمبايعة النبى صلى الله عليه وسلم. وفى داخل قريش ذاتها بدأ كثير من الكافرين فى مراجعة النفس، ودراسة الإسلام والقرآن، فأفاقوا وأقلعوا عن العناد والغى والضلال. ومن هؤلاء –على سبيل المثال وليس الحصر– خالد بن الوليد وعمروبن العاص وعبد الله بن أبى أمية وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب.فقد أسلم هؤلاء وغيرهم، فى الأشهر القلائل ما بين عمرة القضاء وفتح مكة، بعد أن تبيّن لهم أنه لا إله إلا الله حقّا ويقينًا، وأن محمدًا عبده ورسوله.. وخلال وجوده بمكة، لأداء العُمرة، تزَوّج عليه السلام السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، ودخل بها بعد التحلّل من المناسك، فى موضع خارج مكة"سَرَف"وهوذات الموضع الذى توفيت فيه رضى الله عنها، بعد ذلك بسنوات! والسيدة ميمونة هى أخت"أم الفضل"زوج العباس بن عبد المطلب، عم النبى صلى الله عليه وسلم. وكما نرى ففى زواج النبى وميمونة تأليف

لقلوب أفراد قبيلتها "بنى هلال"إحدى القبائل العربية الكُبرى، وتشريف لهم.. وكانت المصاهرة الكريمة سببًا فى إسلام مَن لم يكونوا قد أسلموا منهم. وفى الزيجة أيضًا تكريم للعباس وزوجته وأولادهما. وكذلك كانت السيدة ميمونة أرملة، وكان فى اقتران الحبيب بها جبرًا لخاطرها، كما حدث مع أخواتها الأُخريات، أمهات المؤمنين، فقد كان مُعظمهن من الأرامل، وليس بينهن بِكْر سوى السيدة عائشة، ومُطلّقة واحدة هى السيدة زينب بنت جحش. وكان للزيجة المباركة أثر فعّال على نفس ابن أختها الأخرى، خالد بن الوليد، الذى أسلم بعدها بشهور-كما أشرنا-رضى الله عن الجميع[٢].

[٢] للمزيد عن أمهات المؤمنين، وظروف زواجه صلى الله عليه وسلم بكل منهن، يمكن الرجوع إلى فصل"زوجات النبى"فى كتاب"زوجات لا عشيقات-التعدّد الشرعى ضرورة العصر"للمؤلف، وهومُتاح مجانا فى كثير من المكتبات الإسلامية على الإنترنت.

٧١- سَرِيّة الأُسُود

يُعتبر ما سطره المؤرّخون الغربيّون، وبعض مُؤرخينا الساذجين، عن موقعة"مُؤتة"مثالًا لأخطاء تسجيل وتحليل التاريخ، سواء كان هذا عَمدًا، أم بغفلة وسوء فهم. ولنبدأ بسبب بعث السَرِية، وهوأن نصارى الشام قتلوا"الحارث بن عمير"مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك"بصرى". ومن المتعارف عليه، فى كل زمان ومكان، أن قتل المبعوثين والرُسُل يُشَكّل عملًا همجيًّا عدائيًّا، بل هوبمثابة إعلان حرب.. والثأر من القاتل هنا ليس عُدوانًا، ولا ظُلْمًا بأى حال، ومن المنطقى أن يكون الرَدّ علي الجريمة، هوتجريد حملة للقبض على القاتل والقصاص منه. وهذا ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم، إذ أرسل سرية، قوامها ٣ آلاف مُقاتل، ورَتّب لها ثلاثة من القادة، هم على الترتيب:زيد بن حارثة، فإن أُصيب يحل محله جعفر بن أبى طالب، فإن أُصيب يخلفه عبد الله بن رواحة، رضى الله عن الجميع. وأوصاهم بأن يأتوا مكان استشهاد الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم.. وقال لهم: (اغزوا بسم الله، في سبيل الله، مَنْ كفر بالله..لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا كبيرًا فانيًا، ولا مُنعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرةً، ولا تهدموا بناءً). ونُلاحظ هنا أنه عليه الصلاة والسلام قد أمر جنوده بالتزام هذه المبادىء النبيلة، وأخلاق المجاهدين الرفيعة، رغم أن الآخرين غدروا بمبعوثه وقتلوه غيلة وخِسّة بلا ذنب. وهذه الكلمات الخالدات تعتبر دستورًا لمبادىء الحرب فى الإسلام، فهى للإصلاح لا للخراب، وللدفاع لا للعدوان، وتستهدف ردع الطاغين، وليس إيذاء المدنيين المسالمين.. وفى كُل الأحوال، لابد من احترام حقوق الإنسان، ولوأثناء القتال. وعندما وصلت السرية إلى منطقة"مُؤتة"فُوجئت بحشود هائلة للرومان ونصارى العرب، تزيد على مائتى ألف مُقاتل، مُزوّدين بكُل أنواع العتاد والأسلحة، أى أنهم يبلغون سبعين ضعف جيش المسلمين الصغير. وهنا تشاور المسلمون، واقترح بعضهم التوقّف وإرسال رسالة سريعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم، ليبعث إليهم بمَدَد عاجل، أوليأمر بما يرى. ولكن أسود المهاجرين والأنصار زأرت، رافضة التراجع، بغير مُنازلة جحافل الرومان، مهما بلغت التضحيات.. وصاح البطل الشهيد الشاعر عبد الله بن رواحة:"يا قوم، والله، إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون، الشهادة.. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة..ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به.انطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما نصر وإما شهادة"وكان لكلمات ابن رواحة تأثير عظيم على نفوس الجميع، فاستقر الرأى على الثبات، ومُواجهة الموقف بشجاعة، والصمود مهما كانت النتائج.

٧٢- مُعجزة عسكرية فى مُؤتة

واجه ٣ آلاف من المسلمين أكثر من مائتى ألف من الرومان، أى أن كل جندى مسلم حارب ٧٠ روميًا!! وأى خبير عسكرى فى العالم سيجزم بأن النتيجة المؤكّدة هى إبادة سرية المسلمين عن بُكْرَة أبيها خلال ساعات لا أكثر، لكن هذا لم يحدث! وأحسب أن ما أثار اللغط حول الموقعة هواستشهاد قادة المسلمين الثلاثة، زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة، الواحد تلوالآخر، رضى الله عنهم. وسبب استشهادهم ليس هزيمتهم، ولكنه حرصهم على القتال فى الصفوف الأولى، وإصرارهم على نيل درجة الشهادة العظمى. وقد نعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة، قبل ورود الأخبار من جبهة القتال بعدها بشهر.كما بَشّر أصحابه بتولّى خالد بن الوليد"سيف الله المسلول"القيادة، ونجاحه فى الصمود أمام الرومان، حتى إنتهاء المعركة، وهذه معجزة أخرى من دلائل النبوة.

ولا يعلم كثيرون أن المواجهات الضارية استمرت خمسة أيام، أظهر المسلمون خلالها صُمُودًا أسطوريًا غير مسبوق فى التاريخ. ولجأ خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى استخدام عدة حيل وتكتيكات خداعية، أجبرت جحافل الروم على التراجع.فقد قام بتغيير مواقع جنوده، فوضع أهل الميمنة على اليسار، وحرّك اليسار إلى مكان الميمنة، كما كَلّف مجموعة من الجنود بإحداث جلبة وغبار كثيف خلف المسلمين، مع التكبير بأصوات مُدوّية، فاستبد الرُعب بالروم، وظنّوا أن المسلمين قد جاءتهم إمدادات كبيرة، فاضطّروا إلى التراجع عن المواقع الأمامية، والابتعاد عن ساحة القتال، خشية الالتفاف حولهم. ولذات السبب خافوا من مُطاردة المسلمين، أثناء انصرافهم إلى الصحراء، لأنهم حسبوها مكيدة من خالد رضى الله عنه.فابتعد كلا الجيشين عن المكان تدريجيًا، ولم يُطارد أحدهما الآخر، وبذلك انتهت الموقعة. وما زالت تكتيكات"سيف الله المسلول"محلًا للدراسة فى أرقى المعاهد العسكرية المعاصرة، فقد كانت من الفنون الحربية الفريدة، التى لم يبتكرها أحد قبله، رضى الله عنه..أضف إلى هذا أن جميع من استشهدوا من المسلمين ١٢ بطلًا فقط، مُقابل ٣٤٠٠ قتيلًا رومانيًا، ولم ينجح الرومان فى أسر جندى مسلم واحد، رغم التفوّق العددى الكاسح! فإن كان المقياس هوحجم الخسائر، فكما نرى بلغت خسائر الروم حوالى ٣٠٠ ضعف خسائر المسلمين. وإذا كانت العبرة بسحق أحد الجانبين للآخر، فإن هذا لم يحدث.. والحرب كَرّ وفَرّ..

بل يمكن اعتبار الموقعة نصرًا للمسلمين، على ضوء أنهم حقّقوا أكثر من هدفهم، وهوالقصاص من قاتل مبعوث النبى وقومه الذين ظاهروه، وبدلا من إعدام قاتل واحد أمكنهم الله من رقاب ٣٤٠٠ فى تلك المعركة. ولأن مَنْ رأى ليس كَمَن سمع –ورغم الخسائر الهائلة التى ألحقوها بالكُفّار–فقد ثار الأطفال والنساء فى المدينة على أفراد السرية بعد عودتهم، لأنهم لم يعلموا ظروف الموقعة، ولا حجم الجيش الرومانى الضخم، كما أنهم لم يقبلوا ما ظنّوه هزيمة، تحت أى ظرف، ولوكان المقابل هواستشهاد الجميع..لكن الرسول صلى الله عليه وسلم، تدخّل لتصحيح المفاهيم، ونفى عن الأبطال تهمة الفرار، وأكّد أنّهم هم (الكُرّار إن شاء الله).

وقد وقع ما بَشّرَ به عليه السلام، إذ قاد–بنفسه الشريفة–جيشًا إلى"تبوك"بعد"مؤتة"بقليل، وهرب الروم من مُواجهتهم..ثم بعد ذلك بسنوات قلائل، سحقهم المسلمون، بقيادة خالد بن الوليد، نفسه، وألحقوا بهم عدة هزائم تاريخية، أشهرها"اليرموك"وطردوهم من جميع أنحاء الشام إلى غير رجعة. وبهذا تحقّقت رؤيا السيدة آمنة، التى رأت فيها نورًا يخرج من جوفها، ليُضىء قصور"بصرى"بالشام، وهوذات ما أخبر به النبى أصحابه، فى أحلك أوقات الخوف والحصار، فى ليالى موقعة"الخندق". وصدق الله العظيم : (هُوالَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) سورة الفتح:٢٨

٧٣ – قريش تنقض العهد

بعد عامين من صُلْح الحُديبية نقضت قريش العهد.فقد غدر"بنوبكر"حلفاء قريش بقبيلة"خُزَاعَة"حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وشَنّوا هجومًا مُفاجئًا عليها–بمساعدة المشركين–فقتلوا بعض أفرادها وأصابوا آخرين ونهبوا مُتلكاتهم. وجاء وافد الضحايا وشاعرهم عمروبن سالم الخزاعى إلى المدينة، وأنشد مُستغيثًا بالنبى قصيدة مطلعها:"يا رب إنّى ناشد مُحمدًا & حلف أبينا وأبيه الأتلدا" يشير بذلك إلى تحالف خزاعة مع بنى هاشم فى الجاهلية ثم الإسلام. ومَن يُغيث المكروب، ويدفع الله به الخطوب، إلّا سيد الأوّلين والآخرين؟

وعلى الفور أجابه النبى صلى الله عليه وسلم:"نُصرت يا عمروبن سالم"وأشار عليه الصلاة والسلام إلى سحابة ظهرت فى السماء قائلًا:"إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب"أى خُزَاعَة.. وهذه الكلمات الشريفات تعنى بوضوح إنتهاء الهدنة، وضرورة القصاص من القَتَلَة.

ومن أدلّة النبوّة أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه:"كأنّكم بأبى سفيان قد جاءكم، ليشدّ العقد ويزيد فى المدّة" أى أنه سيأتى مُحاولًا إصلاح الأمر، وسد الخرق، وتثبيت العقد. ولم يكن أبوسفيان قد خرج من مكة بعد، عندما أخبر النبى أصحابه بقدومه.. وما هى إلّا أيام حتى جاء زعيم قريش إلى المدينة–بالفعل–مُحاولًا الاعتذار عن الإعتداء على"خُزاعة"فى الحرم، وتأكيد الهدنة. وبدأ بمنزل ابنته أم المؤمنين السيدة"أم حبيبة بنت أبى سفيان"وعندما أراد الجلوس على فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، فُوجىء بابنته تنتزع الفراش من تحته!

سألها مُستنكرًا:ما أدرى يا بُنَيّة، أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟! فردّت بحزم وبلا تردّد: بل هوفراش رسول الله، وأنت مُشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراشه صلى الله عليه وسلم.فقال بانكسار:والله لقد أصابك يا بُنَيّة بعدى شَرّ.

وهكذا تكون المؤمنة الحَقّة، فالله ورسوله أحب إليها من أمّها وأبيها ونفسها وبنيها. ولا عجب فهى من المهاجرات الأُوُليات، فى سبيل الله، إلى الحبشة، رضى الله عنها. وخرج أبوسفيان من بيت ابنته مخذولًا، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مجلسه، ولكن النبى لم يرد عليه بشىء.فانصرف إلى أبى بكر، ورفض الصديق أن يشفع له عند النبى. وكان رد عمر بن الخطاب

رضى الله عنه على زعيم المشركين أقسى وأشدّ: أنا أشفع لكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! والله لولم أجد إلّا الذّر-الحصى- لجاهدتكم به.فمضى أبوسفيان إلى علىّ بن أبى طالب وزوجته السيدة فاطمة، وكان ابنهما الحسن صغيرًا يلعب إلى جوارهما، وطلب من علىّ الشفاعة عند النبى، لكن عليًّا أجابه:ويحك يا أبا سفيان.. والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نُكَلّمه فيه.فالتفت أبوسفيان إلى السيدة فاطمة قائلًا:يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى ابنك هذا، فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى أبد الدهر؟ فردّت السيدة فاطمة بحسم: والله ما بلغ ابنى ذاك، وما يُجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وألحّ أبوسفيان فى طلب مشورة علىّ، فاقترح عليه أن يذهب إلى المسجد، ويُعلن أنّه قد أجار بين الناس.. وفعل أبوسفيان ذلك، وانصرف إلى مكة. وعندما حكى لباقى زعماء المشركين ما جرى، وما فعله بمشورة علىّ، سألوه:وهل أجاز محمد جوارك للناس؟ فلمّا أجاب بالنفى، صاحوا به:والله ما زاد الرجل على أن لعب بك، فما يُغنى عنك ما قلت.. وهكذا فشلت كل مُحاولات تثبيت الهُدنة (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) سورة الأنفال:٤٤

٧٤ – إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ

خرج النبى صلى الله عليه وسلم على رأس جيش قوامه عشرة آلاف من الصحابة، ودعا رَبّه ألّا تعلم قريش بخروجه، ليُداهم المشركين على حين غِرّة، فلا يجدون وقتًا للاستعداد للقتال، ويُضطّرون إلى الاستسلام، حقنًا للدماء. وقد فشلت مُحاولة"حاطب بن أبى بلتعة"لتحذير قريش، إذ أوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأمره، وتم القبض على المرأة حاملة الرسالة إلى قريش، فور خروجها من المدينة. واعتذر حاطب بوجود أولاده وأهله هناك، وأنه أراد أن يتّخذ عند المشركين معروفًا، حتى لا يمسّوا أسرته بسوء. وطالب عمر بن الخطاب بإعدام حاطب لخيانته، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم عفا عنه، وقال للفاروق:"إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، ومَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "رواه البخارى ومسلم وغيرهما. وكان حاطب من السابقين المقاتلين فى غزوة بدر وغيرها.. وطالما أنه قد تم منع وصول الرسالة إلى قريش، ولم يحدث منها ضرر، فالعفومأمول عند الرسول، وقد تاب الرجل، فلا فائدة من إعدامه. وجاء العباس بن عبد المطلب بأهله وأولاده مُسلمًا. ورأى الحشود الهائلة، فأشفق على قومه، وأراد أن يقنعهم بالدخول فى الإسلام وعدم القتال، حتى لا يسحقهم الجيش الجرّار.فركب بغلة النبى البيضاء، ووَجَدَ أبا سفيان فى الطريق، فأردفه خلفه، عائدًا به إلى النبى صلى الله عليه وسلم، ومنع الفاروق من قتل زعيم المشركين، لأنه قد أجاره. وأسلم أبوسفيان، بعد حوار قصير مع النبى صلى الله عليه وسلم.. وبعد رؤية الأعداد الهائلة، تأكّد من عدم جدوى المواجهة، وقَرّر العودة إلى مكة لإقناع الجميع باستحالة المقاومة. وهنا نلمح فطنة العباس رضى الله عنه، إذ أراد تأليف قلب زعيم المشركين، فطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يُؤثر أبا سفيان بشىء، ارضاءًا لغروره وحُبّه للفخر. واستحسن صلى الله عليه وسلم اقتراح عَمّه، فاستجاب له، وقال قولته الحكيمة الخالدة:"نعم، من دخل دار أبي سفيان فهوآمن، ومن أغلق عليه داره فهوآمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"

وكما نرى فإن تأمين بعض المشركين الداخلين فى دار أبى سفيان سيرضى غروره، ولن يضر الإسلام بشىء. وفى ذات الوقت كانت رسالة سلام، لتهدئة الجميع، وحقن الدماء، فلن يُقاتل المسلمون إلّا مَن يُصِرّ على حمل السلاح ضدهم. وقد فطن الكُفّار لهذا فصاحوا بأبى سفيان:ويحك! وما تُغنى عنّا دارك ؟! فأخبرهم بتأمين كُل من يلزم بيته، وكُل من يلوذون ببيت الله الحرام، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لن يُقاتل إلّا مَن يقاتله. ومن نتائج الحكمة النبوية أن كلماته تلك التى أبلغها أبوسفيان، أقنعت

قريشًا بالاستسلام، واحتمى معظمهم ببيوتهم أوبالكعبة، إلّا قليلًا منهم، تَفَوّقت عليهم فرقة من المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد، وأخمدت مُقاومتهم المسلّحة. وهكذا سيّطر المسلمون على جميع أنحاء مكّة المكَرّمة بلا دماء..

وصدق الله العظيم:

(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ (١١) ورَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) سورة النصر.

٧٥- جاء الحق وزَهَقَ الباطل

دخل صلى الله عليه وسلم مكة، خافضًا رأسه، مُتواضعًا لرَبّه، حامدًا له على نعمته وفضله ونصره. وطاف بالبيت سبعًا.ثُم دعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة، فأخذ منه المفتاح، ودخلها، وأمر بإزالة ما فيها من صور وتماثيل المشركين، وصلى فيها بعد تطهيرها منها. وسأله على بن أبى طالب أن يُعطى المفتاح لآل هاشم، لكنه صلى الله عليه وسلم رفض استغلال الانتصار فى سلب آل طلحة حجابة الكعبة بالقُوّة، وقال لعثمان بن طلحة، وهويُعيد إليه المفتاح:"هاك مفتاحك يا عثمان..اليوم يوم وفاء وبِر". وذكر الحافظ ابن حجرالقصة-في"فتح البارى"-قائلا:"وروى ابن عائد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان [بن أبي طلحة] فقال:"خذوها-الحجابة-خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم، ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم".. ومن طريق ابن جريج أن عليًا قال للنبي-صلى الله عليه وسلم: اجمع لنا الحجابة والسقاية، فنزلت الآية الكريمة: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا }.سورة النساء:٥٨، فدعا النبى عثمان، وقال له:"خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم". وحان وقت الصلاة، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلالًا الحبشى بأن يُؤذّن بصوته الجميل النَدِىّ. وصُعق زعماء المشركين حين سمعوا صوت العبد السابق الذى كانوا يُعَذّبونه ويفعلون به ما شاءوا مِن قبل. وقال أحدهمَ"عَتّاب بن أسيد"لأبى سفيان:لقد أكرم الله أسيدًا-والده-ألّا يكون سمع هذا. وقال آخر هو"الحارث بن هشام":والله لوأعلم أنه-يقصد النبى-على حَق لاتبعته. وأمّا ثالثهما"أبوسفيان"فرفض التعليق، وقال:لا..لن أقول شيئًا..لوتكلّمت لأخبر عنّى هذا الحصى. وجاء النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبرهم بما قاله كُل واحد منهم، فهتف عَتّاب والحارث:نشهد أنك رسول الله.. والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أنه هوالذى أخبرك. وقام عليه الصلاة والسلام على باب الكعبة، فحمد ربّه، وأثنى عليه بما هوأهل له، ثم سأل المشركين:يا معشر قريش، ما ترون أنّى فاعل بكم ؟فأجابوه:خيرًا..أخ كريم وابن أخ كريم..فقال لهم صلى الله عليه وسلم مقولته التى خَلّدها التاريخ، باعتبارها مضرب الأمثال فى العفووالتسامح والصَفْح والإحسان، رغم كل ما فعلوه به وبأصحابه قبل ذلك : ((اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء)).. ولم يشمل قرار العفوالعام بضعة أشخاص، لأنهم ارتكبوا ما نُسميّه فى عصرنا"جرائم حرب"فكان إعدامهم عقابًا على تلك الجرائم، وليس بسبب الكُفر فى حد ذاته، وإلّا لكان الحُكْم هوإعدام جميع مشركى مكّة، وهذا لم يحدث.. وقد كان للعفوالعام تأثير عظيم على النفوس، فقد أسلم معظم سكُان مكة، بعد أن أدركوا أنه الحَق، وأنّ

هذه مكارم نبي، وأنه ليس ملكًا يسعى إلى سُلطان دنيوى.. وهناك موقف نبيل آخر.فقد كان عليه السلام يدعوربه، على جبل الصفا، حين كان الأنصار يتهامسون، متساءلين، عَمّا إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيبقى ببلده الأول-بعد الفتح-أم سيرجع معهم إلى المدينة؟ وبعد أن فَرَغَ من دُعائه سألهم:ماذا قلتم؟ فمنعهم الحياء منه أن يُخبروه، فقال لهم – وقد علم ما قالوه:- "معاذ الله..بل المحيا محياكم، والممات مماتكم ".أى أنه سيعيش معهم فى المدينة، ما بقى من حياته الشريفة، إلى أن يموت فيها بينهم. ومَنْ أحق بالوفاء وحفظ المعروف، وردّ الجميل منه صلى الله عليه وسلم ؟!

٧٦- يوم حُنَين

لم يكن قد بقى من عرب الجزيرة أحد يُعادى الإسلام-بعد فتح مَكّة-سوى هوازن وثقيف وحلفاء لهم.إذ خشى زعيمهم مالك بن عوف على مكانته ونفوذه، فحشد جيوشهم وأخرج معهم الأطفال والنساء وكُل مُمتلكاتهم من الأغنام والإبل والماشية، ليمنعهم من الفرار فى حالة الهزيمة! وسمع بهذا حكيمهم"دُريد بن الصمّة، وكان شيخًا كبيرًا طاعنًا فى السنّ، فسخر من حماقة مالك بن عوف، وقال:"راعى ضأن والله –يقصد أنه لا يفهم شيئًا فى قيادة الجيوش وخوض الحروب- وهل يرد المنهزم شىء ؟! إنما إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجل بسيفه ورُمحه.. وإن كانت عليك فضحتك فى أهلك ومالك"لكن ابن عوف أصَرّ على رأيه.. وأحسب أن الله تعالى قد قَدّر هذا، ليكون الكُلُ غنيمة للمسلمين لاحقًا. وعلم النبى صلى الله عليه وسلم بحشود هوازن وثقيف، فكان لابد من الخروج إليهم، منعًا لانتهاك حُرْمَة مَكّة، بالقتال فيها، وللمُبادرة بمُواجهة المعتدين فى معاقلهم. وخرجت أعداد هائلة، للمَرّة الأولى فى معارك الإسلام، تُقَدّر ب١٢ ألفًا-عشرة آلاف قدموا فى الفتح، و٢٠٠٠ من أهل مكة، مَنْ أسلم ومَنْ لم يزل على الشرك بعد-واستعار صلى الله عليه وسلم دروعًا من صفوان بن أمية، وكان ما يزال كافرًا. وهنا تسلّل الغرور إلى نفوس كثيرين، وبصفة خاصة من كانوا حديثى عهد بالإسلام..فقد أعجبتهم كثرتهم، وهتفوا بسذاجة:"لن نُغلب اليوم مِن قِلّة"! ونسوا أن النصر دائمًا وأبدًا هومن عند الله، بقوة العقيدة، وليس بالعدد ولا بالعُدّة.. وكان لابُدّ من درس قاس-مثل درس أُحُد-ليُفيق كُل مفتون بالأسباب، ويتوب إلى مُسَبّب الأسباب. وهكذا فُوجىء المسلمون بجحافل

هوازن وثقيف، تنقض عليهم من أعالى مرتفعات منطقة"حُنين"والسهام تنهال عليهم كالأمطار، فانفرط عقد الجيش، وتراجع أكثرهم.. وثبت صلى الله عليه وسلم، كالجبل الراسخ، وحوله الصفوة من آل هاشم ومن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. وهتف صلى الله عليه وسلم وسط حشود الأعداء، بشجاعة لا نظير لها:"أنا النبى لا كذب..أنا ابن عبد المطلب"وأمر عَمّه العباس، وكان صوته قويًّا مُدويًّا، فنادى بأعلى صوته:يا معشر الأنصار..يا أصحاب الشجرة-يقصد أهل بيعة الحديبية- فوثبوا جميعًا كالأسود الضوارى، هاتفين: لبيك لبيك.. وما أن انتظم منهم مائة، حتى شَدّوا على أضعاف عددهم من هوازن وثقيف، وأعانهم الله بجنود من الملائكة. وهنا بَشّرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالنصر وحَثّهم على الصمود هاتفًا: (الآن حمى الوطيس) أى اشتد القتال.. وخلال وقت قصير، قُتل من المشركين عشرات، وتم أسر ستة آلاف، وهرب الباقون. ومن إعجاز القرآن الكريم أنّه حكى أحداث الغزوة كُلّها فى آيتين اثنتين: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)..سورة التوبة.

٧٧- العفوعن هوازن

أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتأنّى فى توزيع الغنائم، انتظارًا لقدوم وفد هوازن وحلفائها، فى طلب العفووالصلح. وعندما جاءوا ناشدوه الإفراج عن الأسرى، وقالوا:يا رسول الله، إن فيهم خالاتك وعمّاتك وحواضنك، اللاتى أرضعنك ورَبيّنَك، فامْنُنْ مَنّ الله عليك-يقصدون أخوات وبنات السيدة حليمة السعدية-وكذلك جاءته أخته من الرضاعة، لذات الغرض، فرحّب بها وفرش لها ثوبه وأجلسها عليه. وكان تصرفه عليه السلام بالغ الحكمة والذكاء، فقد تنازل لهم عن نصيبه ونصيب بنى عبد المطّلب، فاقتدى به المهاجرون والأنصار، وتبعهم باقى الجيش فى التنازل عن أنصبتهم فى الأسرى.. وبهذا التوجيه الشريف تم تحرير ستة آلاف نسمة. والتأثير النفسى لهذا العفووالمنْ والتسامح الإسلامى أعظم أثرًا من حطام الدنيا الفانى. ويكفى أن هذا الموقف النبيل قد تسبّب فى دخول قبيلة هوازن وأتباعها بالكامل فى الإسلام، بعد أن كانوا من ألد الخصام. وأما الغنائم من الإبل والأغنام، فقد تم توزيعها على الناس، وخاصة الذين أسلموا حديثًا من زعماء قريش، لتأليف قلوبهم، ومحوالضغائن من صدورهم، وتقوية إيمانهم. وشكا بعض الأنصار لبعض من أن المؤلّفة قلوبهم قد حصلوا على الجزء الأكبر من الغنائم.فجمعهم صلى الله عليه وسلم، وبدأ بالثناء عليهم، وبيان فضلهم وتضحياتهم العُظمى فى سبيل الله، ثم شرح لهم السبب، وهوتأليف قلوب ضعاف الإيمان من زعماء قريش، وكَفْ شرورهم، وأنه ترك الأنصار، لما يعلمه من قوة إيمانهم ونُبْلِهم وإيثارهم..ثم ألا يكفيهم أن يعود الناس بالإبل والأغنام، وأن يرجعوا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ديارهم؟! وأكّد عليه الصلاة والسلام أنّه لولا الهجرة لكان هوبنفسه الشريفة واحدًا من الأنصار. واختتم عليه الصلاة والسلام الكلام، بدعوات للأنصار هى خير من الدنيا وما فيها :

(اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار) فبكوا جميعًا حتى ابتلّت لحاهم، وهتفوا:"رضينا بالله ورسوله، قسمًا وحَظًا"..رضى الله عنهم ورضوا عنه.

٧٨ – إسلام ثقيف

بعد النصر فى "حُنين"حاصر المسلمون"الطائف"التى تُحَصّنَ مجرموها بقلاعهم، وساعدتهم الهضاب وجبال المنطقة على المقاومة. واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه، فوَصَفَ له أحد حكمائهم الأمر بأن الطائف تُشبه جُحْر ضب–حيوان صحراوى من الزواحف–فإن صبر الصيّاد على مُراقبته وحصاره مُدّة أخذه، وإن تركه لم يضرّه. وعلى كُل حال فقد تلقّى القوم درسًا، ولمسوا عزم المسلمين على تأديبهم، بعد هزيمة حلفائهم فى"حُنين" ولن يتجاسروا على مُجرّد التفكير فى العدوان مَرّة أخرى.فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بفك الحصار والعودة إلى مكة. وقد كان تَعَذّر فتح الطائف من حكمة الله تعالى ورحمته.إذ حَقَنَ الله دماء أهلها، وما لبثوا أن جاءوا إلى النبى بعد ذلك تائبين مُسلمين لله رب العالمين. وكان عدد من رقيق المدينة قد تمكنوامن الهروب أثناء حصارها، باستخدام حبال وبَكَرَة حديدية للنزول من الهضبة، وأسلموا ولاذوا بالرسول صلى الله عليه وسلم. وبعد أن أسلم سادات الطائف، طلبوا منه رَدّ العبيد إليهم، لكنه صلى الله عليه وسلم لَقّنهم والعالم بأسره درسًا عظيمًا آخر، عندما رفض طلبهم، وأعلن أن هؤلاء هم: (عُتقاء الله ورسوله) ومن هذا نستنبط حُكْمًا، هوأن الرقيق إذا تَرَكَ دار الشرك، وجاء مُسلمًا يحظر رَدّه إلى الكُفّار..فقد جاء الإسلام لتحرير الناس، من العبوديّة لغير رَب الناس.

٧٩- النفير إلى تبوك

فى العام التاسع بعد الهجرة الشريفة أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عزمه على غزوالشام. وكانت هذه هى المرّة الأولى التى يتم فيها تحديد اتجاه الجيش، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتّخذ كافة الاحتياطات دائمًا، ومنها التعتيم على وجهة المقاتلين، لتضليل جواسيس المشركين.لكن هذه الغزوة جاءت فى ظروف صعبة، فالحرّ شديد، والطريق إلى الشام طويل، والناس يُحبّون الجلوس، لينعموا بالظلال والثمار.فأراد صلى الله عليه وسلم أن يكون كل امرىء على بَيّنَة من الأمر، ليُقرّر هل سيُشارك فى الغزوأم لا بمحض اختياره. وقد كان من الضرورى تأديب قَتَلَة مبعوث النبى، ثم بث الرُعب فى قلوب الروم، وتأكيد أن المسلمين قادرون على استكمال ما بدأوه فى غزوة "مُؤتة"وأن الدولة الإسلامية لها درع وسيف، كفيل بردع من لا يرتدع بغير القوة. وكان توقيت الغزوة وظروفها لحكمة إلهية كُبرى، هى تعرية المنافقين، وفضحهم، واستمرار الفرز والتمحيص والتمايز بين المؤمنين الصادقين وغيرهم. وبالفعل انسحب عبد الله بن أُبَيّ بن سلول بفريق كبير، مثلما فعل فى"أُحُد"واعتذر كثيرون للنبى صلى الله عليه وسلم بحجج واهية، فلم يُعاقبهم صلى الله عليه وسلم، ووَكّل أمرهم إلى الله. وفى المقابل استعدّ معه ثلاثون ألفًا من خيار الصحابة، كُل منهم يعدل جيشًا بمُفرده.. وتنافس عدد من أغنياء الصحابة فى التبرّع لتمويل الغزوة..فتبرع أبوبكر الصدّيق، وعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب.. ولكن عثمان بن عَفّان، رضى الله عنه، كان هوصاحب النصيب الأكبر من الجهاد بالمال فى ذلك اليوم، إذ جاء بألف دينار من الذهب الخالص، فنثرها فى حِجْر النبى صلى الله عليه وسلم، أثناء جلوسه فى مسجده الشريف. وراح عليه الصلاة والسلام يُقَلّب المال بين يديه ويُردّد:"مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ"وإلى جوار هؤلاء الذين أنفقوا، أبى الله تعالى إلا أن يُسجّل موقفا خالدا لبعض الذين لم يُرزقوا سعة من المال، ودليلًا على إيمانهم وإخلاصهم، فقد طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، سلاحًا وإبلًا يركبونها، للغزومعه،

ولم يكن عنده لهم شيء.فتآثر القوم، وانصرفوا باكين، حُزْنًا وأسفًا على فوات فرصة الجهاد، بسبب ضيق ذات اليد.. وقد أثنى الله على الصحابة المجاهدين بالمال والنفس، فى سورة التوبة بقوله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ ورَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الآية:١٠٠.. وأنزل سبحانه آيات أخرى، بالعفوعن آخرين، أمثال الباكين للعُذْر، تُبشّرهم بالرحمة والأجر– ونيّة المرء خير من عمله –كما فضحت الآيات المنافقين القاعدين المتخاذلين :(لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ ورَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ولاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣) سورة التوبة.

٨٠ – معجزات فى تبوك

لا يصمد فى الشدائد إلّا الأبطال من الرجال. ومن أولى بهذا من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين ؟! وهكذا خرج ثلاثون ألفًا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فى جوشديد الحرارة، وطرق وعرة طويلة. وشهدت الغزوة مُعجزات عديدة، كُلّها من دلائل النبوة بلا ريب.فقد أخبر النبى أصحابه بأن"أبا خيثمة"سيأتى بعدهم، وبالفعل شاهدوا فارسًا يُسرع خلفهم، وإذا هو"أبوخيثمة"رضى الله عنه.. وتلاه آخر من بعيد يُهرول على قدميه، فقال صلى الله عليه وسلم:"كُن أبا ذَرّ"فلمّا اقترب منهم تبيّنوا أنه هونفسه"أبوذَرّ الغفارى"رضى الله عنه، فقالوا:هووالله أبوذر يا رسول الله.فقال عليه الصلاة والسلام:"رحم الله أبا ذّر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده".كما أخبرهم الصادق الأمين بأن الله تعالى سيبعث لأبى ذر، فى الصحراء، جماعة من المؤمنين المسافرين، يقومون بدفنه. وبعد سنوات تحقّقَ ما أخبرهم به.فقد أقام أبوذر فى خيمة خارج المدينة–فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه–وحضرته الوفاة، فبكت امرأته حزنًا، لأنه لا يوجد معها من يدفنه سوى غلام له، فطمأنها رضى الله عنه، وذكّرها بالحديث الشريف، وأمرها أن تقوم مع غلامه بغسله وتكفينه، ثم تضع جثمانه على الطريق، انتظارًا لقدوم قافلة، سيُشارك أصحابها فى الصلاة عليه، وحفر قبره، ودفنه. وما كادت الزوجة والغلام يضعان الجسد الطاهر على قارعة الطريق، حتى شاهدا قافلة من المسلمين، فيها عبد الله بن مسعود وجماعة معه. وعندما علموا أنه أبوذّر، ترحّموا عليه وهتفوا:فديناه بأنفسنا وأهلنا.. وبكى ابن مسعود أخاه بحرارة، وراح يُقَبّله ويهتف:صدق رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يقصد الحديث الذى أخبرهم فيه، يوم تبوك، بموت أبى ذر وحده فى الصحراء، ثم قدوم مجموعة من المسلمين للصلاة عليه ودفنه، وهذا ماجرى بالضبط.. وكانت المعجزة الثالثة فى الطريق إلى"تبوك"هى هطول المطر الغزير، الذى يندر سقوطه فى صيف الجزيرة، شديد الحرارة، نادر السُحُب. وبهذا المطر أنقذ الله الجيش والدواب من الهلاك عطشًا.. ورغم هذه المعجزة الثابتة أبى بعض المنافقين إلّا المكابرة والجدال بالباطل، ورفضوا الإذعان للحق، فقال أحدهم:إنما هى سحابة عابرة! وكانت المعجزة الرابعة هى انسحاب جيش الرومان، بعد أن علم هرقل بقدوم النبى صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه، رغم أن عدد قوات الروم يبلغ ٧ أضعاف جيش المسلمين، وابتعد"هرقل"عن منطقة"تبوك"على الحدود بين الشام والجزيرة، لائذًا بحصونه فى الشمال. وهذا مصداق الحديث الشريف:" نُصرت بالرُعْب"رواه البُخارى ومسلم وغيرهما، ومعناه أن الله تعالى ينصر رسوله والمؤمنين بالخوف الشديد منهم، يُلقيه فى قلوب

الكافرين، فيفرّون أمامهم، رغم قلة عدد المسلمين فى كُل معارك صدر الإسلام. ويبدوأن"هرقل"خشى الهزيمة الساحقة، لأنه كان يعلم استحالة الانتصار على النبى.. ودليلنا على هذا هوتصَرّيحه، فى حواره مع أبى سفيان، قبل إسلامه، بأن محمدًا نبى ورسول، وأنه سيمتلك موضع قدمى هرقل"يقصد أرض الشام"، وقال"هرقل"أيضًا أنه لوكان عنده لغسل قدميه الشريفتين، صلى الله عليه وسلم–رواه البخارى– وكان من نتائج غزوة"تبوك"أيضًا اقتناع عرب الشام من النصارى، بعدم جدوى الاعتماد على المحتلين الرومان فى حمايتهم، وأن الأفضل لهم التحالف مع النبى وأصحابه، فهم–على الأقل– عرب مثلهم، والكُلُ أحفاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فاستجابوا لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعقد معه زعماء"أيلة"و"أذرح"و"الجرباء"صلحًا، ووافقوا على دفع الجزية، نظير دفاع جيش المسلمين عنهم ضد أى عدوان من الفرس أوالروم أوغيرهم.. وكان أمير"دومة الجندل"عنيدًا قوى الشوكة، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إليه سيف الله المسلول"خالد بن الوليد"على رأس٥٠٠ فقط من الصحابة الأبطال، وأخبره بأنه سيجده يصطاد الأبقار الوحشية.. وهى المعجزة الخامسة فى الرحلة، فقد فُوجىء"أكيدر الكندى"أمير دومة–لأول مَرّة فى حياته–بأعداد هائلة من الأبقار الوحشية، تدخل مدينته، وتحك قرونها بباب حصنه، فسال لُعابه، وطلبت منه زوجته عدم إهدار الفرصة السانحة، وأن يُبادر بصيد أكبر عدد مُمكن منها، ليجمع ثروة طائلة. وهكذا خرج"أكيدر"لمطاردة البقر، فوَقَعَ أسيرًا –بكُل سهولة– فى قبضة خالد بن الوليد رضى الله عنه. وكان أسره خيرًا له، فقد عفا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عنه، وحَقَنَ دماء قومه، فأسلم وصار حليفًا. وبصفة عامة كان الصُلح خيرًا للجميع وبركة عليهم فى الدنيا والآخرة، إذ لم تمرّ سنوات معدودات، حتى دخلت معظم قبائل الشام فى دين الله أفواجًا.

٨١ – (وظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ)

كان كعب بن مالك من السابقين الأوّلين من الأنصار، الذين شهدوا بيعة العقبة الكُبرى، وهوأيضًا أحد شعراء الصدر الأول من الإسلام. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يُحبه. ولكنه ابتلى بشيء من التراخي في الاستعداد لغزوة"تبوك"فقد ظَنّ أنه يستطيع اللحاق بالجيش في أي وقت، وقَدّر الله عليه ألّا يفعل. وراحت نفس كعب تتمزّق حين تلفّت حوله، فلم ير بالمدينة أحدًا–بعد خروج الجيش–سوى المنافقين المعلومين، والعجزة والمرضى والنساء. وعندما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الغزوة جلس بالمسجد، وجاء إليه مَن تَخَلّفوا، ليعتذروا بحجج مختلفة، فقبل منهم ظاهر أمرهم، وفوّض الأمر في سرائرهم إلى الله تعالى. وأبى إيمان وخُلُق كعب، رضى الله عنه، أن يكذب على النبي، أوأن يختلق أعذارًا واهية، وصَمّم على الصدق معه مهما كانت العواقب. وكان معه في مثل حاله صحابيان جليلان من أهل"بدر"هما هلال بن أميّة ومرارة بن الربيع، فلم يزد الرسول صلى الله عليه وسلم على أن أمهلهم، إلى أن يقضي الله في أمرهم بالوحي. وأمر الصحابة بعدم الكلام أوالتعامل معهم طوال فترة الانتظار.. وأحسب أنها كانت عقوبة نفسية قاسية، لابد منها، حتى لا يتكرّر التخلّف عن الجهاد منهم أومن غيرهم. واشتد الأمر على هلال ومرارة، رضى الله عنهما، فاعتزلا الناس، وجلسا في المنزل يبكيان.أمّا كعب فكان يتجلّد، رغم وطأة المقاطعة الشديدة على نفسه، ويخرج إلى المسجد، ليشهد الصلاة، ويمشي في شوارع المدينة، فلا يُكلّمه أحد. وما لبث الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم، إلى أن يحكم الله فيهم. وكان من البلاء كذلك أن ملك"غسّان"بالشام–نصراني–أرسل إلى كعب، وكان صديقًا له قبل الإسلام، رسالة يعرض عليه فيها أن يستضيفه عنده، بعد أن علم بمُقاطعة النبي له، وعلى الفور أحرق كعب الرسالة، فما كان لمثله أن يلحق بمُشرك، أويترك الرسول صلى الله عليه وسلم، مهما جرى. وبعد ٥٠ ليلة، مضت ثقيلة كأنها خمسين سنة، جاء الفرج من الله، وسمع كعب رضى الله عنه صحابيًّا يصيح بعد صلاة الفجر:يا

كعب بن مالك، أبشر..فسجد كعب رضى الله عنه فى الحال، حمدًا لله تعالى. وخلع ثوبه، وأعطاه هدية لصاحب البشارة.

واستعار ثوبًا آخر من أحد أقاربه، وانطلق إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فى المسجد، فتلقّاه عليه الصلاة والسلام بوجهه المنير كالقمر، بل أجمل، وقال له:"أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أُمّك"وأعلن كعب أمامه تبرّعه بكل أمواله لله، شكرًا على نعمة التوبة والعفو، لكنه صلى الله عليه وسلم أرشده وأرشد الأمّة كلها، إلى أن الأفضل هوالتصدّق ببعض المال، وإمساك الباقى، للإنفاق منه على النفس والأهل والعيال. وكذلك عاهد كعب الله ورسوله ألّا يتخلّى عن الصدق قط طوال حياته، بعد أن نَجّاه الله بصدقه. وخَلّد القرآن الكريم قصة كعب وصاحبيه، بقوله تعالى فى سورة التوبة: (لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوالتَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

82 – مسجد الضِرَار

كان فريق من المنافقين بضاحية"قباء"خارج المدينة قد بنوا مسجدًا، لاتخاذه وكرًا، وتفريق الصف، وإنقاص عدد المصلين فى مسجد قباء، الذى هوأول مسجد أنشىء بعد الهجرة، فقد بناه الرسول صلى الله عليه وسلم وصلى فيه. وطلب المنافقون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يُصلى بهم في مسجدهم الجديد. وكان هدفهم هوخداع المسلمين، وإظهار أن المسجد بُنى بمُباركة ومُوافقة النبى. وتبريرًا لما فعلوه قالوا:يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة–المرض–وذى الحاجة، والليلة المطِيرة، وربما جاء السيل فيملأ الوادى، ويقطع بيننا وبين القوم–مسجد قباء–فنصلى فى مسجدنا، فإذا ذهب السيل نصلى معهم.

وقد استمهلهم صلى الله عليه وسلم، إلى أن يرجع من غزوة تبوك. ولكن الله تبارك وتعالى أطلع رسوله على الهدف الحقيقى من بناء مسجد الضِرَار، وهوتفريق المسلمين، وإثارة النزاعات والخلافات بينهم، واتخاذه وكرًا لتدبير المؤامرات، والإجتماعات الشيطانية، وإيواء أعداء الله ورسوله. ونهاه رَبّه عن الصلاة فيه إستجابة لمطلبهم، وأمره بهدمه فى الحال. وبالفعل كَلّف الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابيين الجليلين مالك بن الدخشم ومعن بن عدى بحرق مسجد النفاق، فقاما، رضى الله عنهما، بالتنفيذ على الفور. وكانت هذه الخطوة حاسمة وضرورية للقضاء على آخر محاولات المنافقين لطعن الإسلام والمسلمين، وقطع دابر الفتن، ومنع إثارة القلاقل فى المجتمع. وأنزل الله تعالى آيات كريمات تُلَخّص الحال، بأبلغ مقال: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)<سورة التوبة.

٨٣ – عام الوفود

بعد فتح مكة والانتصار الساحق على هوازن وثقيف، ثم انسحاب الروم أمام المسلمين في"تبوك"وتحالف قبائل جنوب الشام معهم، لم يبق شك لدى أحد في جزيرة العرب، في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وظهور الدين الحنيف، فتقاطرت وفودهم على المدينة المنَوّرة، لمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام لله بين يديه. وقد أحصى ابن سعد في كتابه"الطبقات الكبرى"عشرات الوفود من جميع أنحاء الجزيرة، في ٥٠ صفحة كاملة، ولهذا يُسَمّي المؤرّخون العام الهجري التاسع –أوالعاشر حسب بعض الرواة– ب"عام الوفود"لكثرة من وفدوا فيه على المدينة، للدخول في الإسلام. وأمر النبي أبا بكر بأن يحج بالناس، هذا الموسم. وكان الجميع–المشركون والمؤمنون–يحجون معًا من قبل، ولكن بعد تحطيم كُل الأصنام في المنطقة، لم يعد معقولًا استمرار طواف الوثنيين بالكعبة المشرفة، رمز التوحيد في الأرض، ولا أن يتطفّل على بيت الله من لا يُؤمن به. كما لا يليق أن يطوف الناس–عُراة كما ولدتهم أمهاتهم–فهذا من سوء الأدب مع الله، فضلًا عن تنافيه مع الفطرة والذوق، وإخلاله بالجوالروحاني الصافي للعبادات، في بيت الله الحرام. وكذلك لم يعد مقبولًا ترك الغادرين الذين ينقضون العهود، ويقتلون المسلمين كلّما سنحت لهم الفرصة، بل لابد من ردعهم بعد إنتهاء الأشهر الحُرُم، بإستثناء من لا تزال عهودهم سارية لفترات أخرى، فلابد من احترام العقود طوال المدة. وبجميع ما سبق، وأحكام أخرى، أنزل الله تبارك وتعالى آيات خالدات من سورة التوبة، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا بن أبي طالب، ليتلوها على الناس في موسم الحج. ويُعلن أنه:"لا يدخل الجَنّة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعهده إلى مُدّته". والواقع يثبت أنه لم يقع قتال بعد نزول هذه الآيات، وحتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الأغلبية الساحقة من المشركين دخلت في دين الله أفواجًا. ويبدولنا أن القلة الضئيلة الباقية لم تجد ذريعة للعدوان، فضلًا عن ضعف شوكتها، وقوة الدولة الإسلامية، وما لبث بعضهم أن أسلم، ومات الباقون تباعًا، كما هلك عبد الله بن أُبَيّ رأس النفاق، وأمثاله، واحدًا تلوالآخر. وبهذا ترسّخت جذور شجرة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة العربية، لكي تمتد فروعها وظلالها الوارفة إلى كُل أنحاء الأرض، ولوكره الكافرون.

٨٤- دعوة الملوك إلى الإسلام

لم يكتف النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة العرب إلى الإسلام، فقد أرسله ربّه إلى الجميع: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).سورة الأنبياء:١٠٧، وقال تعالى فى موضع آخر: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (١٥٨) سورة الأعراف.. وقال سبحانه: (ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا ونَذِيرًا.(٢٨) سورة سبأ. ولهذا أوفد صلى الله عليه وسلم مندوبين عنه برسائله إلى جميع ملوك عصره، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وعدم منع رعاياهم من التعرّف على دين الحق والدخول فيه، وإلّا تحمّلوا أوزار إضلال هؤلاء جميعًا. وتفاوتت ردود هؤلاء على رسائل الهداية.فأمّا كسرى ملك الفرس فقد غضب، وتطاول، ومزّق رسالة النبى، وأرسل إلى عامله باليمن"بازان"يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه مُقيّدًا بالسلاسل.فدعا النبى عليه أن يُمزّق الله مُلكه.. وبعث"بازان"رجلين إلى الرسول، لكنه صلى الله عليه وسلم صَعَقَهُمَا بنبأ هلاك ملكهما، إذا أخبره جبريل بأن كسرى قد قُتِل، وبالفعل تبيّن مصرع كسرى فى تلك الليلة، فأسلم"بازان"حاكم اليمن، وأقرّه الرسول على عمله. ولا شك أن استجابة الدعاء الشريف على كسرى-بهلاكه-ثم إخباره للمبعوثين بمقتله، قبل أن تأتى الأنباء من فارس بأسابيع، هومن دلائل النبوة الثابتة.

وأما المقوقس حاكم مصر فَرَدّ رَدّا ليّنًا، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم بمبعث نبى بعد عيسى، لكنه لم يتوقّع أن يكون من العرب. وأهدى المقوقس جاريتين من مصر للنبى، وأموالًا وأمتعة. وإحدى الجاريتين هى السيدة مارية، التى أنجبت للنبى"إبراهيم"أحب ولده إليه، وأختها التى أهداها صلى الله عليه وسلم إلى حسان بن ثابت.

وكان"النجاشى"ملك الحبشة الذى آوى المهاجرين من المسلمين قد أسلم، فأرسل إليه الحبيب، طالبًا منه، إيفاد المهاجرين عنده إلى المدينة، وتزويجه السيدة"أم حبيبة بنت أبى سفيان"وإرسالها مع الآخرين، ودفع النجاشى مهرها من ماله الخاص، بالنيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان زوجها قد مات بالحبشة، فواساها النبى بنفسه الشريفة، كما أن فى زواجه منها تأليف لقلب أبيها زعيم قريش. وكذلك رَد أمير البحرين وأخوه بكل أدب—ابنا الجلندى-وأعلنا إسلامهما لله رب العالمين، فأقرّهما النبى على حكم بلدهما. وهناك رسائل أخرى لحُكّام محليّين، تفاوتت الردود عليها.. ولكن أهم ما يلفت الانتباه هورَدّ فعل"هرقل"قيصر الروم على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إليه، لأن ما قاله هرقل هومن دلائل النبوة.فقد اعترف، كما يُثبت حواره مع أبى سفيان بن حرب-رواه البخارى وغيره—

برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.إذ سأل أبا سفيان عدة أسئلة، ورغم شركه، لم يقدر أبوسفيان على الكذب بشأن النبي، فلمّا فرغ، قال هرقل: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذونسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها. وسألتك:هل قال أحد منكم مثل هذا القول، فأجبت:لا، فقلت: لوكان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يقتدي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فأجبت : لا، قلت: لوكان من آبائه من ملك، لقلت:رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فأجبت:لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك:أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن الضعفاء اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك:أيرتد أحد سخطة لدينه –كراهية له–بعد أن يدخل فيه، فأجبت:لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك:هل يغدر، فأجبت:لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم بأن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين –الشام– وقد كنت أعلم أن نبيًّا يخرج، ولم أكن أظن أنه منكم. ولوأعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه، ولوكنت عنده لغسلت عن قدميه.ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية الكلبي إلى عظيم بُصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه:بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم:سلام على من اتبع الهدى..أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين–أتباعه– و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

قال أبوسفيان:فلما قال هرقل ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجونا، فقلت لأصحابي حين خرجنا:لقد بلغ من أمر ابن أبي كبشة–يقصد النبي–أن يخافه ملك بني الأصفر.

وأضاف"أبوسفيان":فما زلت مُوقنًا أنه سيظهر، حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

٨٥- حِجّة الوداع

فى أواخر شهر ذى القعدة من العام العاشر الهجرى، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى عشرات الألوف من أصحابه وقبائل المناطق القريبة، لأداء مناسك الحج والعُمرة. ويُقَدّر عدد مَنْ شهدوا الحج معه من جميع أنحاء الجزيرة بأكثر من مائة ألف حاج، فيما عُرف ب"حجّة الوداع"لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها ولا غيرها، وكانت هذه هى رحلته الأخيرة إلى الحرم الشريف قبل وفاته. وفيها شرح صلى الله عليه وسلم للناس وأراهم-عمليًّا-كيفية أداء المناسك، وكان يقول:"خُذُوا عنّى مناسككم"وما سُئل صلى الله عليه وسلم حينها عن شىء من الشعائر، إلّا قال:"افعل ولا حرج"إثباتًا لحقيقة أن الإسلام يسر لا عُسر، وكان هديه الشريف وأمره الدائم للصحابة الكرام مَنْ بعده:"يسّرُوا ولا تُعسّرُوا، وبشّرُوا ولا تُنَفّرُوا"فمن نوى العمرة فقط فهوجائز، ثم يتحلّل، بعد طواف وسعى، ثم يُحرم من جديد يوم الثامن من ذى الحجّة للحج، قبل خروجه إلى"منى"ثم"عرفات"وبعد رمى الجمار، يطوف ويسعى مَرّة ثانية، للحج هذه المرة، وهذا هو"المتمتّع"وعليه دم –أى ذبيحة قربانًا لله، يأخذها الفقراء ومساكين الحرم- ومن شاء أن يُؤدّى الحج والعمرة معًا-ويُسمّى"القارن"- فله ذلك، فيطوف بالكعبة طواف القدوم، ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يبيت بمنى، ويقف بعرفة، ويرمى الجمرات، ويطوف بعدها طواف الإفاضة، ويتحلّل بحلق الشعر أوتقصيره، وبهذا تنتهى المناسك. وعليه دم أيضًا. ومن شاء فليُؤدّ الحج فقط-يقول:لبيك بحج-ولا شىء عليه، ويمكنه أداء العُمرة فى وقت آخر.. وكانت خطبة الوداع التى ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم فى حشود الحجيج يوم عرفة، هى مسك الختام، فقد تضمنت خُلاصة الوصايا والنصائح النبوية الجامعة، للبشر كافة، التى بها تتحقّق سعادة الدارين للطائعين، وهى تُشكّل-حسبما أرى- إعلانًا إسلاميًّا عالميًا لحقوق الإنسان، سبق كافة المواثيق الوضعية، بمئات السنين. وفيما يلى نص الخطبة المباركة، كما وردت بصحيح مسلم وأُمهات كتب السُنَن والسيرة :

(أيُّها النَّاسُ، اسمعوا قولي، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا، بِهذا الموقِفِ أبدًا.أيُّها النَّاسُ، إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليْكُم حرامٌ، إلى أن تلقَوا ربَّكم كحُرمةِ يومِكم هذا، وكحُرمةِ شَهرِكم هذا، وإنكم ستلقونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم وقد بلَّغتُ، فمن كانت عندَهُ أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنَهُ عليْها، وإنَّ كلَّ ربًا موضوعٌ، ولكن لَكم رؤوسُ أموالِكم، لا تظلِمونَ ولا تُظلَمونَ، قضى اللَّهُ أنَّهُ لا ربًا، وإنَّ ربا العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ موضوعٌ كلُّهُ. وإنَّ كلَّ دمٍ كانَ في الجاهليَّةِ موضوعٌ، وإنَّ أوَّلَ دمائكم أضعُ دمَ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلب-وَكانَ مسترضَعًا في بني ليثٍ، فقتلتْهُ هُذيلٍ-فَهوأوَّلُ ما أبدأُ

بِهِ من دماءِ الجاهليَّةِ ..أما بعدُ أيُّها النَّاس، إنَّ الشَّيطانَ قد يئِسَ أن يعبدَ في أرضِكم هذِهِ أبدًا، ولَكنَّهُ رضى أن يطاعَ فيما سوى ذلِكَ، مِمَّا تحقِّرونَ من أعمالِكم، فاحذروهُ على دينِكُم. أيُّها النَّاسُ:"إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، ويحرّموا ما أحلَّ اللَّهُ"وإنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كَهيئتِهِ يومَ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ، وَ« إنَّ عدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللَّهِ اثنا عشَرَ شَهراً منْها أربعةٌ حُرُمٌ » ثلاثةٌ متواليةٌ، ورجبُ الَّذي بينَ جُمادى وشعبانُ.أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ، فإنَّ لَكم على نسائِكم حقًّا ولَهنَّ عليْكم حقًّا، لَكم عليْهنَّ أن لا يوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تَكرَهونَه، وعليْهنَّ أن لا يأتينَ بفاحشةٍ مُبيّنةٍ، فإن فعلنَ فإنَّ اللَّهَ قد أذنَ لَكم أن تَهجُروهنَّ في المضاجِعِ، وأن تضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مُبرِّحٍ، فإنِ انتَهينَ فلَهنَّ رزقُهنَّ وَكسوتُهنَّ بالمعروفِ واستوصوا بالنِّساءِ خيرًا، فإنَّهنَّ عندَكم عَوانٍ لا يملِكنَ لأنفسِهنَّ شيئًا، وإنَّكم إنَّما أخذتُموهنَّ بأمانةِ اللَّهِ، واستحللتُم فروجَهنَّ بِكلمةِ اللَّهِ، فاعقلوا أيُّها النَّاسُ قولي، فإنِّي قد بلَّغتُ. وقد تركتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم بِهِ فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا، كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ نبيِّهِ..أيُّها النَّاسُ، اسمعوا قولي واعقِلوهُ، تعلمُنَّ أنَّ كلَّ مسلمٍ أخ للمسلِمِ، وأنَّ المسلمينَ إخوَةٌ، فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيهِ إلا ما أعطاهُ عن طيبِ نفسٍ منه، فلا تظلِمُنَّ أنفسَكمُ..اللَّهمَّ هل بلَّغتُ، قالوا:اللَّهمَّ نعَم، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم:اللَّهمَّ اشْهَدْ)

ونُلاحظ أن الخطبة الشريفة تضمنت كل مبادىء حقوق الإنسان، ومكارم الأخلاق، وأسس العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحرص صلى الله عليه وسلم على تطبيق ما يدعوإليه على قبيلته قبل أى أحد آخر، فبدأ بإلغاء ربا عمه العباس، وإهدار دم ابن عمه الآخر–الحارث بن عبد المطلب–وبهذا أرسى قاعدة هامة، هى عدم المحاباة لقرابة أوصداقة أومصلحة ما..كما نُلاحظ أن قوله صلى الله عليه وسلم:"لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا"كان إشارة واضحة إلى اقتراب أجله الشريف، لم ينتبه إليها كثيرون..فداه نفسى ووالدى وولدى.

٨٦- مرض الحبيب

كان من أواخر ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).المائدة:٣. وأكّد الحافظ ابن حجر رضى الله عنه نزولها قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بثمانين يومًا. وبكى أبوبكر الصدّيق، رضى الله عنه، حين سمعها، لأنه فهم أن الحبيب قد أدى الأمانة، وأبلغ الرسالة، ولم يبق بعد الكمال شىء إلّا نفاد الأجل. وأصَرّ صلى الله عليه وسلم على استكمال ما كان قد بدأ، وهوتأمين حدود بلاد المسلمين، فأعدّ جيشًا بقيادة أسامة بن زيد، لغزوالمنطقة التى استشهد فيها أبوه"مُؤتة"وكان عمر أسامة حينها أقل من ٢٠ سنة، وفى الجيش أكابر الصحابة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يتعوّد الناس الطاعة والإلتزام بالأوامر، ولوكان القائد صغيرًا، طالما أن لديه الدراية والكفاءة اللازمة. وفى هذا أيضًا إتاحة الفرصة للشباب وتدريبهم على تولّى مقاليد الأمور، وتكريم لأسامة، بتوليته مكان أبيه الشهيد. ولكن الجيش اضطر إلى المرابطة خارج المدينة، وانتظار التطورات، بعد أن بلغهم نبأ مرض النبى صلى الله عليه وسلم. وكان عليه السلام قد شعر بصُداع بعد عودته إلى المدينة بأسابيع قلائل، وراح الألم يتزايد شيئًا فشيئًا، فطلب عليه الصلاة والسلام من زوجاته السماح له بتلقّى العلاج فى حُجرة السيدة عائشة، فوافقن بكل نُبل وأريحية، وتنازلن عن حقهن فى المبيت عندهن، لأن حبهن للرسول والزوج تَغَلّب على غيرتهن الفطرية، فآثرن هواه على عشقهن له. ورغم اشتداد الحُمّى، ظل صلى الله عليه وسلم يُصلى بالناس عدة أيام، حتى غلبه المرض، فكَلّف أبا بكر بإمامة المسلمين فى الصلاة. وكانت إشارة نبوية حكيمة، غير مُباشرة، وتوجيهًا لطيفًا-بلا إلزام ولا إجبار-إلى اختيار أبى بكر من بعده، لتولّى خلافته. وقد فهمها الصحابة الأذكياء، فيما بعد، فقالوا: رضيه الرسول صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا ؟! وذات يوم أحس بتحسّن طفيف، فطلب أن يصبّوا عليه ٧ قِرَب ماء من آبار مُختلفة، لينشط ويخرج إلى الناس، ليعهد إليهم. وبالفعل خرج صلى الله عليه وسلم، وخطب فى الناس، فنهى عن الاعتراض على قيادة أسامة بن زيد للجيش، كما اعترضوا على قيادة أبيه من قبل، وشهد له عليه الصلاة والسلام بأنه يستحقها، كما استحقها أبوه من قبله. وأثنى على أبى بكر، بما قَدّم فى سبيل الله، وبحُسن صحبته لرسوله، كما أثنى على الأنصار، الذين آووا ونصروا، وضحّوا فى سبيل الله بكل ما يملكون، وأوصى بهم خيرًا، وأمر بالإحسان إلى المحسن منهم، والتجاوز –العفو-عن المسىء منهم. وكانت إحدى عبارات الحديث واضحة تمامًا

فى أن الحبيب صلى الله عليه وسلم يُوشك أن يُغادر الأرض، إذ قال:"إن الله خَيّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله"وفهمها الصديق، فبكى بحرارة:وهتف:"فديناك بأنفسنا وأبنائنا". ومن دلائل النبوة أنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر ابنته السيدة فاطمة—فى مرضه–بأن روحه ستصعد إلى بارئها، فبكت، ثم أخبرها بأنها أول من سيلحق به من أهله، فضحكت. وبالفعل لم تمكث بعده إلّا ستة أشهر فقط، وكانت أول من مات بعده من أهله.كما قال لأمهات المؤمنين:"أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا"فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ– يقمن بقياس أطوال أيديهن–ثم ماتت بعده السيدة زَيْنَبُ بنت جحش، فعلمن أنه كان يقصد أطولهن يدًا فى الصدقة وفعل الخيرات، وكَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَتصَدَّقُ على الفقراء والمساكين بالعائد.

صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

٨٧- مع الرفيق الأعلى

فى يوم الإثنين الذى قُبضت فيه روحه صلى الله عليه وسلم، تحامل على نفسه، وخرج عاصبًا رأسه الشريف، إلى صلاة الفجر، وكاد المسلمون يُفتنون فى صلاتهم من شدة الفرحة به، وفهم أبوبكر من الضجّة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء، فتأخر عن موضع الإمام، لكن النبى دفع فى ظهره برفق، ليبقى مكانه ويُصلّى بالمسلمين، وصلى الرسول خلفه. وفى هذا حُجّة أخرى على الشيعة، الذين يتطاولون على مقام الشيخين الوزيرين-الصدّيق والفاروق- فالنبى هوالذى أمر أبا بكر بإمامة الناس فى الصلاة، فاختاره المسلمون خليفة بعد وفاته بالبيعة العامة، ثم رَشّح أبوبكر عمر من بعده، ووافق المسلمون وبايعوه بالإجماع أيضًا.. وفى رواية أخرى أنه عليه السلام كشف ستار الحجرة، وابتسم سعيدًا برؤية انتظام صفوف المسلمين، وخشوعهم فى الصلاة، لكنه لم يقوعلى الخروج إليهم، فأشار إلى أبى بكر بالبقاء فى مكانه إمامًا، ثم أرخى الستر بينه وبينهم.. وكانت عنده من ٥ إلى ٩ دنانير فقط، فأمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين. وروى الإمام أحمد:"عن عائشة قالت:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:"مَا فَعَلَتْ الذَّهَبُ "قَالَتْ:قُلْتُ:هِيَ عِنْدِي، قَالَ:"ائْتِينِي بِهَا" فَجِئْتُ بِهَا، وَهِيَ مَا بَيْنَ التِّسْعِ أَوالْخَمْسِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ:"مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِاللَّهِ لَولَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وهذه عنده"؟ وأمر بالتصدّق بها.. ورُوى:"ما ترك صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِينَارًا، ولا دِرْهَمًا، ولا عَبْدًا، ولا أَمَةً، إلا بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وسِلاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى صَدَقَةً. وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أعتق ٦٣ نفسًا-ذات عدد سنوات عمره-هم كل ما وصل إلى يده الشريفة من عبيد أوإماء، فضرب المثل وقدّم القدوة الحسنة فى تحرير الناس من العبودية لغير رب الناس.

وهكذا أصرّ عليه الصلاة والسلام على الخروج من الدنيا، كما عاش، بلا مال أومتاع كان زاهدًا فيه طوال عمره الشريف.فقد كان فراشه وسادة خشنة، محشوّة بالليف، وغالب طعامه التمر والماء، ويمر الشهر تلوالآخر بغير أن تُوقد فى بيته نار للطهى. وكان -كما روى الترمذى وغيره- كثيرًا ما يربط على بطنه الشريف حجرًا أوحجرين من شِدّة الجوع..ثم اشتدت عليه سكرات الموت، فجعل يمسح وجهه ورأسه الشريف بالماء، قائلًا:" لا إله إلا الله، إنّ للموت لسكرات "ورأى سواكًا فى يد السيدة عائشة، وأطال النظر إليه، ففهمت أنه يريده، فأعدته له، وساعدته على استعماله. واشتد عليه الأمر، فكان يُغشى عليه ثم يُفيق، ورأسه الشريف على فخذ زوجته عائشة. وبكت ابنته السيدة فاطمة، صائحة:وا كرباه، فردّ عليها صلى الله عليه وسلم:"لا كرب على أبيك بعد اليوم"ثم جعل يُرَدّد:"اللهم

فى الرفيق الأعلى"فقالت السيدة عائشة:خُيّرت فاخترت، والذى بعثك بالحَق.. وكان صلى الله عليه وسلم يقول وهوصحيح"إنه لم يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنّة، ثم يُخَيّر"أى يُخيّره الله بين الجنة وبين الدنيا.قالت عائشة:"فلما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأسه على فخذي، غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال:"اللهم الرفيق الأعلى"قالت عائشة: قلت إذا لا يختارنا، وعرفت الحديث الذي كان يحدّثنا به وهوصحيح"تعنى قوله إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخَيَر.فكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، هى قوله"اللهم الرفيق الأعلى"والحديث رواه الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما. وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم، مُصيبة كُبرى على الجميع..يصف صاحبه وخادمه أنس بن مالك رضى الله عنه الحال يوم وفاته قائلًا:"لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، ومَا نَفَضْنَا أَيْدِيَنَا مِنَ التُّرَابِ، وإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ,حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا "

وفقد الفاروق رضى الله عنه اتزانه من وطأة الفجيعة، وهدّد بقطع أيدى وأرجل من يزعمون وفاة النبى..لكن الله تعالى قَيّض للأُمّة، من يضبط أمرها فى الشِدّة، وهوالصدّيق، رضى الله عنه، الذى دخل على النبى فى مثواه الأخير بحُجرة عائشة، فأقبل حتى كشف عن وجه الرسول صلى الله عليه وسلم فقبّله، وقال: بأبي أنت وأمي، طِبْتَ حيًّا ومَيّتًا..أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذُقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا..ثم غَطّى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، وخرج، وعمر يُكلّم الناس، فطلب منه الإنصات، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبوبكر لا يُنصت أقبل على الناس، فأقبلوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية من سورة آل عمران: (ومَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوقُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ ومَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

قال الراوى"أبوهريرة": فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبوبكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم. وقال عمر: والله ما هوإلا أن سمعت أبا بكر يتلوها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات.. وكان كفنه بسيطًا، وقبره الشريف مُجرّد حفرة بحُجرة السيدة عائشة، غاية فى التواضع والبساطة، فهوإمام الزاهدين، وقدوة العارفين، وسيد الأولين والآخرين.

خاتمة

ولئن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد غاب عنّا بجسده الشريف، إلّا أن القرآن العظيم الذى أُنزل عليه باق فينا، ما بقيت السماء والأرض. وكذلك تبقى سُنّته وسيرته العطرة، قدوة للتابعين، ومنارًا للحائرين، وهداية للضالين، إلى يوم الدين.. ونشهد أنّه صلى الله عليه وسلم قد بَلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأُمّة، وكشف الله به الغُمّة، فجزاه الله خير ما جزى رسولًا عن الإنسانية جمعاء.

&&&

الصلاة والسلام علي سيدنا وعظيمنا وقائدنا ورسولنا

الأكرم يوم وُلِد، ويوم بُعث، ويوم بلّغ، ويوم بَشّر، ويوم أنذر،

ويوم هاجر، ويوم قاتل، ويوم انتصر، ويوم قُبض، ويوم يبعثه

الله شاهدًا علينا، وشفيعًا لنا – بإذنه سبحانه وتعالى – حين يقوم الحساب

٨ – أهم المراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: أمهات كتب التفسير:

١ – تفسير الإمام ابن كثير.

٢– تفسير الإمام القرطبي.

٣– تفسير الإمام البغوى.

٤– تفسير الإمام الرازى.

٥– تفسير الإمام النسفى.

٦– تفسير الإمام البيضاوى.

٧– حلقات تفسير شيخنا محمد متولى الشعراوي (فيديو).

٨– "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم"، تأليف مجموعة من كبار علماء الأزهر.

٩– تفسير الإمام السيوطى.

١٠– تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي.

ثالثًا: أمهات كتب الحديث:

١ – صحيح الإمام البخاري.

٢ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلانى.

٣ – صحيح الإمام مسلم .

٤ – شرح صحيح مسلم للإمام النووي.

٥ — السنن الأربعة: أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

٦ — سنن البيهقى.

٧ – معجم الطبرانى.

٨ – مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٩ – الموطأ، للإمام مالك بن أنس.

١٠ – المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم.

ثالثًا: كتب السيرة ومنها:

١ – السيرة النبوية للإمام ابن محمد بن إسحاق، برواية تلميذه ابن هشام.

2– الروض الأُنف للإمام السهيلى.

٣ – زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم.

٤ – "الفصول في اختصار سيرة الرسول"، و"معجزات النبى"، و"البداية والنهاية"، للإمام ابن كثير.

٥ – الجزءان الأول والثانى من "سير أعلام النبلاء"، للإمام الذهبى.

٦– "تاريخ الأمم والممالك"، للإمام الطبري، وتفسيره للقرآن الكريم.

٧– جوامع السيرة النبوية – ابن حزم الأندلسى.

٨– مختصر سيرة النبي وسيرة أصحابه العشرة – لعبد الغني المقدسي.

٩– الشفا بتعريف حقوق المصطفى – للقاضى عياض.

١٠– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير – محمد بن سيد الناس

١١– الدُرر فى اختصار المغازى والسير، للإمام ابن عبد البر.

١٢– "فقه السيرة"، للشيخ محمد الغزالي .

١٣– نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضري

١٤ – السيرة النبوية، للشيخ محمد أبوزهرة.

١٥– "الرحيق المختوم"، للمباركفوري.

١٦– "عبقرية محمد"، و"الصديقة بنت الصديق"، لعباس محمود العقاد.

١٧– السيرة النبوية فى ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي.

١٨– السيرة النبوية، للدكتور محمد على الصلابي.

١٩– السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسُنّة، د. محمد أبوشهبة.

٢٠– السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري.

٢١- تاريخ الإسلام في عصر النبوة، د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف.

٢٢- "حياة محمد"، للدكتور محمد حسين هيكل.

رابعًا: كتب الشمائل والدلائل ومنها:

١- صفة النبي -أبوالحسن علي بن المدائني

٢- صفة أخلاق النبي - داود بن علي الأصبهاني

٣- الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية- الإمام الترمذى

٤- دلائل النبوة - الإمام البيهقى

٥- دلائل النبوة — أبونعيم الأصبهانى

٦- أعلام النبوة — الإمام الماوردى

٧- الأنوار فى شمائل النبى المختار- الإمام البغوى

٨- غاية السول فى خصائص الرسول- ابن الملقّن

٩- المواهب اللدنية فى المنح المحمدية- الإمام القسطلانى

١٠- "أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب"و"الشمائل الشريفة"و"الخصائص الكبرى"للإمام السيوطى.

خامسًا: كتب ومراجع متنوعة:

١- "سُبُل السلام"، للإمام الصنعاني.

٢- "حلية الأولياء"، لأبي نعيم.

٣- "حِكَم النبى محمد"- للأديب الروسى العالمى ليوتولستوى.

٤- العظماء مائة أعظمهم محمد — مايكل هارت.

٥- " الأبطال"- المفكّر والأديب العالمى توماس كارليل.

٦- "محمد نبى لزماننا" — كارين أرمسترونج.

٧- الدعوة الإسلامية - توماس أرنولد

٨- زوجات لا عشيقات-التعدد الشرعى ضرورة العصر- حمدى شفيق

٩- الإسلام مُحرّر العبيد-التاريخ الأسود للرق فى الغرب- حمدى شفيق.

١٠- شبهات حول المسلمات - حقوق النساء فى شريعة السماء - حمدى شفيق.

المحتويات

أنوار السيرة ٢
١- إن الله لا يُضَيّع أهله ٦
٢ - ابن الذبيحين ٨
)أصحاب الفيل3- (..... ١٠
٤- اليتيم الأعظم ١٣
٥- معجزة شق الصدر ١٥
٦- قصة الراهب ١٧
٧- الصادق الأمين ١٩
٨- الزوجة الأُولى ٢١
٩- إعادة بناء الكعبة ٢٣
١٠- بشارات النبوة ٢٤
١١- الاعتكاف فى غار حراء ٢٦
١٣- شبهات حول الوحى ٢٨
١٤- مرحلة الدعوة السِرّيّة ٣٠
١٥- فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ٣٢
١٦- تضحيات المسلمين الأوائل ٣٣
١٧- قصة إسلام أبى ذر الغفارى ٣٤
١٨- مفاوضات مع أبى طالب ٣٥
١٩- شهادة زعيم المشركين للقرآن الكريم ٣٧
٢٠- إسلام الأسدين حمزة وعمر ٣٩
٢١- معجزة انشقاق القمر ٤١
٢٢- الهجرة إلى الحبشة ٤٣
٢٣- الحصار ٤٥

٢٤- ثمرات رحلة الحبيب إلى الطائف ٤٧
٢٥ - الإسراء والمعراج ٥٥
٢٦- الصِدّيق يُواجِه المشركين ٥٦
٢٧- شمس الإسلام تُشْرِقْ على يَثْرِبْ ٥٧
٢٨- بيعة العقبة الثانية ٥٨
٢٩- المؤامرة الكُبرى ٥٩
٣٠ - (إِذْ هُمَا فِي الْغَار) ٦٠
٣١- قصة سُرَاقَة بن مالك ٦٢
٣٢ - ((أُم معبد)) ٦٤
٣٣- بناء المسجد النبوى ٦٦
٣٤- المُؤَاخَاة بين المُهَاجِرِين والأنصار ٦٧
٣٥ - دستور المدينة ٦٩
٣٦ - أهداف السرايا ٧٢
٣٧- والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْل ٧٣
٨٣- الطريق إلى بدر ٧٤
٣٩ - مجلس شورى بَدْر ٧٦
٤٠ - لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ٧٨
٤١ - يوم الفرقان ٧٩
٤٢ - مصارع الطُغَاة ٨١
٤٣ - المَنّ والفِدَاء ٨٣
٤٤- حول إعدام مُجْرِمِى الحرب ٨٥
٤٥ - غزوة بنى قينقاع ٨٧
٤٦- إعدام كعب بن الأشرف ٨٩
٤٧ - غزوة السُويق ٩١

٤٨- سِن السيدة عائشة عند الزواج..... ٩٢
٤٩- مجلس شورى أُحُد..... ٩٤
50- خطأ الرماة ٩٦
51- الله أعلى وأَجَلّ ٩٨
٥٢- كرامات خبيب بن عدى وأصحابه ١٠٠
٥٣ - غدر عند البئر..... ١٠٢
٥٤- مُحاولة اغتيال فاشلة..... ١٠٣
٥٥- الخندق..... ١٠٤
٥٦ - غدر اليهود..... ١٠٦
٥٧- إعدام خَوَنَة بنى قُريظة..... ١٠٩
58- مَلَكْتَ فاسجح..... ١١١
٥٩- تحرير بنى المصطلق ١١٢
٦٠- ولله العِزّة ولرسوله وللمُؤمنين..... ١١٣
٦١- حديث الإفْك..... ١١٥
٦٢- حابس الفيل..... ١١٧
٦٣- مفاوضات الحديبية..... ١١٨
٦٤- بيعة تحت الشجرة..... ١٢٠
٦٥- شروط الصلح ١٢١
٦٦- فتح قريب ١٢٢
٦٧- درس فى حقن الدماء..... ١٢٤
٦٨- فتح خيبر ١٢٥
٦٩- دروس من غزوة خيبر ١٢٧
٧٠- عُمرة القضاء ١٢٩
٧١- سَرِيّة الأُسُود ١٣١

٧٢- مُعجزة عسكرية فى مُؤتة ١٣٢
٧٣ - قريش تنقض العهد ١٣٤
٧٤ - إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ ١٣٦
٧٥- جاء الحق وزَهَقَ الباطل ١٣٨
٧٦- يوم حُنَين ١٣٩
٧٧- العفوعن هوازن ١٤١
٧٨ - إسلام ثقيف ١٤٢
٧٩- النفير إلى تبوك ١٤٣
٨٠ - معجزات فى تبوك ١٤٥
٨١ - (وظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ) ١٤٧
82 - مسجد الضِرَار ١٤٩
٨٣ - عام الوفود ١٥٠
٨٤- دعوة الملوك إلى الإسلام ١٥١
٨٥- حِجّة الوداع ١٥٣
٨٦- مرض الحبيب ١٥٥
٨٧- مع الرفيق الأعلى ١٥٧
خاتمة ١٥٩
٨ - أهم المراجع ١٦٠
أولًا: القرآن الكريم. ١٦٠
ثالثًا: أمهات كتب الحديث: ١٦٠
ثالثًا: كتب السيرة ومنها: ١٦١
رابعًا: كتب الشمائل والدلائل ومنها: ١٦٢
خامسًا: كتب ومراجع متنوعة: ١٦٢